ولدت مرتين

من حكايا الدمع في سوريا

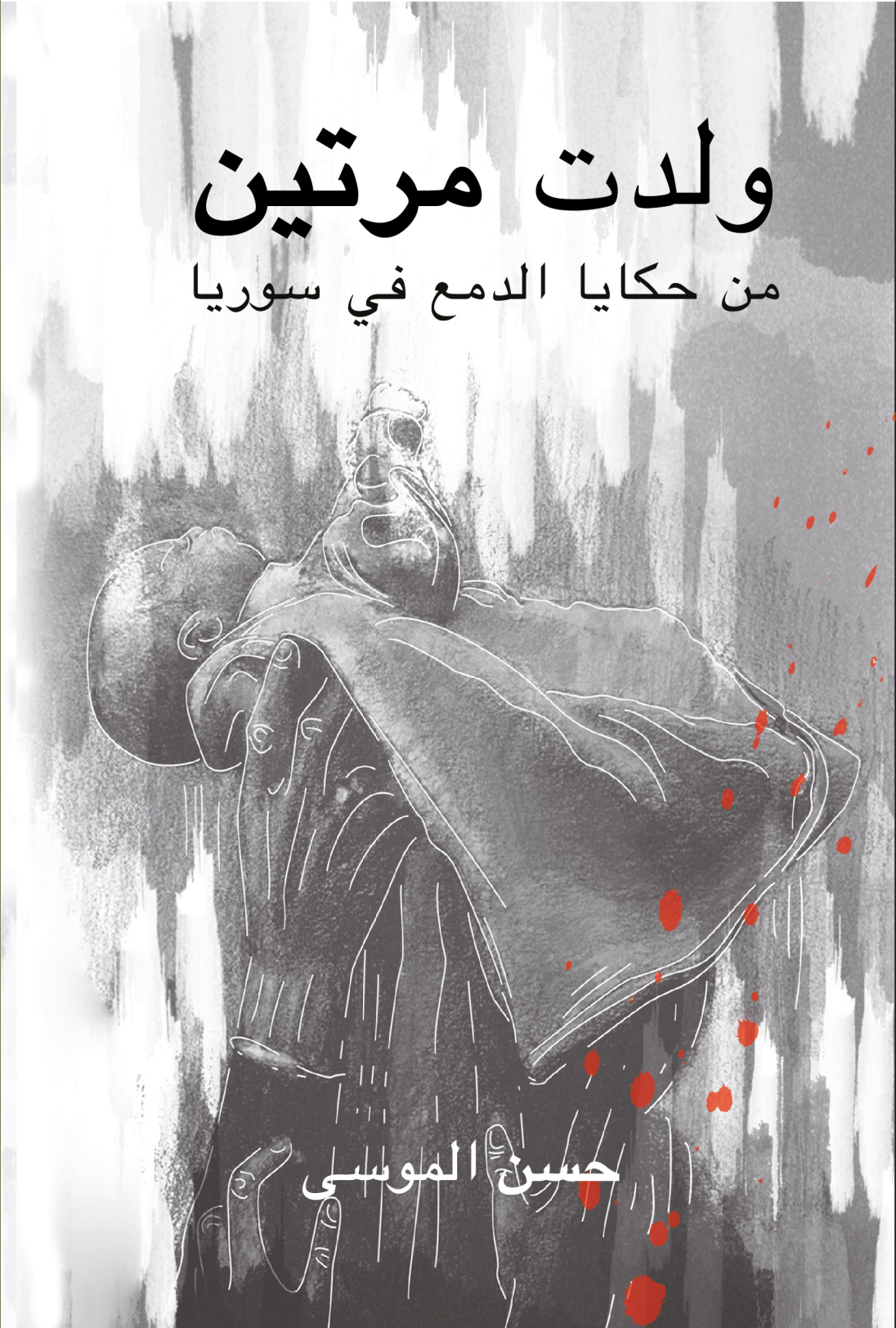

حسن الموسى

ISBN 978-625-400-912-9

حقوق النشر © 2019 بواسطة حسن الموسى
كل الحقوق محفوظة

لا يجوز استخدام أو إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة أو رسومية أو إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو أي نظام لاستعادة تخزين المعلومات، دون إذن كتابي من الناشر إلا في حالة الاقتباسات القصيرة. تتجسد في المقالات النقدية والاستعراضات.

مراجعة وتحرير الأديب الناقد: زياد الأحمد

ولدت مرتين

من حكايا الدمع في سوريا

حسن الموسى

الإهداء

إلى الذين ولدوا من غير وطن وعاشوا من غير أسماء
وماتوا دون قبور.... إلى الذين ولدوا مرتين....
وماتوا مراتٍ وهم على قيد الحياة.

قمة الألم عندما تريد ان تشكو لميت ما فعله الاحياء بك!

المحتوى

الإهداء ..... – 5 –
المحتوى ..... – 9 –
مقدمة ..... – 11 –
حكاية دفتري ..... – 15 –
المولد من جديد! ..... – 18 –
لا وقتَ للفرح ..... – 54 –
عطور في الذاكرة ..... – 76 –
متى ستنمو أصابعي؟ ..... – 87 –
القبر الغريب ..... – 95 –
الاختطاف ..... – 110 –
شموس غارقة في الطين ..... – 125 –
عالم بلا أسماء... ..... – 138 –
من أيّام الحصار ..... – 163 –
قصة لم تتم ..... – 216 –
نداء أخير لسلام ..... – 218 –

مقدمة

هذا الكتاب:

هذا الكتاب ليس رواية، وليس سيرة ذاتية، ولا هو كتاب تاريخ يرصد تلك الثورة التي حولت إلى حرب شعواء عصفت بوطني، والتي عشت تفاصيلها المرعبة والمؤلمة مرتين:

الأولى حين وقفتْ في وجه شبابي الأول، وقفت في وجه مراهقتي، وأحلامي الجامحة نحو الحياة ولهوها، وأنا لم أتجاوز بعد المرحلة الإعدادية من دراستي

والمرة الثانية عشتها من خلال أولئك الضحايا الذين نذرت حياتي للعيش معهم وفي أعماق تفاصيل آلامهم، أولئك الذين قذفت بهم تلك الحرب بعيداً عن حيواتهم التي أفنَوا أعمارهم ليستريحوا في ظلها، وإذا بها تهدم كلّ ما بنوه خلال سنوات عمر كامل في دقائق معدودة، بل وطاردتهم نيرانها بعيداً في طرقات المنفى والمهاجر البعيدة عن كل شيء حتى عن النوم والرقاد... عشت تفاصيلها عبر التجاعيد العميقة في وجوه الرجال والأحلام المنطفئة في عيون الأطفال، كما غصت إلى حكايا الدمع المقهور في أعماق أعماق عيون الأرامل والثكالى...

ما أكتبه ليس رواية وليس سيرة ذاتية ولا هو كتاب تاريخ وإن كان يلتقي مع الكثير من عناصر هذه الفنون الأدبية بل يجمع بينها جميعاً... ربما هو روايات وحكايا تتشخص من خلالها ذاتي في ظل واقع عشته مع آلاف الناس الذين تشكل حيواتهم روايات وروايات... لن يكتبها التاريخ الذي سيُدون.

ومما لاشك فيه أنّ فن الرواية هي الفن الأقدر على حمل

مضمونات هذا الكتاب، فالرواية – كفن أدبي – قد أصبحت وباتفاق النقاد فنَّ العصر الذي يستطيع أن يستوعب جميع الخطابات واللغات والأساليب والمنظورات والأجناس الأدبية الأخرى، وبالتالي هي الجنس الأدبي القابل لاستيعاب كلّ الموضوعات والأبنية الجمالية، كما أنه مرآة لتشخيص الذات والواقع بجميع ما فيه، وأداة لنقل صراع جدلي بين الذات والموضوع، ولهذه الأسباب مجتمعة يقترب كتابي من الرواية لكني أنقلها من خلال رؤيتي ورؤية الأشخاص الذي عايشتهم في الواقع، قبل أن يتحولوا إلى شخوص روائية ورقية، وليس من خلال القواعد التي وضعها نقاد الأدب لفن الرواية. فعلى امتداد صفحات هذا الكتاب أنا الروائي والراوي (الروائي الذي ألف هذا العمل ويسكن خارجه، والراوي الذي ينقل لكم الحدث داخل هذا العمل).

وقد يقود هذا التقديمُ القارئَ – نتيجة توحد وتداخل الروائي بالراوي – إلى الخلط بين مضمون هذا الكتاب والأوتوبيوغرافيا (فن السيرة) أو السيرة الروائية أو الرواية السِيْرية ؛ حيث يكون فيها البطل أو الراوي هو الكاتب الذي يروي حياته الشخصية، وأقول هنا أنّ هذا الكتاب ليس سيرة شخصية، أو ذاتية لي، وإن كان فيه الكثير من حياتي الشخصية وتكويني الاجتماعي، والنفسي الذي رصدته في هذا الكتاب، وخاصة في الفصل الأول، ولكن ليس من باب الرغبة في كتابة مذكراتي الشخصية وإنما وجدتها ضرورية لتفسر التحولات التي طرأت على حياتي، والتغيير المفاجئ الذي انحرف بحياتي من شاب مراهق حالم بذاته، ومتطلباته وأحلامه الشخصية إلى رجل يرمي ذاته بعيداً؛ ليعيش حياة المهجرين في العراء قبل أن يكونوا في الخيام...

كما أن معايشاتي اليومية، وحياتي الشخصية متداخلة إلى حد التماهي في حياة الشخصيات التي سأروي قصصها وعذاباتها.

فكتابي يبتعد عن الرواية المتخيلة كونه يروي أحداثاً واقعية رأيتها بأم عيني أو رويت لي من أشخاص رأوها، وعاشوها ولم أغير فيها لا مكاناً ولا زماناً بل كان دوري في بعض التغييرات التي تطلبتها ضرورة الصياغة الفنية من تقديم وتأخير في الأحداث، وتغيير بعض أسماء الشخصيات لدواع أمنية وأخلاقية. كما أنّ تلك الحكايات لا تخصني وحدي وإنما تخص معي أولئك المعذبين الذين أنقل حياتهم التي شاركتهم في أدق تفاصيلها؛ في مرحلة تاريخية لم يشهد التاريخ السوري مثيلا لها.

وبما أننا تطرقنا لذكر التاريخ قد يتبادر إلى الذهن أيضا أنّ كتابي هذا يقترب من التأريخ كونه يرصد مرحلة تاريخية حقيقية مرت بوطني ونقلتها بحرفيتها، والحقيقة وإن احتوى الكتاب على مرحلة تاريخية معينة لكني حاولت الابتعاد عن التأريخ

والسؤال: إلى أي مدى تقترب السيرة التي في كتابي من الوثيقة التاريخية كوني أنقل مرحلة زمنية حقيقية مرت ببلادي؟؟

قد يكون هذا الكتاب هو كتابة التّاريخ غير الرسمي، أو التّاريخ المنسي، فقد حاولت أن أتغلغل في التفاصيل التي ينساها ذلك التّاريخ الذي ينشغل بتدوين الأحداث الكبيرة، والأسماء العظيمة، وينسى تداعيات تلك الأحداث على البشر والبشر هم أول الضحايا، الذين يعيشون في الظل بعيدا عن شموس قيادة الحدث، فدونتُ آلام أولئك الناس المرميين على هامش الحياة والتاريخ.

وأخيراً بما أن كتابي هذا قد كتب في ظل الحرب، الحرب التي تدخل اليوم عامها السابع في وطني فما علاقة الروايات التي جاءت فيه بالحرب؟

"الحرب في كتابي هي الواقع الاجتماعي والعالم المرجعي الذي

تنطلق منه جميع حكاياتي وتحيل إليه، فهي ترصد مجتمع الحرب بظاهراته وتحوّلاته في محاولةٍ منها لتقديم شهادةٍ فنيةٍ وثائقية عليه.

حاولت احتواء تلك الحرب وتداعياتها على الإنسان، ورصد وتصوير مفرداتها المتمثلة في القتل، التدمير، التنكيل، الغربة، الاغتراب، الهجرة، التهجير، القصف، الخطف، الاعتقال السجن التعذيب، تفكّك الأسرة، العزلة، المرض، الجنون، العجز واليأس... إلى ما هنالك من مفردات يصعب حصرها. وقد أردت لكل حكاية من حكايات كتابي أن تركز على مفردة أو أكثر من هذه المفردات ولكن أغلب الحكايات كانت تجمعها كلها دون أن أدري.

وأردت من كل شخصية أن تكون نمطية يندرج تحت اسمها آلاف الأسماء من جنسها فـ (مريم) هي رمز للآلاف من النساء اللواتي ماتوا مكفنين بحسرة رؤية أبنائهم و(أم عزيز) هي كل النساء اللواتي هدمت الحرب قلوبهن قبل بيوتهن

و(ليلان) هو كل الأطفال الذين ينتظرون عودة الموتى و(عثمان) هو رقم من مئات آلاف الأرقام من المعتقلين الذين يحلمون بالموت قبل ساعة التعذيب...

أخيراً أستطيع القول هذا كتاب يجمع ما بين الرواية والسيرة الذاتية والجمعية لمن عايشتهم في ظل حرب مجنونة عصفت بحياتهم وحياتي معاً، كما أنه وثيقة تاريخية حقيقية لكنها تدون المسكوت عنه وما سيسقط من كتب التاريخ ووسائل الميديا التي حاولت أن ترصد هذه الحرب، وذلك من خلال الذي عشته أنا والشخصيات التي عايشتها في أشد لحظات حياتها.

حكاية دفتري

عزيزي القارئ:

سيطالعك في هذا الكتاب وأكثر من مرة عنوان (كتبت في دفتري) فما حكاية دفتري؟ أستطيع أن أقول إن دفتري يحمل أكثر من تسمية بخلاف البشر الذين يحملون اسماً واحداً ولكنه يشبههم في أنه مرّ بأطوار وفي كل طور كان يشب ويكبر إلى أن استطعت أن أقيّده في دفتي هذا الكتاب كي لا يضيع مني كما ضاع من قبل مرات عديدة لكنه لازال يضيق بغلافه ويتمرد عليه مستغيثاً بذاكرتي التي لم تدون فيه إلا القليل مما يعتبره من حقه ويجب أن يكتب فيه.

بدأ دفتري طور طفولته ككل الأطفال صغيراً لا يتجاوز حجم الكف أخبئه في جيبي واستعين به ليذكرني ببعض مطالب الناس التي يوصونني بها كي لا أنساها في غمرة الأحداث وتزايد الناس وحاجاتهم ثم رحت أدون فيه بعض الأسماء والعناوين لمصابين وجرحى لأعرف ما حلّ بهم إذا ما سئلت عنهم... وراح دفتري يكبر ويتضخم بسرعة حين بدأت بتدوين أقوال وأشعار واقتباسات كانت تنوب عنا في الكلام عن تلك الحرب وأرفقها بتدوين رؤوس أقلام عن قصص مؤلمة تستدعي الوقوف وليس بقصد النشر بقدر ما هو بقصد التواصل مع أصحابها والسعي لحل مشكلاتهم ومعرفة ما حلّ بهم ثم رحت أكتب تفاصيل قد لا تبدو مهمة في تلك الحكايا ولكنها الأهم لأنها من الذي قد لا تستطيع وسائل الميديا التقاطه، كنت التقط تلك التفاصيل كي لا تضيع.. لكن دفتري هو الذي ضاع مني أكثر من مرة ولم أستطع استرجاعه وكانت آخر مرة في 2015 حين رحت أجمع

نتف ذاكرتي، والورقيات التي دونت فيها أسماء وأرقام الكثير من الناس الذين لقيتهم، وبدأت باستعادة نسخة دفتري ومع كل اسم كنت أراه في تلك الأوراق كانت تتطاير في وجهي عشرات الأسئلة التي لا أجوبه لها عندي حتى اليوم

فلان الذي عبر الحدود مغامراً يحلم بالوصول إلى أوربا هل وصل أم أنه مرمي الآن في أحد السجون على الطريق؟ أو أنه في بطن حوت في أعماق البحار؟؟؟؟

فلانة التي دخلت مع ابنها المصاب ولم تعد هل فارق ابنها الحياة وتاهت على وجهها في الأرض؟

ذلك العجوز الذي كان يطالب برجل صناعية هل عاد بعكاز لا أكثر يعرج عليه بقية حياته؟

تلك الطفلة التي فقدت عينيها هل ركبوا لها عينين كما كان أبوها يعدها وهم يركبون سيارة الإسعاف أم كان يكذب عليها ليهدئ من ألمها؟

تلك الأسرة التي باعت كل ما تملك ووضعته في يد مهرب من تجار البشر ليوصلهم إلى ألمانية هل وفى بوعده؟؟؟

آلاف الأسئلة كانت تنتفض في وجهي وأنا أعيد ترتيب دفتري... ومئات الحكايا التي لا يمكن أن تمحى من ذاكرة بشر ذي إحساس كانت تتدفق أمامي وكثير من القصص لم أكتبها مباشرة في دفتري كنت أشفق عليه وعلى حقيبتي من حملها لأن فيها من الألم مالا تحمله الجبال كيف أحملها كل تلك القبور الفردية والجماعية والغريبة والتائهة في بلاد المهجر كيف أحملها كل ذاك الدمار للماضي والحاضر والمستقبل وأنام قربها؟

وكيف أضعها عند رأسي وأستطيع أن أخلد إلى النوم، النوم الذي

كان يفر مني بعد سماع تلك المآسي الإنسانية وطالما كنت أتمنى لو مت لو لم تخطئني تلك الرصاصة التي تجاوزتني إلى غيري ولم أسمع تلك المآسي وأنا الذي يحتاج النوم كي أستطيع متابعة عملي في اليوم التالي وكم مرت عليّ من أيام متتالية لم يفارق فيها الطنين أذني حتى أنه وصل مرة لثلاثة أشهر متتالية

كم كنت اشتهي النوم؛ والنوم هو الموت الأصغر الذي نحتاجه لنعيش لكن الكثيرين الذين رايتهم كانوا يطلبون الموت الأكبر ليرتاحوا راحة أبدية.

لكني في النهاية دونت ما طاوعني به قلمي وقلبي وما أمرني به ضميري

المولد من جديد!

من أنا؟

- من أنا؟ سؤال رغم بساطته وقلة عدد أحرفه إلا أنّ كلّ حرف منه كان يلقي حجراً في ركود أعماقي فيفجر فيها براكين، تلقي بحمم أسئلةٍ تتوالد من شظاياها جبالُ أسئلة أخرى تجثم على صدري، تحاصر نومي، تتركني هائما في أودية القلق وظلمات الضياع

- من أنا؟ من أين أتيت؟ ولماذا أتيت؟ وإلى أين؟

هذا السؤال الوجودي الذي أقلق البشرية منذ فجر ولادتها...

السؤال الذي حير العلماء والفلاسفة...

السؤال الذي أقلق الشعراء، والزهاد، والمتصوفة...

هو السؤال الذي كان يطوح بي، أتأرجح بين طرفيه قلقاً، ثمّ يرميني في مفازات صحاريه وتيه ضياعاته....

لا يكاد يغفو حتى يستيقظ من جديد وينتصب في وجهي ويسألني:

- من أنت؟

أقول له بانكسار عاجز:

- أنا حسن

يبتسم ساخراً مني ويقول:

- أعرف، لا تجبني بشيء أعرفه أخبرني عما لا أعرفه.

وأدخل في دوامة حيرتي، والتحف الليل والأرق، وقُبيل الصبح يأتيني يربت على جبيني الذي تشعله الحمى ويهمس:

- أنت حسن، أنت أحمد، خالد، زيد، عمرو... دعك من أسماء خُلعت عليك كما خُلعت على غيرك بعد ولادتك، ألبسوك إياها كما

ألبسوك ثيابك وحذاءك، هي ليست لك... إن اسمك الحقيقي الذي ولد معك هو: إنسان

وقبل أن أصحو من دهشة الجواب يرميني بسؤاله الثاني:

- من أين أنت؟

- من سوريا؟

يقول بامتعاض:

- صدفة مكان الولادة هي التي جعلت منك سورياً، في بطن أمك لم تكن سورياً، ولا شآمياً ولا يمنياً، لا مشرقيا ولا مغربياً، لا شرقياً ولا غربياً.. في بطن أمك كنت إنساناً فحسب، ومنها نزلت إلى الأرض، لا إلى القمر أو المريخ... وطنك هو الأرض.

وأشعر براحة تتغلغل في صدري، برودة تسري في أعماقي الظامئة لسحر هذا الجواب وأتمتم مرددا الجواب:

- أنا إنسان... نعم أنا إنسان قبل أي اسم آخر، إنسان قبل أن انتمى إلى أي مكان على سطح هذه الأرض، أرضي الأولى هي الأرض التي تجمعني بكل الناس هي رحم أمي ووطني الثاني هو الأرض، الأرض كلّها.

وقبل أن استمتع بحلاوة الجواب الذي وصلت إليه يقذفني بسؤال آخر:

- إلى أي قومية تنتمي؟

ودون تردد أقول:

- أنا عربي...

وأكاد اسمع ضحكته تسخر من تفكيري الساذج وهو يقول:

- عربي لان لغتك العربية هذه اللغة لم تولد معك هي أيضاً كثيابك واسمك، لغةٌ قد لقنوك إياها، البسوها لسانَك كما ألبسوك

بنطالك، في أعماقك لغة أخرى يشاركك فيها كل بني الإنسان، لغة الفرح والحزن والحسرة والألم والسعادة والشقاء و... أبجدية المشاعر ولدت معك، ومع كل بني البشر، لكن قيد المكان هو الذي فرض أبجديته... فأنت وكل الناس، لكل بني البشر شركاء فيما يُفرح، شركاء فيما يُؤلم

قلت مقاطعاً: ولكن بعض الناس يختلفون عني بل هم أعداء لي.

رد مقاطعاً هو الآخر: حتى أنت وعدوك شركاء في ألم شوكة وبهجة وردة الم تسمع بقول الشاعر:

لا تحرقْ عدوّكَ احرقْ عداوتَهُ
أنت وعدوك من وطن واحد هو الأرض
أنت وعدوك حبيبان لحب واحد حب الحياة
شريكان في الألم أمام شوكة
شريكان في اللون عند الدم
وفي اللا لون عند الدمع
ترتديان نفس الملامح في المفارح والمتارح
رفيقان في رحلة اللهاث وراء الأمل
تصليان معا للخبز، و الماء، و الهواء
شريكان في الجلد الطري أمام النار
شريكان في القهر أمام الموت
و دمعة أمه فوق قبره
كدمعة أمك فوق قبرك
هما دمعتان ولكن من حرقة واحدة

الولادة الأولى:

نعم أنا ولدت إنساناً ككل الناس ولكني قد أختلف عن الآخرين، وهم الذين يولدون مرة واحدة بأنني ولدت مرتين.

الولادة الأولى: حين ولدتني أمي وعرفت عالم الحياة، أما الولادة الثانية فهي التي اكتشفت فيها عالم أولئك الذين ولدوا مرتين كتبت لهم حياة جديدة حين أخطأهم الموت عرفتهم هناك على حافة الوطن الذي عصفت بأهله حرب مجنونة، ورمتهم مزقاً وأشلاء على امتداد القارات الخمس، وهذه الولادة الثانية سأحدثكم عنها في فصل قادم، أما الآن سأجمع شتات ذاكرتي لأحدثكم عن ولادتي الأولى التي دلفت من خلالها إلى هذا العالم.

كانت تلك الولادة قبل ما يقارب العشرين عاماً.

هناك في قرية من قرى جبل الزاوية، الجبل المسكون بحكايا العز والفخار التي تروي حكاية الإنسان الذي يرفض الضيم، ولا ينام على الذل والمهانة

هناك في ذلك الجبل كانت ولادتي الأولى في قرية تلتف بسحر الأساطير التي تعشش في دفء لياليها؛ كما تعشش السنونو في سقوف بيوتها والبلابل في خمائلها. من هناك رضعت مع لبن أمي رقة النسيم، والإحساس بجمال الطبيعة، ومن أحراش البلوط والسنديان والغار تعلمت عزة النفس ومن تلك القمم لقنت الكبرياء، تعلمت الاعتماد على نفسي كتلك الأشجار البرية التي لفت قامتي الصغيرة بظلالها.

ومن لا يعرف جبل الزاوية في شمال سوريا، ذلك الجبل الذي ارتوى من دماء الشهداء. بعد أن تعلمت صخوره وقممه الشموخ من صدورهم العارية التي واجهوا بها غزاة التاريخ، وتعلم سنديانُه

الوقوف في وجه الزمن من قاماتهم التي ماتت واقفة في وجه الطغاة، فوراء كل صخرة حكاية بطولة لرجال قارعوا المستعمر، وخاضوا معه أشرس المعارك، ويكفي أن نقتبس هنا شهادة العدو قبل الصديق، وهو أحد جنرالات الفرنسيين وفي معركة ترعان التي وقعت بالقرب من بلدة سرجه بين معرة النعمان وأريحا قال:

إنه لم يشاهد ولم يدخل معركة بشراسة وضراوة تلك المعركة منذ أن حطت الحرب العالمية الأولى أوزارها حيث أبدى الثوار بسالة عز نظيرها، رجال لا يتجاوز تعدادهم الـ 150 ثائراً كسروا أكبر حملة جردها الفرنسيون لتأديب ثورة وثوار جبل الزاوية، هذه الحملة التي كانت تضم في قوامها أكثر من خمسة عشر ألف جندي ومرتزق في صفوفها ناهيك عن تسليحها المتطور آنذاك (مدرعات وطائرات وناقلات جند). لكن التراب، والحجر والسماء، والأمطار وكل أشياء الوطن المقدسة حاربت، وساندت هؤلاء الثوار الذين قاوموا هذه الحملة، وراحوا يكيلون لها الصاع صاعين حتى ساعة الغروب الأولى عندما تمكنوا من تفجير مستودعات ومراكز قيادة الحملة، الأمر الذي أشاع الذعر بين أفرادها بالإضافة إلى أن طائراتهم ومدرعاتهم وفي حالة الفوضى تلك التي آلوا إليها راحت تضرب وتقصف جنود الحملة ليقتلوا بأيدي الثوار وليقتلوا بعضهم البعض

*****

الولادة الثانية

سأبقى أذكر ذلك اليوم ما حييت

- اذهب إلى شركة المياه، وخذ صهريجاً لملأ المسبح

هكذا رمى أبي جملته يومها وبعد إلحاح طويل مني في ذلك الصيف اللاهب (أريد أن أسبح... أريد أن أسبح... بابا املأ لنا المسبح في المزرعة) لم أكن لحظتها أكثر من ذلك المراهق الذي لم يبلغ السابعة عشرة وهمه أن يطفئ حرارة ذلك القيظ بمتعة السباحة التي يهواها...

كان أبي وراء مكتبه شارد الذهن، لا يكاد يعيرني انتباها، ظننت أنه مشغول بعقاراته وسندات البيع والشراء التي تفرغ لها في الآونة الأخيرة، لكن أعتقد أني ظلمته يومها، كان يفكر بأشياء أكبر من تجارته المادية... ربما كان يفكر بأخي الذي أصابته رصاصة طائشة في مظاهرة البلد، وحرمته امتحان آخر مادة في جامعته، وكنا نخفيه مع جراحه في المزرعة بعيداً عن أعين الجواسيس، ورجال الأمن ودون أن يتلقى العلاج الكافي مما سيجعل منه معاقاً باقي حياته... ربما كان أبي يفكر لحظتها بنا جميعا نحن الثلاثة عشر أخا وأختان والذين لم نجتمع على مائدة واحدة منذ عامين...

متأخراً عرفت أني في اللحظة التي كان همي فيها ملء المسبح لأغمر جسدي ببرودته؛ كان أبي يغرق في بحر متلاطم من الأفكار والهواجس والهموم والمخاوف بحر لا شطآن له إلا سواد المجهول وظلمات القلق والضياع...

لكنه يومها من وراء مكتبه رفع إليّ عينين متعبتين ووجه حيادي، ورد على إلحاحي باقتضاب شديد:

- اذهب إلى شركة المياه، وخذ صهريجا لملأ المسبح.

فرحتي يومها بموافقته أنستني أن أفطن لقراءة نبرة صوته، وما فيها من رضاً أو استياء...

لكنني اليوم أعرف تماماً أن هذه الجملة هي التي غيرت مجرى حياتي، حياتي التي كانت تمضي رتيبة في طريق واحد بين البيت والمدرسة وبينهما أحلام صغيرة، أكبرها ملء المسبح والغوص في برودته.

لم أكن أعرف أنّ هذه الجملة ستكون منعطفاً يجنح بحياتي إلى دروب أخرى، أتجاوز فيها حدود الزمن، أقفز فوق سنوات العمر، حتى أني تفاجأت بشيب في شعري وقبل أن أبلغ العشرين من عمري... وكأن ذلك اليوم يوم ولادتي الثانية، ولكن لكل ولادة مخاض، وولادتي الأولى لم أعرف مخاضها ولم أعشه أنا، عاشته أمي، أما ولادتي الثانية فقد عشت أنا مخاضها الذي سبقها، والذي لم أكن أدركه يوم الولادة ولكني اليوم بدأت أدركه لحظة لحظة وأعرف أسرار ذلك التحول الذي كان كامناً في عقلي الباطن وانفجر في لحظة واحدة ليفجر رتابة حياتي ويعصف بدروبها.

*****

كان ذلك في صيف سنة 2011 أي بعد بضعة أشهر من انطلاقة الثورة السورية التي بدأت شرارتها الأولى في درعا ثم راحت تمتد إلى كل البقاع في سوريا من جنوبها إلى شمالها ومن جزيرتها شرقاً إلى بحرها غرباً، ومعها راحت آلة القمع لدى النظام تتضاعف يوما بعد يوم، من البارودة إلى الدبابة ثم إلى الطيارة والبراميل المتفجرة التي راحت تلقى على المدنيين الآمنين، وأمام هذا المد الحارق من نيران القمع راحت جموع الناس تفر من تحت أسقفها المستباحة للبراميل المتفجرة... ومع أني خرجت في المظاهرات السلمية مع أخوتي، وأهل

قريتي لكني بكل صراحة لم أكن أعرف ماذا يريد هؤلاء الكبار الذين يهتفون (حرية.. حرية.. سلمية.. سلمية ويا درعا حنا معاكي للموت.. يا درعا..) كنت أحمل كاميرا موبايلي وأصور تلك الجموع الهادرة لأني أحب التصوير.

ولكن يوماً بعد يوم بدأت سحب الطفولة التي تسكنني تولي هاربة أمام طلقات الرصاص التي بدأت تنهال على المتظاهرين وبدأ السؤال يكبر في داخلي:

- لماذا يريدون قتلهم إنهم لم يرتكبوا جرماً ولم يرفعوا سلاحا أنهم ينادون (سلمية.... سلمية)

وراح السؤال يتضخم أكثر وأكثر وأنا أشاهد الدبابات الثقيلة التي لم أرها في حياتي حقيقة، تقتحم بلدتنا والقرى المجاورة وهي تمد سبطانة عملاقة تهدد بالموت كل من يقف في وجهها، وكنت أعرف أن الدبابة التي كنا نرسمها في دفتر الرسم يجب أن توجه قذائفها إلى العدو وراء الحدود، فلماذا جاءت إلى قريتنا والمدن الأخرى؟؟؟

*****

صدور عارية في وجه الدبابات

أعتقد أنّ يوم إصابة أخي الأكبر كان من أهم أيام مخاض ولادتي الثانية.. هو يوم لا ينسى من أيام رمضان.

كان أهل بلدتنا قد اعتادوا أن يخرجوا بمظاهرة يومية – إضافة إلى مظاهرة الجمعة – قبيل الإفطار يجوبون شوارع البلدة ثم ينصرف كل منهم إلى بيته لتناول إفطاره مع أذان المغرب... هكذا مرّ الأسبوع الأول بسلام، كانت المظاهرة تمرّ قرب الحواجز العسكرية وجنودها المدججين بسلاحهم، وأيديهم على الزناد وعيونهم المرتعبة تكاد تغوص مع أعناقهم التي أثقلتها خوذاتهم الثقيلة، وكنت أغافلهم وأصورهم مع بقية المظاهرة، وكنت ألمح في عيونهم الارتياح حين تمر المظاهرة بكل سلام، وهي تبتعد عنهم كنا نعرف أن هؤلاء الجنود قلوبهم معنا وأهاليهم وأخوتهم في المحافظات الأخرى يتظاهرون ضد النظام كما نتظاهر، وبعضهم كان يفتش عن وسيلة للهرب والانشقاق، وقد بدأت الانشقاقات حقيقة تلك الأيام وخاصة حين بدأت أوامر إطلاق الرصاص.

وبدأنا نسمع عن مداهمات ليلية يقوم بها رجال الأمن ويعتقلون بعض المتظاهرين، ولهذا رحت أسمع هتافات جديدة تطالب بإطلاق سراح المعتقلين بدأت تتمازج بالهتافات السابقة.

لكن ذلك اليوم وكان التاسع من رمضان كان يوماً مختلفاً... فقد اشتعل الغضب في صفوف المظاهرة أكثر من الأيام السابقة، وارتفعت ألسنة الهتافات أعلى بكثير من قبل، وفهمت أن سبب الغضب هو أن أحد القناصين المتمركزين على تلة من تلال جبل الزاوية قد قنص اليوم رجلاً وطفلاً، وأرداهما شهيدين حين مرّا على دراجة نارية بالقرب من خطّ نيرانه...

ومازال صوت هدير تلك الدبابة المرعب ودخانها الأسود الكثيف أمام عيني حين زمجرت في وجه المتظاهرين ذلك المساء.

- ما الذي حدث؟

يبدو أن المتظاهرين من ذوي الشهيدين قد رفع سقف الهتافات، وتفوه بشتائم تمس شخص الرئيس، والحزب الحاكم، وكأن الأرض قد زلزلت بهذه الكلمات، وبلمح البصر فوجئنا بمجموعة من الشباب تنتفض في وجه الدبابة المدرعة والأغرب من ذلك أن ثلاثة منهم انبطحوا في وجه الجنزير المرعب الذي كان ينهش الأرض مهدداً بابتلاع المتظاهرين... الدبابة وقفت لكنّ المشهد لم ينته، فقد شقت هتافات المتظاهرين فرقعة زخات طويلة متلاحقة من الرصاص، لا أحد يعرف مصدرها، ولكنها كانت كفيلة بنشر الهلع في صفوف الجموع الهائجة، ولم تكن المرة الأولى التي يسمع فيها إطلاق النار وتعالت صيحات من هنا وهناك تطلب الإسعاف... كان الموبايل في يدي والكاميرا لا تزال تصور متجهة إلى الذين انبطحوا في وجه الدبابة... ويا لهول المشهد الذي رأيته لحظتها على الشاشة!

رأيت أخي الأكبر منبطحا أمام الدبابة وهو يمسك ساقه متلويا من الألم وهرع الناس نحو المصابين وكنت أسبقهم إلى أخي ودموعي تتمازج مع صراخي، فرحت لأنه حي.. ولا أعرف كيف حضرت سيارة، ولا أعرف من الذي حمله معي، وراحت تشق بنا الجموع متجهة إلى بيتنا، وليس إلى المشفى... وعرفت فيما بعد أنه من المستحيل نقله إلى مشفى؛ لأن رجال الأمن سيكونون هناك له بالمرصاد، وسيقودونه مع جراحه النازفة إلى زنزانة منفردة وهذا ما فعلوه مع زميل له...

*****

روت لي أمي عن ذلك اليوم: أن أبي كان قبيل الإفطار قلقاً منشغلاً

أما أمي فكان جسمها في الدار وروحها مع أولادها في المظاهرة رغم أنها تحضر طعام الإفطار بقلب ذاهل، وذهن شارد، وجنّ جنونها حين سمعت أصوات الرصاص قد شقت المساء من ساحة المظاهرة القريبة من بيتنا، وصرخت بقلب الأم الذي هو دليلها:

- أولاااادي يارب أولادي.

أما أبي فكان يصرخ افتحوا باب الدار على مصراعيه، قد يكون هناك مصابون ويلجؤون للاختباء في دارنا

وحقا حين اقتربت سيارة من باب الدار كان فيها مصاب هو ولده، وكنت فوقه مبلل القميص بدمه، أغمره بدموعي الحارة المتسائلة: لماذا وماذا فعل؟

كان يتلوى ألماً والرصاصة قد استقرت في ركبته، ولكن من سيخرجها من أين نأتي بطبيب يجب أن يبقى الأمر سراً

يومها عرفت: **أنه لا يحق لنا أن نبوح بجراحنا، يجب أن نعضّ على ألمنا وإلا سيكون مصيرنا الاعتقال.**

وأمام صرخات أخي كنا عاجزين ننتظر متلهفين مجيء طبيب أرسلنا في طلبه من معارفنا ومع أنه طبيب أسنان لا أكثر، لكنه لم يجرؤ على المجيء مباشرة، وأسعفنا الله بممرض شاب حاول إيقاف النزف بضماد ثخين، والألم بإبرة مسكنة، كان يحملها في جيبه؛ لأنه لا يحمل حقيبة كي لا يلفت الأنظار إليه، وأخبرنا أنه لابد من نقله إلى مشفى ولكن بيننا وبين المشفى عشرات الحواجز التي تفتش السيارات باحثة عن المندسين الذين يتظاهرون لتخريب البلد، والعصف بالأمن والأمان الذي تنعم به في ظل القيادة الحكيمة والرشيدة، وإذا ما ألقي القبض على أحدهم فالذباب الأزرق لن يعرف مكانه هذا ما كنت أسمعه في بيتنا تلك الليلة وأحاول أن أفهمه.

ووصل أخي إلى مدينة المعرة النعمان بأعجوبة، عبرت به سيارة الصالون جميع الحواجز دون أن يفطن أحد منها إلى الخطة التي حيكت تلك الليلة للوصول به إلى مشفى قريبنا، والى جناح النسائية والتوليد تحديداً حيث دخل مع الحوامل ولكنه كان حاملاً برصاصة في ساقه.

على أول حاجز في البلدة حاول أحد الجنود أن يلقي نظرة على سيارة الصالون التي امتلأت بنساء متشحات بالسواد، وما إن مد رأسه ليعرف من الجسد المدد في السيارة حتى صرخت به إحدى النسوة:

- عيب عليك ارجع لورا معنا مرأة ولادة

وقالت أخرى بهدوء:

- معنا امرأة إسعاف بحالة ولادة يا ابني بتحب تشوف؟

اعتذر العسكري ورجع إلى الوراء، وهكذا مرت السيارة على الحواجز واحداً تلو الآخر عدا الحاجز الأخير الذي رفض أن يسرّع مرور السيارة قبل أن يدفع له السائق الذي يعرفه بعلبتي دخان أجنبي ليقول له:

- بسلامة الله.. الله معاكن إذا جابت صبي بتجيب معك الحلوان..

ورغم وصول أخي إلى المشفى لكن المشكلة لم تحل.

ففي غرفة العمليات النسائية وبعد ثلاث ساعات من الانتظار تمت العملية بسرعة، وعيون الطبيب تنتقل بين الجرح وباب الغرفة خشية أن يقتحمه رجال الأمن في أية لحظة ويعتقلوا الجميع.

كانت الرصاصة قد هشمت العظم ويحتاج إلى صحيفتين معدنيتين، ولم يكن موجوداً سوى واحدة فاضطر الطبيب إلى اللجوء إلى صحيفة مستعملة حاول أعادة تصنيعها وتمت الجراحة لكنها تركت إعاقة دائمة في رجله.

رأيته في أشد حالات ألمه، لم يكن آبها لرجلة الغائصة في الجبص، ما زلت اسمع أنينة المختلط بشكواه وأسئلته وهو يصيح:

- أريد العودة إلى جامعتي غداً امتحاني الأخير. مادتي الأخيرة لأتخرج.. لكنه لم يتخرج إلى اليوم

كانت تلك واحدة من الحوادث التي شكلت مخاض ولادتي الثانية وتليت بحادثة أخرى لكنها في ثوب آخر لم يثقبه رصاص ولم يضرجه دم ولكن رصاصه كان من نوع آخر إنه كلمات مدير المدرسة في الأيام التالية لمصاب أخي...

*****

مسيرة حب لمن يقتل شعبه

كنا في منتصف الحصة الأولى حين قرع الجرس قبل موعد الاستراحة، وطُلب منا النزول إلى الباحة، استغربنا ذلك الجرس وقبل أن تسري همهمات الفرح للخلاص من الحصة الدرسيّة سرت همسات خائفة بين الطلاب، واخترق بعضها أذني:

- ربما جاء رجال الأمن لاعتقال الطلاب الذين يشاركون في المظاهرات!

وبدأ قلبي يخفق بشدة، كنت قد سمعت بعض الحكايات عن الاعتقالات والتعذيب والشبح والدولاب وبساط الريح.. وقلت ربما جاؤوا لاعتقالي أنا، فكثيرون هم الذين رأوني وأنا أقوم بتصوير المظاهرات.

على ذلك الدرج الفاصل بين باب صفنا والباحة كانت لحظات طويلة من هواجس الرعب... فعلى كل درجة كنت أتخيل نفسي أهبط سراديب مظلمة وأنا معصوب العينين إلى غرف تعذيب عميقة، جدرانها ملطخة بالدماء، وخلف قضبانها وحوش جائعة للحمي الطري، وحين أمسكت بقضبان الشبك الحديدي الذي يفصلني عن الباحة تذكرت حكاية ذلك الشاب الذي أصيب مع أخي وكان من الشباب الثلاثة الذين انبطحوا أمام الدبابة، وصلت حكايته إلى بيتنا، قالوا إنهم ألقوا القبض عليه في المشفى الذي أسعف إليه واعتقلوه قبل أن يراه الطبيب، ولم يسمح لأحد بتضميد جرحه النازف، واقتادوه إلى سجن إدلب المركزي حيث رمي في زنزانة منفردة لمدة أيام قبل أن يسمح لسجين أخر أن يهتم بجرحه، وعرفت أنه ليس رأفة به، وإنما لا يريدونه أن يموت كي يعذبوه أكثر.

ولهذا كانت أسرتي حريصة على إخفاء أخي المصاب، أكثر من ثلاثة أشهر حتى عن أقرب جيراننا إلينا.

حين اجتمعنا في الباحة، وعيوني تفتش الزوايا والأبواب عن عسكريين سيظهرون فجأة لاعتقالي، خرج إلينا المدير ولم نكن نرتاح له، وجعر بنا بصوته الأجش طالباً أن نخرس وأن نسمع جيداً ما سيقول.

قال كعادته كلاماً كثيراً عن الوطن، والوطنية، وحب القائد، وعن المندسين الذين يريدون تخريب البلاد، والإصلاحات العظيمة التي يقوم بها السيد الرئيس ووو

ولكني كنت أعرف أن أغلب أهل البلد يكرهونه كما نكرهه نحن الطلاب الصغار، وكان للكبار أسبابهم المختلفة والتي كنت أسمعها ولا أعرف لها سبباً فهم يقولون إنه واحد من الذين يدعون إلى التشيّع، ويتعامل مع إيران، وكان يدفع لكل من يتشيّع مبلغ مئة ألف ليرة وكلام من هذا القبيل.... لكنه يومها ختم محاضرته بأننا سنركب الآن في باصات مخصصة لنا للذهاب إلى إدلب للمشاركة في مسيرة الحب والولاء لقائد المسيرة...

ووقع كلامه على كالصاعقة... عن أي حب وولاء يتحدث؟

وبالأمس القريب جنود هذا القائد أطلقوا الرصاص على أخي، وعلى غيرة بل وقتلوا في مظاهرة أخرى زميلي في الصف ذاك الذي كان يجلس في المقعد الأخير، وهو من ألطف الطلاب، وأكثرهم أدباً.

وتملكني شيطان العناد قلت في نفسي؛ وقد نسيت كل مخاوفي التي انتابتني قبل قليل:

- لن أذهب إلى هذه المسيرة

ورغم تهديدات المدير التي كررها بلهجة متوعدة بأنّ الذهاب

سيكون حباً للقائد وهو اختياري، ولكن كل من لا يذهب سيعاقب عقوبة كبيرة وأقلها الفصل من المدرسة، فالويل لمن لا يذهب، ثم يكرر: يجب أن نذهب بإرادتنا ليس إجبارا والويل لمن لا يذهب.

ومع كل تهديداته ما إن خرجنا من باب المدرسة، ومع أول باب مطعم انحرفت لأتوارى فيه متذرعا بشراء صندويشة، ولم أخرج حتى ابتعدت مسيرة الذاهبين إلى مسيرة الحب والوفاء لمن أطلق جنوده النار على أخي دون أن أفكر بعواقب هذا التصرف حينها، لكنه مرّ بسلام ولم يفطن أحد في زحمة المسيرة إلى من غاب وإلى من حضر.

ولكن القرية بدأت تضيق بسكانها يوماً بعد يوم فقد بدأت حملات الاعتقالات تؤرق الناس، حيث كانوا ينقضون ليلاً باحثين عن رؤوس المتظاهرين وعن الذين عرفوا باسم "البخاخين" وهم الذين كانوا يكتبون شعارات مناوئة للنظام ببخّاخات الطلاء على الجدران. رأيت أمي وأخواتي تلك الليالي ينامون في ثيابهم الكاملة، وعرفت أن أبي كان يخشى أن يكسر باب دارنا ليلاً في أية لحظة بحثاً عن أحد أخوتي، أو عن أخي المصاب وفعلا صدق حدسه وكانت ليلة مرعبة لا تنسى حين سمعنا ذلك الطرق العنيف على باب دارنا بعد منتصف الليل وقبيل طلوع الفجر.

*****

مداهمة ليلية

استيقظنا فزعين وكأننا على موعد مع الطرقة الأولى، وقد تلتها طرقات متواترة كأنها طلقات رشاش من تلك اعتدنا سماعها، تمزق الظلام كلّ ليلة، وثمة وقع أقدام سريعة حول الدار وتحت النوافذ وأصوات خشنة متداخلة اخترقت أذني، وأنا لا أزال تحت الغطاء في غرفتنا الداخلية التي يرقد فيها أخي المصاب، وميزت صوتاً غليظاً يهدد بكسر الباب في اللحظة التي سمعته فيها يفتح وصوت أبي يسألهم: ماذا يريدون؟ فهمت أنهم يريدون تفتيش البيت وأبي يطلب منهم الانتظار ريثما يخبر "الحريم" لكنّ أصوات أحذيتهم كانت قد ملأت الدار، لحظات ودخلوا غرفتنا، انصبت أعينهم على أخي الذي كان قد جلس في سريره تاركاً نصفه الأسفل وساقه المصابة مغطاة تحت الشرشف، طلبوا البطاقات الشخصية، وهم يقلبون كل شيء، الفرش، الوسائد، أغطية الطاولات، الأدراج والخزانات... بينما كان أبي قد جمع بطاقاتنا الشخصية وقدمها لكبير الدورية المداهمة في الصالون، وجنوده يعيثون فساداً في البيت، وخاصة الكتب التي كانت في الخزانة قلبوها ورقة ورقة، و سمعت صوت الضابط يسأل أبي عن اسمه وكنيته أكثر من مرة، وأبي يجيبه بهدوء وحين علا صوته طالبا من أبي أن يتأكد من كلامه، أجابه مبتسماً:

- وهل يوجد إنسان لا يعرف اسمه الهويات بيدك دقق فيها.

سادت فترة صمت، ثم سمعته ينادي جنوده، جمعهم في الصالون، أخبروه أنهم فتشوا كل شيء حتى السقيفة التي فوق الحمام.

طلب منهم الخروج ثم سمعته يعتذر لأبي وكأنه لم يكن صاحب الصوت الجلف الخشن قبل قليل:

- لا تواخذنا هناك تشابه أسماء وردتنا إخبارية عن إرهابيين تشابه اسمهم مع اسمك تعرف أننا حريصون على أمن البلد وأمنكم وسلامتكم.

سمعت أبي يدمدم بكلمات غير مفهومة وهو يصفق باب الدار خلفهم

- ما الذي حدث؟.. سألنا أبي ونحن نتحلق حوله قال:

- أحد أولاد الحرام كتب فينا تقريراً، وقد جاؤوا لاعتقالنا

- حدقنا به مستغربين وسألنا مرة أخرى:

- ولماذا لم يفعلوا

- الله هو الساتر، أعمى عيونهم عنا، ابن حرام أخبرهم أن أخاكم أصيب في المظاهرة لكن يبدو أنهم لم يروه.

وعرفت أنهم لم يروا نصفه الأسفل، وساقه المجبرة تحت اللحاف.

وسألت أبي محتاراً:

- ولكنهم أخذوا الهويات وقرؤوا أسماءنا

- أسماؤنا في الهويات هي التي أعمت قلوبهم.

- وكيف؟ سألنا مستغربين

- كتبة التقارير والذين وشوا بنا لا يعرفون نسبتنا الحقيقية، ولا كنيتنا يعرفون اللقب الذي عرفنا به في البلد وهذا اللقب غير مكتوب، فظنوا أننا غير العائلة التي يبحثون عنها... لكنهم غداً سيعودون بعد أن يؤكد لهم ابن الحرام أننا البيت المقصود... علينا أن نترك البلد ونهاجر.

هكذا أخذ قراره وقال بحزم هذه البلدة لم تعد تسكن، وما كل مرة تسلم الجرة

ولم يكن أبي الوحيد الذي اتخذ مثل هذا القرار، فالمدينة بدأت

تضيق أمام المداهمات الليلية، والمسافات التي تفصل بين الحواجز، بدأت بالتقلص فهويتك تكاد لا تدخل جيبك، بين بيتك وبين السوق الذي تجبرك حاجياتك اليومية على الذهاب إليه يومياً.

وبدأت قرى الجبل تخلو من سكانها رويداً رويداً، أمام زحف شبح الاعتقالات، والموت الكامن في قناصات النظام التي تختفي على أسطحة الأبنية العالية.

*****

وكانت أسرتي من واحدة من الأسر التي هاجرت من جبل الزاوية، الجبل الذي استعاد ذاكرته، وأخرج اللهب الدفين في صخوره، وسنديانه، وكان من أوائل البقاع التي استطاعت طرد قوات النظام من أرضه، فلجأ إلى السماء ليمطر ذلك الجبل بالموت المتدفق من طائرات السوخوي والميغ والحوامات المحملة ببراميل الموت، مما اضطر بقية الناس العزّل إلى الهرب بأرواحهم، وأرواح شيوخهم وأطفالهم باحثين عن أماكن يظنون أنها بمأمن من الموت.

آلاف مؤلفة فروا بأرواحهم وما بقي لهم من فلزات أكبادهم إلى العراء باحثين عن سقف أمن...

وهكذا انتقلت أسرتي إلى مزرعتنا في (خان العسل) من ضواحي حلب. حيث انتشرت مزارع تتوسطها أبنية فخمة بناها أصحابها لقضاء أوقات عطلهم، وخاصة في الصيف، وأغلبها لتجار، ورجال أعمال، ومغتربين لم يعودوا إليها ذلك الصيف بعد أن انتشرت رائحة الموت من الحريق السوري وراحت تقلق مضاجع الناس في الآفاق البعيدة، لجأت إلينا أكثر من أسرة من معارفنا، وأهل الجبل المنكوب، فتحنا لهم أكثر من مزرعة وآويناهم فيها... كنت أسمع أبي يتصل بأصحاب تلك البيوت الخالية ويستأذنهم بإيواء المهجرين فيها، وما

كنت أسمع من رد منهم إلا الترحيب، والاستعداد لتقديم العون، والمساعدة أياً كانت...

كما سمعت أن الكثيرين لم يجدوا مكاناً إلا اللجوء إلى الحدود التركية طامعين أن يسمح لهم باللجوء...

حين رحت أتذكر كلمات أبي:

- اذهب إلى شركة المياه، وخذ صهريجا لملأ المسبح

بدأت اشعر بحروف كلماته تجلدني، توقظني من سبات عميق، تثير عواصف كلّ ذكرياتي المؤلمة التي عشناها في البلد توقظ في كلّ الآلام التي كنت ألمحها في وجوه الناس الذين لجؤوا إلينا في مزرعتنا باحثين عن مأوى ومع هذا ذهبت إلى شركة المياه التي تملأ مسابح تلك المزارع، واخترت صاحب صهريج من معارفنا...

لا أدري لماذا راحت كلّ تلك التفاصيل تشتعل في داخلي وإنا أجلس بجوار سائق الصهريج الذي يتمايل تحت قاطرته المتخمة بمياه عذبة للمسبح الذي سنستمتع ببرودته ونرمي إليه بحرارة ذلك الصيف اللاهب...

كنت غارقاّ في حيرتي وأكاد اشعر بتأنيب ضمير من عدم إحساسي بآلام الآخرين، وأظن أبي حين رماني بموافقته كان فطناً إلى كل تفاصيلها الموجعة، وانتبهت لسيارة شاحنة مرّت بجوارنا وقد غصت قاطرتها برجال ونساء، وأطفال وبعض أثاث من فرش وأغطية.

من وجوه أولئك الأطفال المحشورين في صندوق الشاحنة تحت تلك الشمس اللاهبة، قرأت مأساة يعجز الكون عن استيعابها.

هم مهاجرون جدد لا شك أنهم فروا من الموت تركوا كل شيء، تركوا بيوتهم، ذكرياتهم، مدارسهم، وربما قبور أحبتهم، ناجين بما بقي من أجسادهم...

ولكن إلى أين؟ بعد أن فقدوا كل ما كانوا يملكونه.

وكأني سألت نفسي السؤال بصوت عال فأجابني السائق:

- كان الله في عونهم، إنهم يرحلون إلى الحدود التركية السورية يعيشون هناك في العراء تحت الشمس الحارقة، والمحظوظ منهم من يجد مكانا تحت شجرة زيتون نعم في العراء بلا طعام أو ماء.

ووقعت كلمة ماء على إذني كبرميل متفجر:

- بلا ماء؟

- إنهم يقفون طوابير ولساعات طويلة ليحصلوا على ما يروي ظمأهم، هكذا أخبرني زملائي الذين ذهبوا إلى هناك، ومن الناس الجشعين، الله لا يجزيهم الخير يتاجرون بهم، ويستغلون حاجتهم لقطرة الماء.

سألته مستغرباً:

- وهل يبيعونهم الماء؟

- نعم هناك من لا يخاف الله، وهناك من أهل الخير من يرسل لهم صهاريج مجانية.

آه كم شعرت بالخجل! تمنيت لو شقت الأرض وابتلعتني أنا الذي أصطحب خزاناً من الماء لملأ حوض السباحة لألهو والعب به....

تذكرت الجموع التي رأيتها تتجرجر من جبل الزاوية، مخلفة وراءها كل شيء

ورحت أتذكر أولئك الذين لجؤوا إلى مزرعتنا، رحت أقرأ من جديد الحكايات التي سمعتها منهم، وعنهم، الحكايات المعجونة بالدموع في عيون الثكالى، حكايات العوز، والفقد، والانكسار في عيون الرجال.

تذكرت شهقات الأطفال الذين لم يستطيعوا حمل ألعابهم الصغيرة التي كانت تنام بجوارهم على وسادة واحدة تحت سقف آمن وغطاء دافئ...

وحين كانت سيارتنا تتجاوز الشاحنة المحملة بالمهاجرين رأيت طفلاً يمسك بقفص في داخله طائر، لم أتبين شكله، لكنه ضخم وأقرب إلى الحمامة.

ولا أدري كيف تذكرت في تلك اللحظة حكاية طائر الفينيق التي حكيت لي في طفولتي رحت أعيد تفاصيل تلك الحكاية، وأنا أتابع ببصري وجه الطفل الذي يحضن قفصه بين كومة أطفال آخرين، تتمايل بهم الشاحنة بجوارنا.. لا أذكر من منا رأيت فيه طائر الفينيق أنا؟ أم أولئك الأطفال؟

لكني وجدت نفسي أتذكر تلك الحكاية

طائر الفينيق

هكذا رواها جدي:

كان يا ما كان في قديم الزمان طائر يعيش في الجنة اسمه طائر الفينيق حجمه بحجم النسر، لونه ذهبي ناري، على رأسه طرة من الريش كأنها تاج. جناحاه أكبر من جناحي النسر العادي، وريشه ناعم الملمس ملائكي. يظهر له ذنب طويل من الريش الأحمر البرتقالي والأصفر خلال أسفاره الطويلة، فبعد أن زاد عمره على الألف سنة، واكتسب المقدرات السماوية والحكمة، أراد أن ينزل إلى الأرض لكي يرى كيف يعيش الناس، فيشاركهم آمالهم وأفراحهم. شقَّ هذا الطائر الألفي طريقه من الجنة إلى الأرض، وقطع البحار والجبال والسهول، حتى استوقفتْه رائحة اللبان والبخور الصنوبري المنبعثة من جبال لبنان، فبنى عشَّه على أعلى شجرة أرز من اللبان والمر والعنبر. وفي الصباح، عندما لاحت خيوط الشمس، شاهد شروقًا لم يبصر له نظيرًا في جماله خلال جميع أسفاره، فبدأ ينشد الأغاني السماوية بصوته العذب الملائكي. وعندما سمعه حارس الشمس، خرج إليه وهو على عربته التي تجرُّها أربعة أحصنة نارية ليشكره، وأراد أيضًا، عند طلبه، أن يريه آلام الناس وعذاباتهم. نقل إله الشمس لطائر الفينيق صورة حية وحسية عن الحياة الأرضية. بدأ الطائر الألفي في الصراخ من الغضب والألم لما أحس به من عذاب وظلم بين الشعوب، وبدأ يضرب بجناحيه داخل العش، فبدأ العنبر يطلق ومضات ولمعات. أجفلت الأحصنة، وضربت بحوافرها في قوة، فطارت شرارات نارية إلى العش كانت كافية لإحراق الفينيق في داخله. لم يغادر هذا الطائر عشَّه، فاحترق باختياره، مشاركًا الشعب في آلامهم وعذاباتهم، وتحوَّل إلى

رماد. لكن لم تكن هذه نهاية الفينيق، بل البداية. خرجت بيضة من تحت الرماد. في اليوم الأول، كبرت البيضة، وفي اليوم الثاني، خرج منها جناحان، وفي اليوم الثالث عاد الفينيق حيًّا. حمل الطائر عشَّه البخوري، وطار به إلى مدينة الشمس بعل – بت (بعلبك) ثم طار من جديد إلى الجنة. لكنه فضَّل أن يعود ويموت في أرز لبنان على أن يبقى في الجنة السماوية إلى الأبد. هذا ما يحدث كلَّ خمسمائة ربيع أو أكثر قليلاً. يموت الفينيق ويُبعَث حيًّا من رماده.

*****

ودون أن أدري قلت للسائق آمراً:

- اتجه إلى الحدود...

سألني مستغرباً

- إلى أين؟

- إلى تجمعات الناس المحتاجين للمياه

- قال لا أعرفه لم اذهب من قبل

قلت بصوت لم أعهده في نفسي من قبل:

- سنسأل والذي بفمه لسان لا يضيع

قال السائق متردداً:

- سمعته أنهم ينزلون في جوار قرية اسمها أطمة ولكنها بعيدة على ما أعتقد.. قلت له محاولاً إغراءه، وقد تملكني شيطان الإلحاح الذي استخدمته مع أبي قبل ساعات لملأ المسبح:

- اسمع سأضاعف لك أجرتك وأعطيك إكرامية ترضيك إن شاء الله.

وتابعت زيادة في إغرائه سيكون لك أجر كبير عند الله إذا سقينا أولئك الناس الذين تركوا بيوتهم ومالهم.. قال السائق متردداً:

- نعم... معك حق ولكن سوف يفتقدونني في الشركة فهناك أكثر من اسم سجل دوراً لأخذ الماء إلى مسبحه.

قلت بإلحاح لن نتأخر وحين نعود سيكون غداؤك على حسابي سنتناول شواء في مزرعتنا، واستسلم السائق لإلحاحي وربما لإغراءاتي وقال:

- لا حول ولا قوة إلا بالله حسبي الله ونعم الوكيل عسى أن يجعل الله عملنا خالصا لوجهه. ومد يده إلى ذراع علبة السرعة ليضاعف من سرعته لاحقا بشاحنة المهجرين التي سبقتنا من جديد.

قلت له الحق بهذه الشاحنة لا شك أنها ذاهبة إلى الحدود

وتابعنا صامتين طيلة الطريق وكان أطول مما تخيلنا أكثر من ستين كيلومتر.. وكاد صاحبي يعدل عن موافقته متذرعا بالناس الذين ينتظرون دورهم لملء مسابحهم، ولكني كنت أذكره أنّ مهمتنا أجلّ، وأسمى وهناك من يحتاجنا أكثر من هؤلاء المترفين الذين لا يشعرون بآلام الناس... ولم أقل له أنني كنت واحدا منهم قبل ساعات في مكتب أبي وأنا الحّ عليه لملء المسبح.

كان ذلك اليوم يوم ولادتي الثانية منذ ست سنوات، ومن يومها وأنا أعيش مع أولئك الغارقين في كل تفاصيل الألم.

*****

حين لاحت لنا تجمعات الناس من بعيد لم تكن كما توقعت، وكنت قد رسمت لها صورة كتلك المخيمات التي تمتد فيها صفوف زرقاء منظمة من خيام لا متناهية كما كنت أرى في التلفاز.

رأيت بشراً متناثرين بين كروم الزيتون هنا وهناك، رأيت شراشف وأغطية لحف، وبطانيات، و"حرامات" علقت على تلك الأشجار ليجلس في ظلها عجائز، وأطفال، مع وجود بعض خيام بدت تنعم برفاه أمام البطانيات الرثة والمتسخة... مررنا بأكثر من أسرة لا ظل فوقهم سوى رحمة أغصان الزيتون... وفي غمرة دهشتي لم أنتبه للمظاهرة التي كانت تجري خلفنا وتنادينا... عشرات من الرجال، والنساء، والأطفال كانوا يركضون وراءنا ويتوسلون إلينا أن نقف وكلهم يحملون أواني من بادونات وطانجر وأباريق، طلبت من السائق أن يقف في نقطة قدّرت أنها تتوسط جمع تلك الجماعات المبعثرة هنا وهناك جنح إلى حافة الطريق ببطء، وهو يرجو الناس المتعلقين بالصهريج من نافذته أن يبتعدوا عن دواليب السيارة وهو يكرر:

- لا حول ولا قوة إلا بالله... الله ينتقم من الظالم

سعادتي ذلك اليوم لم أشعر بمثلها من قبل.

كانت كل قطرة ماء تنسكب في أواني أولئك الظامئين تسري في روحي برودتها تتغلغل في أعماقي تروي عطشاً في داخلي لم أكن اشعر به من قبل، وخاصة حين كانت دعوات الأطفال قبل الأمهات تنسكب علينا داعية لنا أن يروينا الله من بئر زمزم، ومن الحوض المورود يوم القيامة.

أنا لم اختر اسمي ولا هويتي ولا حتى ديني... كلها وجدتها جاهزة لكني ذلك اليوم أنا الذي اخترت.

الاختيار الذي غير مجرى حياتي كاملة اخترت أن أكون مع هؤلاء الناس وبالأخص مع هؤلاء الأطفال

اخترت أن أعيش ألمهم لا أن أتخيله... اخترت أن ألامس دمعتهم لا أن أصفها من بعيد، أن أتذوق ملوحتها، أن أدفئ روحي المتجمدة في حرارتها، اخترت أن أعيش معهم كل تفاصيل حياتهم، وأخلع حياة الرفاه والعيش الرغيد الذي كنا ننعم به، قررت أن أسبح، وان أغوص في مأساتهم لا في مسبح مزرعتنا، أغوص إلى أعماق دمعهم، لعلي أستطيع أن أصل إلى درر ابتسامة في ظلمات ذلك الدمع، أرسمها على شفاههم.

يومها استبدلت بغوص المسبح الغوص مع الأقدام الحافية في الطين الذي خلفته المياه حول خرطوم الماء، وخاصة تلك الأقدام الصغيرة أقدام الأطفال الظامئين لأولئك الأطفال الذين تجمهروا حول صهريج الماء

*****

- ما ذنب هؤلاء الأطفال الذين حرموا من أبسط مقومات الحياة، بدءاً من مدراسهم وحتى قطرة الماء؟

سألت نفسي وأنا أراقب تدافعهم ولغطهم وتوسلاتهم ودعاءهم

- يا عمو الله يوفقك، الله يحميك الله يخليلك أولادك، بس عبيلي شوي، والله عطشانين...

وسمعت آخر يقول متوسلاً

- والله أبي مصاب وما عندنا ماء...

اقتربت منه لم يكن يتجاوز السادسة من عمره يرتدي ثيابا متسخة، كان حافياً وقد شمر عن ساقين ضامرتين ليخوض في الطين إلى فتحة الماء من بين أرجل الكبار وسألته:

- أين أبوك؟

قال دون تردد مشيراً بيده إلى كرم الزيتون:

- هناك تحت الشجرة الكبيرة

تناولت منه الوعاء الذي يحمله وحين ملأته كان أثقل من أن يحمله جسده الناحل الضامر، ودون تردد حملته له وقلت:

- امشي أمامي دلني على الطريق.

حاول إقناعي أنه يستطيع حمله وحين رفضت، راح يحث الخطا أمامي إلى أهله

اقتربنا من الشجرة الكبيرة التي أشار إليها، لم يكن هناك خيمة بل بطانية علقت بوجه الشمس، وفي ظلها رأيت امرأة تتشح بالسواد قد جلست القرفصاء قرب رجل أربعيني ممدد على التراب. انتفضت المرأة جفلة حين رأتني وأسرعت تتناول مني الوعاء وهي تخلط شكرها بدعائها.

قلت لها: لا شكر على واجب، وكنت أعنى كل حرف أقوله في تلك الجملة واقتربت من الرجل الذي يئن في ظل الشجرة والبطانية، سألتها وأنا أجثو قرب رأسه

- خير إن شاء لله.

فتح الرجل عينيه محاولاً أن يجيبني بغمغمة وحين عجز عن التعبير استسلم وأغمض عينيه من جديد وقالت المرأة:

- كما ترى أنه مصاب من البارحة أصابته رصاصة في كتفه، وانتهت إلى أعلى جذعه المحزوم بأكوام من الخرق المضرجة بالدم.

- وماذا تنتظرون يا خالتي؟ سألتها مستغربا وأنا أتذكر أخي يوم أصيب والآلام التي عاناها.

قالت وهي تحاول أن تسقيه جرعة من كاس الماء المرتجف بين أصابعها وقد ترقرق منه على جانبي فمه أكثر مما شرب:

- ننتظر إدخاله إلى تركيا ننتظر دورنا قالوا لنا اليوم... وما بيدنا حيلة إلا ننتظر

وجدت نفسي مثلها عاجزاً، وما بيدي حيلة أنا الآخر لكني ازددت إصراراً على إيجاد حيلة أساعد بها هؤلاء المنكوبين.

نسيت نفسي أمام جسد ذلك الرجل، يتألم وقد تمازجت صورته مع صورة أخي المصاب في بيتنا، والذي نخبئه عن عيون الوشاة.

نسيت سائق الصهريج الذي ينتظره الناس المترفين لملء مسابحهم، ونسيت أن أهلي سيقلبون الدنيا بحثا عني، ولن يخطر ببالهم إلا أني قد اعتقلت أو خطفت، وكذلك أهل سائق الصهريج الذين سيتهمون أهلي باختفائه لأنه اتجه الى مزرعتنا.

لم أفكر حتى بردة فعل أبي الذي لم استشره فيما فعلت.

لكنه لم يفعل شيئاً...

حين عدنا إليه في السادسة مساء أي بعد خمس ساعات، قلبوا الدنيا خلالها بحثا عنا، وأخبرته بالذي حدث، ورحت أراقب حتى عينيه باحثاً عن ردة فعل

لم يعنفني، ولم يرفع حتى صوته، ولم يقل لي برافو عليك، وإنما اكتفى بالقول

- كان عليك أن تخبرني

لكني قرأت في أعماق عينيه شيئاً هو أقرب إلى الرضا عما فعلت

*****

صور أولئك المشردين على حدود الوطن، بين أشجار الزيتون، وخلف سواتر البطانيات والشراشف بقيت – ولا تزال – في عيني ليال طويلة ولهفة أولئك الأطفال الحفاة، وهم يلهثون متوسلين للحصول على شربة ماء بقيت تعتصر قلبي، كنت أشعر وأنا أحاول أن أنزلق تحت غطائي بأقدامهم الناعمة الطرية تغوص في أضلعي، كما كانت تغوص في الطين حول الصهريج، أما أنين ذلك الرجل المصاب والملقى تحت شجرة الزيتون في انتظار فرج يأتيه في سيارة إسعاف تحمله إلى المستشفيات التركية فقد بقي يطن في أذني بإلحاح، ووجه امرأته المغسول بالدمع والاستسلام لم يفارقني، صور كثيرة كانت كفيلة بطرد النوم عن رمشي وتركي جالساً حتى أذان الفجر، أتقلب بين دوّامات أسئلة مضنية:

- ماذا حلّ بأولئك الناس ماذا حل بذلك الرجل المصاب أسمع أحد أنينه تحت زيتونته البعيدة أم أنه مات متأثراً بجراحه؟ أولئك العطاش هل وصلتهم صهاريج أخرى من الماء؟.... وتتضخم الأسئلة حتى أشعر بها حبالاً تلتف حول عنقي:

من أين يأكل هؤلاء المشردون المرميون في العراء؟ كيف ينام أولئك الأطفال وهم يتضورون جوعاً؟ ما مصير أولئك الآلاف من الناس الذين فقدوا كل شيء وما بقي لهم من سقف إلا السماء وبعض ظلال الأشجار، ولا جدار يسترهم سوى شراشف مهترئة؟؟ لم أنم

تلك الليالي كانت صورهم تتتابع مسرعة في عيني... أنين ذلك الرجل المصاب... دموع تلك المرأة العاجزة عن فعل أي شيء..... أقدام الأطفال الحافية في الطين... توسلاتهم ثيابهم الرثة...

كنت أتذكر وأتخيل وأحلم بأشياء كثيرة كلها تصب في حلم مساعدة أولئك الناس.

هي المرة الأولى في حياتي التي أشاهد فيها مثل هذا البؤس على أرض الواقع

ما هي إلا ليال حتى وجدت زوبعة تلك الأسئلة تحملني من فراشي الدافئ الوثير إلى متاهة أولئك المشردين، لأجد نفسي بينهم مرة أخرى، وقد أخذت قراري، **يجب أن أعيش معهم أشاركهم حياتهم أعمل على خدمتهم وإيصال صوتهم العاجز إلى العالم، نعم قررت أن أكون يدهم العاجزة وصوتهم المخنوق...**

ولكن إقناع أهلي وخاصة أمي لم يكن بالأمر السهل

بدأت بإقناعهم وخاصة بحجة أخي المصاب الذي يجب أن يذهب إلى الحدود ليدخل مع المصابين؛ ليعالج ساقه التي لم تشف بعلاجها البدائي في تلك الظروف الصعبة في المشافي، وكلي أمل أن أذهب معه ولكن الأهل وقد اقتنعوا بالفكرة؛ أرسلوه مع أقارب لنا حيث تم إدخاله إلى تركيا، وانقطع تواصلنا معه لان الهاتف الجوال الذي يحمله يحوي شريحة سورية فقط لكني كعادتي لم أيئس من الذهاب إلى هناك رحت ألح من جديد على اللحاق به لأطمئن عليه، أو لأنتظره على الحدود... ورحت أخترع الحجة تلو الأخرى إلى أن أقنعتهم وسمحوا لي بالسفر إلى هناك.

أيام قليلة بين مغامرتي الأولى مع صهريج المياه والثانية التي كان هدفي الأول منها أن أرى ماذا حل بأولئك الناس المشردين الذين أرقت صورهم عيني... وقد رحت أستعيدها لحظة لحظة عبر زجاج السيارة

المسرعة بي إلى الحدود من جديد، لم أكن أرى من النافذة تلك المشاهد الصيفية التي تطويها السيارة بل كانت النافذة شاشة عرض لتلك الساعات التي عشتها هناك منذ أيام.

ولأني شعرت بضعف قدراتي كفرد في الوصول إلى مطالب واحتياجات هؤلاء الناس؛ رحت أفكر بمساعدة الشباب أمثالي ممن فروا مع أهاليهم، والذين يعتقدون بأن هجرتهم ما هي إلا بضعة أيام ويعودون إلى قراهم ومدنهم... وحقا وجدت منهم من راح يجوب التجمعات معي ليقف على حاجات الناس ويوصلها إلى أهل الخير.

ويوماً بعد يوم راح الحلم يتحول أمام إصراري وإلحاحي إلى حقيقة وجدت نفسي على تلك الحدود السورية التركية نفسي التي كانت تائهة ضائعة

أتيت إلى تلك الحدود من هناك، من ما وراء الخنادق، أحلم أن أكسو أولئك الأطفال الخارجين من الحريق بأجنحة طائر الفينيق الذي ينبعث من رماده ليحلق من جديد دائما،

ومع الأيام شكلت فريقا (تطوعيا) رغم أننا لم يكن لدينا أية فكرة عن معنا التطوعية أو التبعية لمنظمات معينة، وكل هدفنا مساعدة الناس، ثم أصبحنا صلة الوصل بين المنظمات الإنسانية والمحتاجين للمساعدة، بعد أن اكتشفنا الكثير من الجشع والطمع والاستغلال الذي يمارسه بعض ضعاف النفوس بحق أولئك المهجرين، عرفنا جميع الأخطاء ورجونا الله أن نتجاوزها.

بعض الأخطاء كانت نتيجة طمع وجشع، وبعضها كان نتيجة جهل تلك المنظمات بطبيعة أولئك الناس وأعرافهم، وعاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية والدينية، وبحكم أننا أبناء أولئك الناس كنا الأقدر على الوصول إلى حاجاتهم

لكن همنا الأول كان ومازال هو الأطفال.

كنا وما زلنا نحلم بأن نحلّق بأطفالنا بعيداً عن حريقنا السوري، فهم كلّ ما بقي لنا من أهم خزين استراتيجي حقيقي لوطننا هم، كنا نحلم بفينيق سوريا ما بعد الحريق...

انطلقنا من هناك من ما وراء الخنادق، سواءٌ خنادق الظامئين إلى وجوههم وأسمائهم، المتعطّشين إلى الهواء والخبز والماء... أم خنادق المتعطّشين إلى الدم وعرق العبيد...

حرّاس أسوار السجون وزنزانات الأرواح...

هناك حيث ينهمر الموت وتمطر السماء يتما وثكلاً، وتنهار سقوف على كل مأمن من خوف وأمن من جوع، وتسيل دماء آخر القيم الإنسانية.

ورغم وجودنا على الحدود لكننا كنا نتغلغل إلى الداخل نشارك الناس ويلاتهم ومظاهراتهم.

*****

لأول مرة شعرت أني أجد نفسي، وجدتها هنا حيث تتكاثر الخيامٌ، خيام تكتظّ بعيون أطفالٍ تتكدّس فيها صور الأشلاء والمجازر والأنقاض، ويخترق نومَهم دويُّ السيارات المفخخة، وهدير الطائرات المحمّلة ببراميل الموت والقنابل العنقودية والصواريخ الفراغية.

خيام تخفق بها رياح الفقد والعوز والحرمان مكتظةٌ بذكريات الأمس القتيل وحسرة الغد المحكوم بالإعدام قبل ولادته غد أطفال وشباب فقدوا حتى الحلم.

يومها شعرت أنها خيام مفخخةٌ خفقاتُها بزلزالٍ يهدد نوم العالم الغارق في لامبالاته، والعاري من كلّ ضمير...

*****

من هناك من ما وراء الخنادق حيث لكل دمعة حكاية، ولكلّ قطرة دم رواية

حاولت أن أكتب بحياديةِ لون الدمع اللامنتمي إلى لون، وحمرة لونِ الدم التي تنتمي إليها دماء جميع بني البشر حكايا وروايات

وليعلم الجميع أنه مهما تعددت حكايا الدمع وروايات الدم في سوريا ومهما تنوع الأبطال وتعددت الشخصيات لكنها ستصب في شخصية واحدة ، ثكلى واحدة هي سوريا لكن صوت فجيعتها سيؤرق العالم إن لم نساهم ويساهم العالم معنا في إنقاذ ما تبقى من أطفالها وشبابها فليس غريبا – وهذا ما يقرّه علماء النفس – أن تجنح تلك الصور المأساوية، ومشاهد الدم والتي تغلغلت في أدمعة الناشئة والتي يخشى أن تقودهم إلى ما يسمى بالتأزم العقلي بعد أن أصبحت جزءا من ذاكرته وشعوره ولا شعوره لتهوي به نحو حضيض الانحراف والجريمة والتي لن تدفع سوريا وحدها ضريبتها بل سيدفعها العالم.

*****

كتبت في دفتري:

من هنا بدأت من قلب العنف الذي يقضّ مضاجع مجتمعنا وخاصة أطفالنا وينتهك أسس الحياة اليومية والاجتماعية والتربوية والأخلاقية ويهدم النسيج الاجتماعي والإنساني.

وأعتقد لو استمرت المظاهرات السلمية لسقط النظام لأنه لم يكن يستطيع رفع سبطانة الدبابة في وجه غصن الزيتون... يوماً بعد يوم راح يدفع بها نحو السلاح؛ لأنه يمتلك السلاح الأقوى، ترسانة مخزنة من كل أنواع الأسلحة بطيرانها، وصواريخها، وثقيلها وخفيفها، كانت في مستودعاته فأرسل من يعطي أخف أنواع السلاح لمن فقد غاليا من أحبته لينتقم من قاتليه... وقالوا في مظاهرة سميت بجمعة العشائر وزعت بعض العشائر أسلحة عن طريق النظام ليحملوها أمام كاميرات التصوير التي كانت تنتظر توثيق السلاح في أيديهم للعالم، وذهب النظام أكثر من ذلك حين سمح للمتظاهرين بمحاصرة مفارز الأمن وقتل بعض أفرادها وكان قادراً على إنقاذهم لكنه لم يفعل... كان يريد مبرراً ليشهر السلاح الأقوى، كما سمح لدول داعمة بالسلاح أن تسلل عبر أراضيه ليدمرا معاً كل شيء فيما بعد...

*****

لا وقتَ للفرح

حين نزلت من السيارة التي أوصلتني إلى مخيم أطمة، والذي كان يكبر يوماً بعد يوم، كان أول ما خطر ببالي أن أعرف ماذا حل بذلك الرجل الذي كان مصاباً تحت الزيتونة...

مئات الهواجس خطرت ببالي وأنا أنحدر في كرم الزيتون محاولاً أن أتذكر مكانه، دون جدوى، حاولت أن أتذكر شكل الزيتونة التي كان تحتها، لكن كل الزيتونات كانت متشابهة، كلها كانت تتدلى بحزن وانكسار، وكلّ الجذوع كانت مثقلة بأخاديد الزمن، كلها كانت تحاول أن ترتفع بخضرتها عاليا رغم هرمها، أما أغصانها فكانت تتدلى بحنو غريب، شعرت أنها تشفق على الناس الذين لجؤوا إليها كلها كانت متشابهة، وحتى الأسر التي تحتها كانت متشابهة، رحت أمر بجوارها، أفتش الوجوه بطرف عيني، خشية أن يظنوا أني استرق النظر إلى خلوتهم لكني لم أجد تلك الأسرة ولم أجد رجلا ممدداً بجوار امرأة تبكي عليه شعرت بقلبي ينقبض، وأنا أتساءل:

- أتراهم نقلوه إلى الداخل التركي؟ أم أنه مات متأثراً بجراحه؟ وماذا فعلت تلك المرأة المسكينة لوحدها وهي ترى زوجها يلفظ أنفاسه؟ هل مات ظامئا أو أنه شرب جرعة من الماء الذي أحضرته له؟

شعرت بشيء من الندم، كان على أن أبقى بجوار تلك المرأة وأساعدها.

ولمحت طفلاً يمشي كالتائه بين أشجار الزيتون، ينتقل من شجرة إلى أخرى يقف قليلاً ويتلفت كأنه يبحث عن شيء ثم راح يركض متوغلاً بين الأشجار، وخيّل إليّ أنه الولد الذي حملت له الماء ودون

أن أدري انطلقت وراءه، لم أعرف له اسماً أناديه به مشيت مسرعاً خلفه، ثم رحت أركض وراءه، إنه هو، بقامته القصيرة وجسده الضامر النحيل، بل كان يرتدي الألوان ذاتها، وكأنه شعر بي أني ألاحقه، وقف والتفت نحوي، كانت ملامح وجهه المتسخ نفسها، لكنها كانت مرتعبة، والذي فاجأني أكثر تصرفه حين اقتربت، رمى عبوة ماء بلاستكية فارغة كانت بيده، وجلس القرفصاء ورفع كفيه، وكأنه يريد أن يحمي وجهه من خطر قادم وراح يصرخ باكياً متوسلاً:

- والله مو أنا... أنا ما عملت شي

اقتربت منه محاولاً تهدئته:

- لا تخف يا حبيبي تعال.

قلت له مطمئناً لكنه بقي يشهق متباكيا وبصوت متوسل:

- والله ما عملت شي أنا ضيعت أهلي أفتش عن أهلي...

أمسكته بلطف من يده التي تخفي وجهه وأنهضته وأنا أهمس له مطمئناً

- تعال يا حبيبي أنا سأجد لك أهلك.

هدأ قليلاً وأنزل كفيه عن وجهه، ولم يكن وجه الطفل الذي أبحث عنه، لكنه كان يحمل في عينيه الانكسار ذاته، نسيت لحظتها أن جميع الأطفال هنا يحملون في أعينهم الحزن والذل والرعب والانكسار ذاته، جميعهم يرتدون ثيابا رثة ومتسخة، ومن أين الماء الذي سيغسلون به وجوههم قبل ثيابهم، وأنا الذي رأى زحامهم المستميت للحصول على "بادونة" من الماء

سألني الولد سؤالا غريبا: يعني لن تأخذني إلى السجن. استغربت السؤال وهمست بحنو:

- لا... ولماذا آخذك إلى السجن؟

- لان الجيش أخذ أخي الكبير عزيز حين رأوه يركض. ثم سألني وهو يتأمل ثيابي:

- أنت مو عسكري؟

- لا يا حبيبي أنا صديقك وسأساعدك حتى تلاقي أهلك... من معك من أهلك؟

- أمي وأخوتي الصغار

- وأين أبوك؟ حدق في وجهي وعادت ملامحه إلى التجهم، ندمت على سؤالي خشيت أن يقول لي أبي شهيد، لكنه أجابني بصوت متألم:

- بابا مصاب رماه الجيش بالرصاص وأسعفه عمي إلى تركيا وأنا وأمي وأخوتي الصغار جئنا وراءه من الظهر ولم نجده.

- أنت كبير أخوتك

- لا أخي عزيز هو الكبير

- كيف أخذو أخوك عزيز؟

- أنا رأيتهم بعيني جاؤوا إلى بيتنا ليفتشوه خاف أخي عزيز وهرب منهم، ركضوا وراءه لأنه كان يركض وأمسكوه وأخذوه

- ولم يرجعوه؟

- لا أرجعوه بعد أسبوع. راح بابا وطالعوا من عند الجيش بعد ما ضربوه كتير وعذبوه بعدين أرسله بابا لعند عمي في لبنان مشان ما يخدوه تاني مرة

وعرفت سر هلعه الشديد حين شعر أني اركض وراءه فقلت مطمئناً:

- أنا ما عسكري، أنا صديقك تعال معي لنفتش عن أهلك، ورأيته لحظتها يلتقط العلبة الفارغة وهو يقول:

- أرسلتني ماما لأبحث عن ماء لأخوتي:

قلت وأنا أمد يدي إلى كفه الصغيرة:

- تعال معي سنجد ماء ونجد أهلك.

وقبل أن يسلمني كفه المترددة لاحظت عدم الارتياح في عينيه، وعاد يسألني بلهجة خائفة:

- أنت مو عسكري؟ طيب لماذا كنت تركض ورائي؟

ارتبكت قبل أن أجيبه:

- لا شيء لا شيء، أريد أن أدلك على مكان أهلك... عرفت أنك ضايع... ألا تذكر ماذا كان حولهم؟

- صمت قليلا وهو يتذكر وقال:

- قرب السيارات التي تدخل من الحدود

رفع عينيه وراح ينقلهما من مكان إلى أخر ثم أشار بإصبعه وقال:

- هناك... لا لا لا بل هناك لا هناك؟ ما بعرف...

واستدار إليّ وهطلت دمعة غزيرة من عينيه وقال مستسلماً:

- ما بعرف

- قرب السيارات؟ سألته لأتأكد

- بعيد عن السيارات شوي تحت زيتونة كبيرة... أي ماما تنتظر عمي هناك ليعود مع بابا من المشفى وكاد يبكي وهو يريني علبة الشراب الفارغة

- أخواتي عطشانين.. قلت له وأنا أمسح على شعره:

- لا تخف أنا سآخذك إليهم وسأجد لهم ماء أيضاً.

سلمني كفه دون أن ينظر إلي، فعيناه كانتا تبحثان هنا وهناك سحبته من يده وقد اطمأن وهدأ روعه ورحت أنتقل به من أسرة إلى أخرى هو كان يبحث عن أهله أما أنا فكنت ابحث معه عن أهله، وعن أسرة الجريح الذي لم أجد له أثراً

ورأيت قربة ماء كبيرة قرب باب خيمة مصنوعة من بطانيات قديمة وقربها امرأة عجوز استأذنتها أن أملأ عبوة الماء.

فردت مرحبة:

- تفضل يا بني أهلا وسهلا، بس انتبه لا تكب؛ لأنهم من يومين ماجابولنا مي

ملأتها بحذر شديد وأعطيتها للطفل الذي وضعها على فمه وراح يعبها بشراهة، وكأنه لم يشرب منذ أيام حتى كاد يشرب نصفها، بينما كانت العجوز تحدق به وهي تقول:

- يا كبدي كم هو عطشان الله لا يوفق الذي كان السبب شو ذنب هالاطفال تتشرد من بيوتها؟

وحين أردت أن اشكرها وأنصرف قالت مشيرة إلى العبوة:

- املأها يا بني كمّلها لا تأخذها فارغة، كله من خير الله وخير المحسنين.

تابعنا بحثنا، والطفل في كل مرة يشيرلي إلى اتجاه حتى كدنا نتعب.

مئات من الأسر كانت تنتشر تحت أشجار متشابهة وخيام متشابهة بل ووجوه متشابهة

وفجأة وكان عصاً قد لسعت الصبي الممسك بيدي، تملص مني وانطلق راكضاً وهو ينادي:

- ماما ماما أنا هنا...

ورأيتها هناك امرأة متوسطة العمر تلتف بعباءة سوداء وتلف أغلب وجهها بمنديل أسود، كانت تركض نحوه فاردة ذراعيها له، إلى أن وصلها فاحتضنته حتى كادت تخفيه في عباءتها السوداء ثم أبعدته عن وجهها وانهالت على كتفيه وظهره بصفعات عصبية وهي تصرخ به:

- وين رحت وين اختفيت؟ قطعت قلبي، من ساعة وانا أدور

عليك... يا ربي أنا ناقصني ريحني يا ربي والله تعبت ما بكفي أبوك اللي ما منعرف عنه شي وأخوك اللي نسيناه

وانخرطت ببكاء طويل بينما تملص الصبي من صفعاتها وركض إلي ليختبئ وراء ظهري... رفعت المرأة إليّ عينين معتذرتين وأنا أنحني عليها مقدما إليها الماء لتشرب

وسألتني:

- لقيتو ضايع مو هيك؟ جزاك الله الخير يا ولدي.

وقفت بقامتها الطويلة الممتلئة ووجهها الأربعيني وقد بلله الدمع وغشيته ابتسامة فاترة، وراحت تشكرني بكلمات يتخللها لوم لولدها محمد كما كانت تناديه

لكن كلماتها التي ندبت بها حظها قبل قليل راحت تدور في داخلي:

(يا ربي موتني وريحني يا ربي تعبت ويلي أبوك المصاب بين الموت والحياة وأخوك اللي نسيناه بالضيعة) وراء كل جملة كانت حكاية ألم.. وحين رأت العرق الذي يتصبب من وجهي أشارت إلى ظل زيتونة قريبة وقالت تعال أستريح يا ولدي، ووجدت نفسي أسير وراءها دون أن أدري، وقد نسيت الأسرة التي كنت أبحث عنها، فهنا تحت كل زيتونة حكاية جديدة وتحت تلك الزيتونة كانت حكاية أم عزيز

*****

سهلت بأصابعي كدر التراب مبعداً الحصى، وجلست بين الأطفال وكبيرهم محمد، بينما كانوا يحملقون بي صامتين، وكأنهم يتساءلون عن سر هذا الضيف الطارئ، بعد أن تخاطفوا عبوة الماء أما أم عزيز فلم تكن تحتاج مني أي سؤال (كيفك يا خالة؟ خير ان شاالله...؟) لتنجرف مع قصة ألمها التي تكاد تخنقها بدأت تحكي حكايتها وكأنها تعتذر عن التعب الذي سببه لي ولدها، ثم عرفت أنها تريد أن تخرج

ما بداخلها من قهر، تريد أن تحكي قبل أن ينفجر بها ألم التفاصيل الموغلة كسكاكين في قلبها، ومن خلال جملها التي قاطعتها دموعها أكثر من مرة بدأت أجمع خيوط حكاية أم عزيز

أبو عزيز رجل كالكثير من الرجال عامل بسيط يسابق الشمس إلى قوت أسرته المكونة من خمسة أولاد وأمهم، إن وجد عملاً أكلوا وإن لم يجد فقلما يجد من يستدين منه قوت عياله.. يستيقظ صباحا تاركاً أطفاله في نومهم الهانئ سائلا الله الرزق بقوله (يا فتاح يا رزاق أنت أعلم بالحال)... لا يتكبر على أي عمل فيوماً في نجارة البيتون وصب الأسطحة ويوماً يشتعل معماراً ومليساً ودهاناً، وإن كان هناك حفر أساسات بيت، أو حتى حفرة مرحاض فهو لها، ويوماً آخر تراه ينقل حجارة أو رملاً، كان شعاره الشغل مو عيب، المهم الواحد ما يحتاج الناس، والأهم عنده أن يعود آخر النهار محملاً بالأكياس إلى بيته، حيث ينتظره أطفاله أمام الباب وهم يصرخون فرحين:

- رجع بابا... ويتعلقون به سائلين:

- أشو جبتلنا؟

كان رغم تعبه الشديد وعضلاته المتورمة والمعضلة من ثقل البيتون يلاعبهم ويحملهم على ظهره دون أن ينتبه إلى صراخ أمهم:

- اتركوا أبوكم يرتاح يا أولاد.

تقول أم عزيز: كان يقول لي إن ضحكاتهم تنسيه كل تعبه

وقَلّما كان يعود إليهم خالي اليدين، لابد وإن اشتغل حتى آخر الليل من أن يأتي لكل واحد منهم بطلباته التي يعدهم بها.

تبلع أم عزيز غصتها وتقول: كان نمر يحصل لقمته من الصخر والله يحصلها من فم السبع وبالحلال. ولكن بدأت المظاهرات وانشغل الجميع بالخوف وهواجس المصير الذي ينتظرهم أصبح

همهم التفكير بما سيأكلون ويشربون في الأيام القادمة ما عاد أحد يفكر بالبناء أو الهدم أو حتى طلاء بيته بالدهان جمدت الحركة وجمد الناس والجميع يقول (الله يسترنا من القادم والقادم أعظم) وأصبح أبو عزيز والكثيرون أمثاله من العمال المياومين لا يجدون قوت يومهم... كان يخرج صباحاً، ويعود آخر النهار خالي اليدين يجرجر خطواته الخائبة وصوت أولاده يرن في أذنيه يكاد يشل حركته، وهو يتخيلهم – كعادتهم – يتقافزون حوله سائلين:

- بابا شو جبت النا اليوم

كان يقول لهم:

- بكرا يا بابا ان شاء الله... اليوم ما كان في شغل

وتنهرهم أم عزيز وهي التي تشعر به وتحس بألم خيبته التي تزيد يوماً بعد يوم.

- يالله يا أولاد أبوكن تعبان وبدو يرتاح

لكنه يبقيهم إلى جانبه ويقول لهم معللاً والغصة في حلقه:

- غداً إن شاء الله غداً... وهو يعلم في قرارة نفسه أن الغد لن يكون أفضل من اليوم.

في واحدة من تلك الليالي التي تشتد ظلمتها يوماً بعد يوم، وبعد أن نام الأولاد دخلت أم عزيز غرفة النوم على زوجها تحمل إبريق الشاي، والبخار يتصاعد منه.

أبو عزيز يحب الشاي إلى درجة الإدمان، لكنه تلك الليلة لم يطلب منها الشاي لأنه يعلم أن جرة الغاز قد نفذت ولا يوجد غاز في القرية من أكثر من أسبوع لأن الطرق مقطوعة، وإن وجد فإن سعر الجرة قد تجاوز الأربعة آلاف ليرة بما يساوي أجرة عمله أربعة أيام كاملة، هذا إن وجد عملاً ولذلك تناول عشاءه ودخل غرفة النوم صامتاً.

لم ينتبه لدخولها، ولا لإبريق الشاي في يدها، كان غارقاً في صمته، وقد اتكأ على ذراعه وعيناه سارحتان في السقف، هي التي تعرف حجم الهموم التي تغرقه إضافة إلى الديون التي يزداد تراكمها على صدره يوما بعد يوم، وكيف لا تعرف أن تقرأ صمته وهي حبيبته قبل أن تكون زوجته منذ أكثر من عشرين عاماً، لكنها كانت تخشى غضبه، وعناده فأبو عزيز لا يفعل إلا الذي في رأسه وكذلك هي لا تمل من المحاولة والمناورة إذا أرادت شيئاً، صبت قدحين من الشاي، خشية أن تجفله كعادته حين يكون مستغرقا في شروده:

- اشرب شاي يا أبو عزيز.

حدق بكأسي الشاي ورماها بنظرة متسائلة فهمتها وأجابت:

- هل تخاف على أم عزيز بخلقلك شاي من تحت الأرض

- من أين الغاز ؟ قلت إن الجرة قد انتهت.

- صنعتها على الحطب جمعت عيدان وقش وربك كريم لا تخاف

ابتسم وهو يمد يده إلى كاس الشاي وقال

- أنت ما بينخاف عليكي

همست: لا بد ما يفرجها الله ما من طلعة إلا وراها نزلة

راح يرتشف الشاي وهو يعود إلى شروده رويداً رويداً

دنت منه بجسدها حتى التصق صدرها بذراعه وهمست بحنان:

- يا رجال سأقترح عليك شيئاً لكن لا تزعل ولا تغضب

رماها من طرف عينه بنظرة متسائلة

- تفضلي

ترددت قليلا فهي تكاد تعرف إجابته ولكنها راحت تمهد

- يبدو يا رجال ان الأمور هون من سيء إلى أسوأ وما تبشر بخير..

تنهد قائلاً:

- للأسف هذا الواقع

تشجعت أكثر متابعة:

- وأولاد الحرام أعنى حواجز الجيش يتحرشون بالناس ويحاولون إذلالهم ولولا لطف الله كان عزيز راح وما رجع

وارتبكت محاولة أن تتركه يقر بذلك؛ لأنها تعرف معاناته معهم حين يريد الخروج من البلدة إلى عمل خارجها.

- مو هيك؟

- تنهد متذكراً وقال: والله صحيح بتعرفي لو ما أخدت معي امين شعبية الحزب وأثبتوا انو ما طلع ولا مظاهرة ما كان الضابط الحقير رح يتركو وكان ممكن يتحول لإدلب ولهذا السبب لليوم بيكرهني، الحمد لله عزيز اليوم عند أعمامو في لبنان صار بالأمان

- يا رجل بس ما ضل أمان مو هيك؟

- أي والله أمس صار لي عمل دسم فيه ألف ليرة بكم ساعة غربي البلد ولكنهم منعوني من الخروج، قال شو في تشديد أمني وممنوع المغادرة، وخاصة ضابط النقطة صار يكرهني من يوم كنت روح طالب بعزيز... والله كأننا سجناء معتقلين

واستغلت انفعاله لترمي اقتراحها

- ما رأيك أن نترك لهم البلد ونهاجر مثل الناس اللي هاجروا

انتفض وكأنها لسعته بقضيب من الرمان على قفاه:

- اشو نهاجر؟ ولوين انشاء الله؟ ونترك لهم البلد وهل هي بلدهم وبلد اللي خلفوهم، هاي بلدنا يا بنت الحلال

تراجعت بجسدها قليلاً لتستوعب انفعاله:

- اعرف اعرف يا أبو عزيز شدة وتزول، ولابد من أن نرجع المثل يقول (مطرح ما بترزق الزق)

تنهد طويلا أمام كلمة الرزق، وقد وضعت يدها على مكمن ألمه وقال:

إلى أين سنهاجر يا أم عزيز كل البلدات حولنا حالهم من حالنا كل الناس انقطع رزقهم، حتى أصحاب المحلات طيلة النهار يكشون الذباب وأصحاب المواسم ما عاد عندهم لا مواسم ولا هوا غربي خليها على الله لوين بدنا نهاجر

تشجعت المرأة قليلاً ورمت قنبلتها التي تدور في مخها منذ أيام وقالت:

- إلى تركيا من هناك منجيب عزيز من لبنان ومنعيش سوا

كاد أن ينفجر في وجهها، ولكن عرف أعماقها المحترقة شوقاً إلى فلزة كبدها حين ذكرت اسمه، فخفف من حدة رده قدر ما استطاع وقال:

- إلى تركيا؟ نترك بلادنا ونذهب إلى تركيا لنعيش مهجرين في الخيام؟

وعلا صوته أكثر: هل سمعت عن الناس اللي عايشين على الحدود في المخيمات وحتى اللي دخلوا إلى تركيا هل سمعت كيف عايشين؟

وصمتت المرأة أمام اندلاع غضبه وهو يتابع:

- الأسرة كلها في خيمة واحدة الأب والأم والأولاد الكبار والصغار فوق بعضهم البعض والخيام متلاصقة لا يفصل بينها إلا قماشة يعنى إذا شخر واحد في الخيمة المجاورة كأنه نايم جنبك، وإذا أرادوا الذهاب لقضاء الحاجة يقفون طوابير طوابير ما رأيك بهالعيشة مقابل أن يعلفونا بسلة غذائية كل شهر مرة؟ بدك نعيش على الصدقات يا أم عزيز؟ أنا اللي قضيت عمري أكد واكدح حتى بنيت هالبيت وعملت للصبيان غرفة واللبنات غرفة ولنا غرفة مستقلة،

وما احتجت إلا لله وبدك أهاجر إلى المخيمات وأسكن خيمة تشوينا في الصيف وتغرقنا في الشتاء هذا إذا ما حملتها الريح وفوق هذا أعيش على صدقة السلة الغذائية بالذل والمهانة؟؟؟

وأدركت أم عزيز من صوت زوجها الذي كاد أن يوقظ الأولاد في الغرفة المجاورة أن لا جدوى من طرح هذا الموضوع اليوم، وأجلت المحاولة إلى وقت آخر وهي تقول:

- ما عاش من أراد أن يذلك أو يهينك يا سيد الرجال خلص بلا كل الموضوع

- أنا ما رح اترك بيتي وبلدي إلا ميت فهمتي؟

- وأنا معك للموت لا تغضب أرجوك والله ما ناقصك هموم، يا ريت قطع لساني ولم أتكلم

وشعر بحنان كلماتها فخفض صوته واتجه إليها بوجهة قائلاً:

- لا تخافي ما رح أتركك تحتاجي أحد ما دمت واقف على رجلي بكرا إن شاء الله طالع من البلد للضاحية الغربية غصب عن الحاجز، ورح أشتغل عند أبو رامي رح أغافل الضابط اللي بيكرهني وأخرج

- أنت كل الأمان يا زوجي الغالي ولكن الله يخليك لا تخاطر هدول العساكر أولاد ومنهم ما بيخاف الله ممكن يطلقوا النار عليك.

*****

حين روت لي أم عزيز تفاصيل تلك الليلة وكانت ليلة الخميس، وكانت الأخيرة معه بكت كثيراً، وكانت تقول: أنا كنت السبب ربما، يا ريت لساني قد قطع ولم اقترح عليه ذلك الاقتراح

وحين سألتها ما الذي حدث في اليوم التالي قالت:

- ما بعرف شي أنا ما كنت موجودة وما شفتو حتى الآن نقلو أخوه

للمشفى قبل ما اوصل لعندو، لكن حكوا لي وبدون ما يحكوا لي أنا بعرف زوجي وبعرف كيف هجم على الحاجز ليخرج من البلد غصب العنهم ربما أنا السبب يريد أن يثبت لي أنه رجل قادر على جلب لقمة عياله من فم السبع

- حكى لي بعض الذين شاهدوا الحادثة قال:

- كنا نقف في طابور طويل أمام الحاجز العسكري وكان الجنود يأخذون الهويات ويدققونها فمنهم من يسمحوا له بالخروج كالذي يريد الذهاب إلى أرضه أو بستانه ومنهم من يطلبوا منهم العودة بكلمة ممنوع وحين جاء دور أبي عزيز سأله الضابط:

- لوين رايح؟

- إلى الضاحية الغربية

- لشو؟

- عندي شغل

- شغل في الضاحية الغربية ما بتعرف أنو الغربية فيها إرهابيين ورايح تشتغل معهم أنت يا رجل ما بتفهم أنت حيوان شي؟ ما بكفي طالعنا ابنك اللي كان كل يوم بأول المظاهرات وكل يوم والتاني جاي بدك تطلع ممنوع تطلع انت بالذات

يقول الراوي: إن أبا عزيز بقي هادئاً في البداية ولم يرفع صوته بل قال بكل هدوء للضابط الملازم:

- مو عيب عليك أنا بعمر أبوك تقول لي حيوان..؟!

رد الضابط بسخرية:

- أنا ما بشرفني يكون عندي أب متلك أنا بيي جاب ضباط يحموا الوطن أنتو ماتجيبو إرهابيين يدمروا الوطن..

تجاهل أبو عزيز رد الضابط وقال بحزم:

- أنا رجل عامل بناء وعندي أطفال ولازم أشتغل لحصل لقمتهم غصب العنك وعن أبوك اللي جاب ولد غير محترم متلك فهمت؟

- أوعك تغلط ولاك برشك ها قلنا ممنوع وخلص ممنوع

- كيف يعني ممنوع؟

- نحن في سجن أشو نحن معتقلين

- لا ترفع صوتك أنا مالي علاقة الأوامر تقول ممنوع

- من وين الأوامر دلني على معلمك وأنا رح خبرو عن عسكرو قليلين الأدب مع الناس خذني إلى معلمك

- المعلم نايم وما بفيق قبل الظهر ارجع عطلت الناس أنهم خلفك ينتظرون

- قلت لك ما رح أرجع رايح ع شغلي

يقول الراوي هنا بدأت الأصوات تعلو، وتدخل أكثر من جندي حتى أن ضابطاً برتبة ملازم أول راح يدفع أبو عزيز الذي يريد التقدم إلى المبنى الذي ينام فيه الضابط الكبير لا نعرف ما الذي حدث... كل ما نعرفه أننا سمعنا صوت أبي عزيز يصرخ: سأخرج غصبا عنكم... وسمعنا أصوات رصاص رأينا بعدها أبا عزيز ممددا على الأرض وسط بركة من الدماء، ركضنا إليه كان الدم يتدفق من صدره، وسمعنا الملازم يقول احملوه من هون قبل ما أخلص عليه وصرخ رجل عجوز:

- يا مجرم تطلق النار على رجل مدني أعزل روح وجه بارودتك على حدود إسرائيل وسدد الملازم بارودته وقال:

- انقلع من هنا قبل ما ألحقك فيه

*****

- ما الذي حدث بعد ذلك:

- كنت في البيت لا علم لي بكل اللي حدث وقت إجانا أحد المعارف وهوي عم يصيح:

يا أم عزيز ضبي أولادك والحقي بزوجك بسرعة قبل ما يجي الجيش لبيتكم

وفهمت أن زوجها المصاب برصاصة في صدره قد أسعفه ابن حميها عمر أخو أبو عزيز الأكبر بسيارة إلى الحدود التركية وأنه عليهم أن يلحقوا به لأن (أبو عزيز) إرهابي وقد يفتشون بيته ويعتقلون أسرته وكالمجنونة راحت تلف وتدور في أرض الدار لا تدري ماذا تفعل والأولاد من حولها يبكون معها، وتجمعت نصف البلدة عندها ثم جاؤوها بسيارة وقالوا: الحقي (أبو عزيز) قبل أن يدخلوه لتدخلوا معه

قالت: لا أدرى كيف وجدت نفسي في سيارة شاحنة، وقد صعدت فيها أكثر من أسرة من أسر الذين اشتبكوا مع الحاجز دفاعا عن أبي عزيز، ومع كثرة الأولاد لا أعرف كيف نسيت رامي، الخبر نساني الدنيا حتى ولدي نسيته

حين لقيت أم عزيز لأول مرة، كانت قد وصلت منذ ساعتين تقريباً إلى مخيم أطمه، ولم أكن أعرف كل هذه التفاصيل من حكايتها، والتي جمعتها فيما بعد ولكن ما زلت أذكر كيف كانت تتخبط كالمجنونة بين تلك الجموع الغفيرة من الناس الهاربين من الموت تبحث عمن يساعدها، حتى أهل بلدها الذين جاؤوا معها فقدتهم بين الجموع، وحين تفقدت أولادها وهم ينزلون من السيارة عرفت أنها نسيت الصغير رامي، وهي التي سألت أكثر من مرة هل أتيتم بالأولاد؟

وهم يجيبونها بنعم.

وكان سؤالها عن جرح زوجها قد أنساها كل شيء، وكلّ أملها أن

تلحق به قبل أن يدخلوا به إلى تركيا، وحتى هذا الأمل لم يتحقق لها، كانوا قد ادخلوه ولم يعد بإمكانها إلا أن تنتظر كبقية الآلاف من المنتظرين لجرحاهم في الداخل التركي، وقد جلسوا على باب المعبر يراقبون سيارات الإسعاف التي تأتي فارغة، وتعود محملة بالجرحى القادمين من المناطق التي خرجت مظاهرات من الداخل السوري.

وكلهم أهون من أم عزيز التي تمزق قلبها إلى نصفين نصف في تركيا مع زوجها، ونصف مع ولدها الذي نسيته في البلدة، وتريد العودة للبحث عنه

وهنا وجدت أني قد أستطيع أن أقدم خدمة لهذه المرأة، وأنا الذي قضيت ليالي أتقلب مع آلام أولئك الناس وها هو الآن من يحتاجني.

قلت لها دون تفكير

- أنا سأساعدك يا خالة

نظرت إلى بعنينين متلهفتين وسألت: يا ريت يا بني كيف

- سأعود معك إلى البلدة ونحضر الصغير ثم نعود لانتظار زوجك

كنت أعرف أنها لا تريد لعينيها أن ترفا لحظة عن رؤية الطريق المتوغل في الداخل التركي، والذي قد يعود بزوجها في أية لحظة، وفي الوقت نفسه فلذة كبدها لا تعرف عنه شيئاً، قلت شارحا لها حين أدركت أنها لا تعرف ما الذي تريد فعله:

- يا خالة أبو عزيز الله يشفيه الآن في أيدي أمينة هو في المشفى، ومعه أخوه كما تقولين.

- هزت رأسها موافقة منتظرة أن أكمل

- ولا فائدة من انتظارك هنا علينا أن نعود إلى البلدة لان الصغير سيكون هناك بانتظارنا

بكت قائلة: يا قلبي عليه وين هوي!

- قلت مواسياً هو بخير أن شاء الله لا شك أن الأقارب أو الجيران وضعوه عندهم، وهو ينتظرك، علينا أن نعود إلى البلدة. وسألتها وأنا أقيس الوقت المتبقي إلى المساء من خلال الشمس

- كم تبعد بلدتكم

- حوالي الساعتين بالسيارة

- سنصل قبل غياب الشمس

- ولكن يا بني أنا لا اسكن في البلدة بعد أبو عزيز سأعود إلى هنا لأنتظره ثم إنهم سيعتقلوننا إذا بقينا هناك

- لا عليك المهم أن نسرع الآن لنعود بالصبي قبل حلول المساء فالتنقل ليلاً صعب جداً كما تعرفين

*****

كنت مندفعاً جداً، سأقوم بعمل عظيم ربما لأول مرة في حياتي، كان لدي إحساس بأننا سنجد الطفل هذا ما كنت أقوله لها حين اندفعت بنا سيارة الأجرة نحو البلدة

أنا وأولادها الثلاثة.

كتبت في دفتر مذكراتي فيما بعد عن تلك السفرة:

كانت الأم تحدثني بنتف متفرقة من قصة حياتها، وكأنها تعرفني من دهر، وأحيانا كانت تحدثني بأشياء ولا تكملها، وكأنني أعرف كلّ شيء، ولا حاجة لان تكرر لي ما أعرفه، كانت تبكي وتضحك في وقت واحد فتتمازج ابتسامتها بحرقة دموعها، بينما كان الصغار حولنا في عالم آخر كانوا يتضاحكون وخاصة أصغرهم الذي لم يتجاوز سنته الرابعة على ما أعتقد، لكن كبيرهم محمد ابن السنوات العشر كان يسألها بين الآونة والأخرى:

- ماما هل سنرجع إلى بابا؟ هل بابا بخير؟ وحين تنظر إليه بعينين عاجزتين إلا عن الدمع يلتف بصمته، ويتابع إخوته الذين يتضاحكون، **الأفضل للأطفال ألا تعرف قلوبهم الغضة الطرية حجم الألم الذي يعتصر قلب هذه الأم.**

وصلنا القرية قبيل غروب الشمس، وكان آخر حاجز هو الأصعب، رغم كثرة الحواجز التي انتشرت في القرى لمنع اتصال المظاهرات، قمنا بالالتفاف حول البلدة لندخل من طريق فرعي لم ينتبه الينا جنوده الذين كانوا يحرسونه، لوجود امرأة وأطفال معنا، وكان السائق قد أوصانا:

- إذا سألوكم من أين أنتم قادمون قولوا لهم من إدلب، إياكم أن تذكروا كلمة الحدود، أو تركيا أو أطمة، وكان ذلك.

راحت الأم تدل السائق على الشوارع المؤدية إلى دارها، وهي بكامل وعيها وفجأة وكأن شيطاناً قد مسها صرخت به:

- هنا توقف هذا بيتنا وقبل أن تتوقف السيارة تماما كانت قد فتحت الباب ورمت نفسها إلى الشارع، تمالكت جسدها ولم تقع واندفعت كالعاصفة نحو دار قد هدم جزء منها وهناك سمعنا صوتها وهي تصرخ:

- رامي رامي... وينك يا رامي

لحقنا بها كان باب الدار الخشبي مكسوراً وثمة ثلاث غرف وفسحة سماوية شكلت حديقة صغيرة فيها بعض الأزهار، كانت في غرفة سقط جزء من سقفها وجدارها وكأنها رميت بأكثر من قذيفة، كانت تنبش الركام بيديها وهي تصرخ:

رامي... رامي

حدقت بالركام الهابط من السقف والجدار لم يكن يوحي بأنه

يدفن تحته جثة الصغير، حاولت طمأنتها أنه من المستحيل أن يكون هنا، حدقت بيديها مستسلمة وقالت:

- وين راح لا شك أنو أصيب هنا ونقلوه إلى مكان آخر..

قلت لها وأنا ابحث عن أي إثر للدماء

- يا خالة لو أصيب لرأينا أثراً له لا شك أنه عند بعض أقاربكم، أو جيرانكم. وفي اللحظة نفسها بدأ بعض الجيران يتوافدون، كنت أتوقع أن يجتمع ناس أكثر، ولكن يبدو أن أغلب الناس قد هجروا البلدة، والأدهى من ذلك لم يذكر أي شخص من القادمين أنهم رأوا الطفل رامي.

وتنوح أم عزيز وتصيح: يا ويلاه ويلي أين ذهب الصبي ثم تعود إلى الداخل وتفتش الركام، ثم تفتش الغرف من جديد إلى أن استسلمت بعد أكثر من ساعة، فانهارت على طرف الجنينة تنتحب بمرارة.

قال السائق معتذراً:

- يا جماعة أنا مضطر للذهاب لأنني لن أستطيع قيادة السيارة ليلاً لأن هذه الايام ما عاد فيه أمان

ثم انسحب أغلب الجيران الذين حضروا طمأنوها أن القذائف حين وقعت على البيت لم يكن فيه أحد، وأن الجنود هم من دخلوه وفتشوه وكسروا كل شيء ولم يكن رامي هناك، وتطوع البعض بالبحث عنه في البلدة، وطمأنوها أنهم لن يناموا حتى يجدوه، حاولت الجارات أن يأخذنها لكنها رفضت، وسحبت جسدها إلى كرسي قديم، قرب الجدار وارتمت متهالكة عليه، وأنا أقول لها وقد بدأ الظلام يحول بيننا:

- وكلي الله يا خالة، لابد أن يعود سننتظر الصباح، سيرجع به من أخذه من هنا.

قالت: رح استناه هون

وجلست على كرسي بعد أن أحضرت لي حصيرا بلاستيكياً وفراشاً من الإسفنج، ووسادة من بقايا المنزل الخرب وقالت: استرح يا بني

قلت لها وأنا أتهالك على الأرض وان شاء الله سيرجعون به ريحي حالك.

لا أدرى كيف نمت من شدة تعبي وإرهاقي تلك الليلة، وأنا أحدق بتلك الفجوة التي أحدثتها قذيفة في الجدار، لكني أذكر حين استيقظت صباحا وجدتها لا تزال جالسة على كرسيها كما تركتها وعيناها تراقبان باب الدار المكسور بانتظار خبر.

ومن لطف الله بها أنها لم يطل انتظارها فما إن سطعت الشمس حتى جاء رجل بخبر يطفئ بعض غليلها قال:

- إنه خبر أن ولداً ضائعا في الضاحية الغربية ولا يعرفون أهله

قالت هو رامي أكيد هو رامي أنا رايحه لهونيك

قال الرجل: أنا حاولت أن اذهب لكنهم سدوا منافذ البلدة حاليا، ولن يفتحوها قبل العاشرة وأخبرت شخصا أن يأتيني بالولد.

وبدأنا نعد الثواني قبل الدقائق وقبيل الساعة العاشرة رأيت أم عزيز تنطلق كالمجنونة من باب الدار وقد رأت رجلا قادما يسحب طفلا بيده.

رأيتها تجثو على ركبتيها، وتحضن الطفل، ثم تنهض به وتدور، وهي تغرس وجهه في صدرها كأنها تريد إدخاله في قلبها.

حين اقتربت منها لم أستطع أن أمنع دموعي، وحين رأتني ركضت إليّ وحضنتني أنا الآخر، سمعتها تضحك بجنون، وشعرت بحرارة دمعها على وجهي كانت تشكرني، وتدعو لي وتقبل راسي، وكل هذا من فم واحد ينقط بدموع الفرح...

لحظتها شعرت بأنني موجود لأول مرة، وأني قد فعلت شيئاً يعجز الكبار عن فعله، شعرت أنني السبب في فرحة أم.

دعت لي كثيراً، أعظم دعوة سمعتها: روح الله يفرح أمك فيك. كم أسعدتني هذه الدعوة شعرت أني لم أقدم شيئاً لهذه المرأة فحسب بل قدمت شيئاً لأمي...

ولكن فرحة أم عزيز لم تعمر على شفتيها طويلاً، وكأنه لم يعد هناك متسع للفرح في زحمة المصائب التي نعيشها نحن معشر السوريين.

تنفسنا الصعداء في السيارة التي أخرجتنا من البلدة بأعجوبة، وراحت تبتعد بنا عن الحواجز، وتدخل القرى التي كانت تجهز لمظاهرات تلك الجمعة.

تذكرت تلك المظاهرات الكبيرة التي كانت تخترق الدروب، والقرى لتلتقي في ساحات المدن الكبيرة

تذكرت الاعتصامات الليلية والرسامين، وهم يقضون الليلة على السلالم وهم يرسمون لوحات مطالب الجماهير واحلامهم

وتذكرت كيف كانت تتشابك أيدينا ونلوح بأغصان الزيتون وننادي (حرية حرية) (سلمية سلمية) ويحمل البعض على الاكتاف وتموج مع صوته الحناجر بينما الاقدام ترتج الأرض من تحتها وبينما نسوة يرششن الورود وحبات الارز على الرؤوس واخريات يحملن الماء للحناجر التي تيبست من الهتاف.

وكم تاقت نفسي للنزول والمشاركة معهم، ولكن حين نظرت إلى وجه أم عزيز بين أطفالها ورامي في حضنها تلفه إلى صدرها، وكأنه رضيع رأيت ملامحها قد عادت إلى تجهمها، حاولت أن أحدثها، ولكن رامي كان قد سبقني، سمعته يسألها

- وين بابا؟ أنا بدي بابا

وكأن القدر كان قد ضرب لنا موعداً مع بابا في الدقائق الأولى لوصولنا إلى معبر الجرجى كانت سيارة إسعاف تتجه إلينا من داخل الأراضي التركية، وكأن روح أم عزيز عرفت من الذي داخل السيارة، مشت إلى باب العبور وكأنها منومة مغناطيسيا، وتبعتها، وقفت هناك كأنها صنم لاحس، ولا حركة، لم يبق منها شيء يتحرك سوى عينين جاحظتين تحاولان اختراق السيارة القادمة، والتي وقفت بجوارها وترجل منها رجل سمعت أحد الأولاد الذين بجواري يقول:

- هذا عمي عمر بس وين بابا؟

وركضوا نحو السيارة وتبعتهم بخوف من الخبر المتوقع وكرر الطفل سؤاله:

- وين بابا؟

وجاء الجواب حين سمعنا صرخة أم عزيز، وقد حشرت جسدها داخل سيارة الإسعاف

- يا أبو عزيز ليش متت وتركتني يا حبيبي.....

لأول مرة كان الموت مجسداً برجل ملفوف بكيس على بعد متر مني، تراجعت وقلبي يخفق بشدة، جسدي كأنه أصبح قطعة واحدة، مشيت مبتعداً كي لا أسمع فجيعة تلك المرأة التي بقيت يومين أحاول أن ارسم لها فرحاً لكنه ما كاد يبتسم حتى اختنق.

ما عاد من مكان أو زمان للفرح... لا وقت للفرح.

عطور في الذاكرة

(الحبق لا ينتظر)

كان نهاراً طويلاً، وشاقاً من نهارات نيسان، مئات الأسر تدفقت نحونا هاربة من الموت في مناطق الاشتباكات، تركوا كلّ شيء بيوتهم، أراضيهم قبور أهليهم، شهداءهم، وفروا ناجين بأرواحهم، وصلوا إلى نقطة التجمع الحدودية حالمين بسماء آمنة لا تمطر موتاً، وأرضا لا يعتقلون فيها، مجهدين، منهكين، بعد أن رأوا الموت بأم أعينهم، وصلوا لا يحملون سوى ذكرياتهم الأليمة، والغني منهم من استطاع أن يخرج بكامل أولاده وحقيبة ثياب، مدنيون عزل لم يرحمهم أحد، خرجوا من بين نيران النظام والمعارضة، من بين صواريخ الفيل وجرات الغاز، والبراميل المتفجرة التي تلقيها الطائرات، حتى شمس نيسان لم ترحمهم ولم ترحمنا في ذلك اليوم، كنا نتصبب عرقاً، ونحن نستقبلهم ونوزع لهم خيماً وفرشاً بدل بيوتهم التي دمرت، كنا نعمل بآخر ما بقي لدينا من قوة؛ بعد عناء أيام متواصلة استفحل فيها الصراع وسقطت أكثر من قرية في سهل الغاب بأيدي الثوار.

سمعت رجلاً يقول غاضباً:

- ماذا استفدنا من هذا التحرير؟ ما داموا غير قادرين على حمايتنا يحررون البلد من هنا، وتأينا الطيارات لتدمرها على رؤوسنا من هناك، ماذا استفدنا غير أننا تركنا كل شيء وهاجرنا؟.... نظام لا يخاف الله يا عمي يحرق الأخضر واليابس.

ورغم العدد الكبير لم يأت المساء إلا وكنا قد قدمنا لهم ما يحتاجون من طعام وشراب وخيام.

كنت أشعر بالتعب الشديد حين أويت إلى إحدى الخيام الفارغة، واستلقيت على ظهري تنهدت من أعماقي، شعرت براحة كبيرة تسري في عروقي، لقد اعتدت هذا الشعور كنت كلما قدمت خدمات أكثر لأولئك المهجرين شعرت براحة أكبر رغم تعبي الجسدي أغمضت عيني، ومر شريط النهار أمامي، ونسمات محملة بروائح الصيف تداعب عضلاتي المرهقة.

استعرضت عيون الأطفال المرهقة، وبكاء الرضع الجائعين، هلع الأمهات، ودموع الثكالى، والانكسار في عيون الرجال... رحت استحضر نتف الحكايا التي سمعتها خلال النهار، الكل كان يحكي، ولكن لا أحد يكمل حكايته، أسرة هنا اعتقل معيلها الوحيد الذي كان ينفق عليها وأخرى خرج كبيرها إلى الحرب ولم يعد، أسرة هناك تبكي ولدها الذي دفنوه في حديقة المنزل؛ لأنهم لم يجرؤوا على الخروج به الى المقبرة، حتى المقابر لم تسلم من القصف، وخاصة لحظات تجمع المشيعين.

ليست الأسر التي وصلت إلى الحدود بكامل أفرادها قليلة فحسب، بل وقليلون هم الذين وصلوا إلى الحدود بكامل عقولهم، أو أعضائهم، فهذا فقد عينه في شظية، وآخر فقد ساقه حين وقع برميل قرب داره، وآخر انفجرت قنبلة بيده وبترتها من ساعدها، وتلك فتاة في شرخ شبابها شوه وجهها الحريق، الذي أشعلته قذيفة في منزلها، وترك لها ملامح مرعبة... حين كنت أرى تلك المشاهد كنت اشعر بنعمة قلما يدركها الناس العاديون، وهي نعمة أن أكون حتى الآن كما خلقت، أحتفظ بملامح وجهي، وكامل أعضائي أحرك يدي ورجلي في الوقت الذي أريد، أستيقظ صباحا، وأجد نفسي أتنفس بارتياح ما زلت استطيع أن أرى بكامل بصري كلّ ما يحيط بي.. هذه النعمة لا يدركها الناس الذين لم يعيشوا الحروب، ولن يشعروا بها

إلا إذا عايشوا أولئك الفارين، الناجين ببعض أعضائهم من ويلاتها... وأنا منهم فقد نجوت من أكثر من موت محقق.

*****

لا أدري كيف ومتى نمت تلك الليلة، لكني لم أكد أغفو حتى رنّ هاتفي الجوال ليخبرني صديقنا الطبيب الذي يعمل على الحدود أن دفعة جديدة من المهجرين قد وصلت لتوها من سهل الغاب ومناطق مختلفة، وعليّ أن أتصل بالأصدقاء المتطوعين معنا لنستقبلهم، ونؤمن لهم ما يلزمهم.. كنت نائماً بكامل ثيابي، وقبل أن أنفض آثار النوم عني كنت متجها إلى ساحة المخيم، وأنا أخبر الأصدقاء أن يلحقوا بي، وبدورهم لم يتأخروا.

لولا تلك المرأة التي كانت تشبه أمي هناك في الظلمة لما كان هناك جديد اكتبه في تلك الليلة... الحكايا ذات الحكايا، والوجوه المحملة بالحسرة، وكذلك كانت العيون المكتظة بالحزن، والأطفال الجياع المتمسكين بتلابيب أمهاتهم، والرضع الذين يصرخون وهم ينبشون صدور أمهاتهم بحثاً عن أثدائهن... ولولا تلك المرأة التي كانت تقف بعيدا متنحية عن الجمع لما كان هناك جديد.

رأيتها هناك في وشاح الظلمة وقفتها وقفة أمي... قامتها... زِيّها...

ارتجف قلبي، وأنا اقترب منها وأنا أتساءل هل قصف بيت أهلي، ووصلوا إلى هنا؟ أين أبي وأخوتي؟ لحظات كاد قلبي أن يقع قبل أن أتبين ملامحها... لم تكن أمي بل أم أحمد...

كانت تحتضن صرة صغيرة ظننتها طفلاً في البداية، وعلى ضوء القمر رأيته كيساً أسود، ونبتة خضراء تتناوق بأوراقها الناعمة خارجة منه نحو صدرها.

ودون أدري وجدت نفسي أناديها بـ (يا أمي...)

حين تعمل مع ضحايا الحرب يجب أن تكون حذراً في كل كلمة تستعملها معهم، فلربما ترمي كلمة تقتل بها روحاً لم يستطع برميل أن يقتلها قبل وصوله إليك ومع هذا بقيت شهوراً أخطئُ في كثير من ألفاظي، ويومها أخطأت أيضاً حين قلت لها:

- تعالي يا أمي لماذا تقفين هنا وحدك؟ همست لي وكأنها تتكلم من عالم آخر وتخاطب شخصاً آخر.

- أمي؟ أي يا ماما وينك يا ماما؟ ثم استدركت موجهة كلامها إليّ:

- أي يا ماما أنا ما عندي أولاد.

- وشدت إصيص الحبق إلى صدرها قلت دون تردد:

- كلنا أولادك يا أمي تعالي معي لا شك أنك متعبة، تعالي لأدلك على مكانا ترتاحين فيه كدت أسألها: هل معك أحد من أسرتك؟ ثم سحبت سؤالي وقلت:

- معك أغراض؟

- لا

لم يكن معها شيء سوى إصيص الحبق مشت ورائي صامتة، لم اسألها عن أي شيء، هؤلاء الناس لو أرادوا الكلام لا يحتاجون إلى أسئلة، وإذا صمتوا فأسئلة العالم لا تكسر صمتهم.... قدتها إلى خيمة فارغة طلبت منها أن تستريح ريثما أعود إليها ببعض الطعام

رفضت في البداية أن تشغل خيمة بمفردها، وهي ترى الناس ما زالوا في العراء، قالت: أنا لوحدي الأطفال أحق مني.

ولم تقبل إلا بعد أن أقنعتها أن الجميع سيجدون مأوى، وكنت في داخلي أعرف أن الخيم قد لا تكفي تلك الأعداد الغفيرة. وبعض الناس كانوا يرفضون الاستقرار في خيمة، إنهم يحلمون بالعودة سريعاً إلى بيوتهم وكأن الخيمة ستطيل من غربتهم كما يتوهمون.

لم أتأخر كثيراً، لكني حين عدت إليها وجدتها غارقة في نومها، وقد لفت إلى صدرها إصيص الحبق بشكل غريب، كما تلف أم رضيعها وثمة غصن منه كان بمحاذاة أنفها وقفت حائراً أي حكاية وراء هذه المرأة وأصيص الحبق هذا، كدت أن أغادر الخيمة حين انتفضت جفلة وجلست وهي تقول (بسم الله الرحمن الرحيم... مين هون؟) وراحت تحدق بي وكأنها تحاول أن تتذكر أين هي، وحين رأت الحقيبة المعلقة على كتفي أشارت إليها سائلة دون مقدمات:

- أشو معك في الحقيبة

- أغراضي دفتر وأقلام وكاميرا... قاطعتني:

- أنت صحفي

- لا يا أمي أنا دللتك على الخيمة قبل قليل، أنا هنا أعمل في خدمة الناس الذين يحتاجون مساعدة،

- وليش معك كاميرا؟ أنت صحفي، ابني كان يحب أن يكون صحفي...

لم أسألها أين هو؟ لأني عرفت الجواب حين نقلت عينيها إلى الحبقة وصمتت طويلاً..

قلت لها ارتاحي يا أمي، أنت متعبة، هل يلزمك شيء قبل أن أذهب ودون تردد قالت:

- عندك ماء؟

- دقائق ويكون عندك...

خرجت وكل ظني أنها كانت عطشة، درت أكثر من خيمة وأتيتها بقنينة ماء قدمتها لها، وجلست بجوارها... أمام عيني المستغربتين أزاحت الكيس عن ساق الحبقة وداعبت أوراقها الذابلة وبدل أن تشرب راحت تسكب الماء في الإصيص وملأت المكان رائحة حبق وراح الدمع يتدفق من عينها.

أم احمد لم تكن بحاجة إلى أسئلة لتروي لي حكايتها في اليوم التالي هي التي قالت لي: تعال يابني سأحكي لك حكايتي

*****

حكاية أم أحمد حكاية مجبولة بالدم والدمع ورائحة الحبق، حكاية أربعة شهداء قد يكتب التاريخ واحداً لا غير منهم، ولن يفطن أحد إلى الثلاثة الباقين.

قالت:

من أكثر من عشرين عاماً تزوجنا... أنا وراضي لم يكن اسمه أبو أحمد حينها، تزوجنا بعد حكاية حب حكى بها أهل سهل الغاب... أخذني غصباً عن الجميع لأنّ أهلي وأهله ما كانوا موافقين، فأنا من ملة وهو من ملة أخرى، همست لي وهي تقترب من أذني وعيناها خائفتان سامع لما ستقول: أنا سنيّة وهو علوي...

ونظرت في عيني لتعرف صدى كلامها في نفسي، لم يصدمني اعترافها، كثيرة هي الحالات التي تشبه حالتها، كنا نعيش متجاورين متحابين شركاء في المأكل والمشرب والسوق والأرض، وقلة هم الذين كانوا يقفون عند علاقة الزواج... الحرب هي التي شقت الشمل. قادتها هم من شقوا هذا الجرح المندمل ليجري من جديد وانتشلني صوتها من شرودي وهي تتابع:

انتظرني عشر سنوات وأجبرنا الجميع على الموافقة... قال لي سننجب عشيرة من الأولاد وكنت أحب الأولاد أكثر، ولكن الله لم يأذن لا في السنة الأولى ولا الثانية ولا الثالثة، لم نترك طبيبا ولا شيخاً ولا ولياً، ولا مزاراً إلا وزرناه وقدمنا له النذور، والدعوات والتضرعات، خمس سنوات مرت... كان أبو أحمد الله يرحم روحو يحب الأزهار والورود ويهتم بها كما يهتم الأب بأطفاله، وكرمى لعينيه

وجدت نفسي أعشقها، وكانت أرض دارنا تقارب الدونم، كلها زرعتها له أزهارا من كلّ الأنواع، وسورتها بالزنبق وسقفتها بعرائش الياسمين، كنا نربي أزهارنا ونهتم بها وندللها ونشمها بل ونقبلها، وكأنها أطفال من صلبنا، وكل وردة لها اسم وكم كنت أحدثها وتحدثني، أصبحت دارنا جنة مليئة بكل أنواع الزهور، الأزهار لها روح وتفهم على الإنسان.

انشغلنا بها عن الولد فترة... وتنهدت أم أحمد وصمتت طويلاً دون أن أجرؤ على مقاطعتها، وتابعت متحسرة:

ولكن لا شيء يعوض عن الولد، وذكروا لي شيخاً في جبل بعيد لا تصل إليه إلا الطيور الطائرة، ودون أن أخبر أبو أحمد ذهبت إليه وكان الله قد وضع سرنا عنده أخذت له ذبيحة كما قالوا لي وما مر شهران ألا وكنت حاملا بعد ست سنوات من زواجي، وولد أحمد...

وصمتت من جديد وحين نظرت إلى وجهها كانت دمعتان كبيرتان تحملان حرقة جارفة، تهبطان على خديها اللتين بقعتهما الشموس الحارقة عبر مسيرة عمرها، وتنهدت متابعة:

كان أجمل من كل الأزهار في دارنا، وكانت كلها تغار منه حتى أن بعضها ذبل ومات من غيرته، هكذا الأولاد يغارون من بعضهم... حين بدأت المظاهرات كان حمودي في العاشرة من العمر، وحين خرج أبوه إلى عمله آخر مرة، لم يكن قد تجاوز الحادية عشرة، قبّله أبوه وقال له "دير بالك على أمك أنت الرجل من بعدي" وكأنه كان يعرف أنه لن يعود... وإلى اليوم لم يعد ولا نعرف عنه شيئاً قالوا انه اختطف من عصابة، وقالوا اعتقل وقالوا مات، لا أعرف... سنة وأحمد يسألني عن أبيه وأنا أقول له سيرجع يا ولدي سيرجع...

مع غياب أبو أحمد بدأ كلّ شيء يذبل في حياتنا، وأول ما ذبل

ابتسامة أحمد، وضحكاته التي كانت تملأ الدار فرحاً.. ثم بدأت الجنينة، راحت أزهارنا تلوي أعناقها، وكأنها أحست باليتم، في البداية ظننت أن قلة الماء هي السبب، وخاصة حين بدأت المياه بالانقطاع بعد تدمير خطوط الري ولكني كنت اشتري الماء، وأسقيها لكن هذا لم يجد نفعاً، كلّ صباح كنت أقرا في ألوانها التي تهت يوماً بعد يوم سؤالاً ملحاً مكرراً: أين أبو احمد؟ وخاصة الحبق كان الحبق من اختصاصه الله يرحم روحو إذا مات وإذا عايش الله يرجعو بسلامة.

وفي أحد الأيام عاد احمد إلى يحمل كيساً اسود وقال:

- احزري ماذا اشتريت لك يا أحلى ماما؟

قلت له وأنا استكشف شكل الكيس:

- ماذا؟

- شيء يحبه بابا كثيراً وسيفرح به حين يعود وأنت تحبينه أيضا... احزري ما هو؟

ومن الرائحة المنبعثة من داخل الكيس شممت رائحة "أبو أحمد" وقلت له مازحة:

- عجزت... فتح الكيس وكانت هذه...

ومدت يدها إلى الحبقة وقربت وجهها منها، ظننت أنها ستشمها ولكنها راحت تقبلها، ودموع غزيرة تتساقط مع شهقاتها المخنوقة راحت تنهمر على أوراقها الناعمة.

تفاصيل حكاية أم أحمد كانت تحفر في قلبي، تشتعل في دمي الذي أحسه بخاراً يتقاطر من عيني، ولكن بقي السؤال يشدني لحكايتها، أين ولدها أحمد؟

حدقت في عيني، وكأنها قرأت ما يجول في خاطري.

- كان أحمد بلا أرجل لو كانت له أرجل لركض من تحت البرميل ولكن أنا السبب.. أنا السبب.

جمدت جملتها الأخيرة لساني، أحمد بلا أرجل؟... أنا السبب؟؟؟ ماذا تعني؟

وبعد جهد استجمعت قدرتها على الكلام وتابعت:

- حين سقط البرميل بعد يومين من شراء الحبقة، على الجنينة في دارنا، قطع كل الأزهار، كما قطع رجلي أحمد، مما فوق الركبتين، وزرع جسده بالشظايا...

ترك البرميل لي نصف ولد، حمدت الله ألف مرة، أنه ترك لي نصفه لأن أولاد الجيران الذين كانوا يلعبون معه في الجنينة لم تترك منهم الشظايا ما يكشف عن ملامح الصبي من البنت، درت به كل المشافي الميدانية، وقدراتها محدودة، شكّلها بعض المحسنين ليلجأ إليها الناس البسطاء، والذين لا يجرؤون على الذهاب إلى مناطق النظام خشية الاعتقال، إلى أن عافاه الله، وعلى كرسي متحرك راح يتنقل في أرجاء الدار التي كانت تئن حنيناً إلى وقع خطواته التي لم تكن تهدأ.

قلت في نفسي الحمد لله انه لم يمت، هو قد نجا من البرميل فأين هو؟

ومرة أخرى وكأنها تقرأ أفكاري تلك المرأة الغريبة، ثبتت عينيها الدامعتين في وجهي وقالت: في المرة الأولى نجا لأنه كان يملك ساقين، وهرب أمتاراً عن البرميل، ولكن في المرة الثانية كان عاجزاً عن الهرب، لم يستطع الحركة وهو يراه نازلاً من الحوامّة فوقه، كنت في السوق أنا السبب، لو كنت هناك لأخذته، وهربت، كنت في السوق، وحين رجعت لم أجد منه قطعة أستطيع أن أودعه منها... وانخرطت في نحيب مرير، وأكثر من امرأة كانت تمر أمام الخيمة دخلت علينا

محاولات تهدئتها دون جدوى، وحين راحت تنتفض أمامي كطائر ذبيح لم يعد أمامي إلا أن استدعي لها صديقي طبيب المعبر الحدودي؛ ليحقنها بإبرة مهدئة...

*****

رأيت أم أحمد بعد ذلك اليوم أكثر من مرة كانت تحضنني وتقبلني بحرارة، أم وكنت أشم رائحة أمي، ورائحة الحبق تفوح من صدرها،

شاهدتها مرة قرب صهريج لتوزيع الماء على النازحين، كانت تحمل إناء صغيراً، أصغر من المتوقع سألتها مازحاً:

- أليس عندك أكبر منه. قالت مبتسمة:

- يوجد ولكن هذا يكفي لسقي الحبقة أنها عطشانة، ولو كان أكبر سأنتظر في الطابور طويلاً، **والحبق لا ينتظر**.

قلت لها:

- اشربي أنت، ولك عليّ أن أوفر لك ماء الحبقة كل يوم.. وأوصيت من يتكفل لها بماء الحبقة يومياً إذا ما شغلت عنها.

ومرت شهور لم أرها، كانت قد انتقلت كما علمت إلى مخيم جديد، تشكل نتيجة تضاعف النازحين، يبعد قليلاً عن نقطة استقبال اللاجئين التي شكلناها، ورغم مشاغلنا الكثيرة قصدت ذلك المخيم باحثاً عنها.

عرفت من الإدارة أنها تسكن مع بعض أقاربها الذين كانوا في ذلك المخيم، وحين وصلت خيمتها قالوا إنها مريضة، قلت لهم أن يخبروها باسمي، وما إن دخلوا حتى فوجئت بها تركض نحوي من الداخل، وشدتني من شعري معنفةً إياي، معاتبة على تقصيري في زيارتها، بينما كان أقاربها يحدقون بالمشهد مستغربين وبعيون مليئة بالإشفاق تابعوها، وخاصة حين كانت تناديني باسم أحمد بدل اسمي، قادتني

للداخل، والغريب الذي لم أفهمه أنها كانت تبتسم، وابتسامة كبيرة ومريرة وهي تقول:

- مالك خبر؟ مالك خبر؟ تعال لفرجيك وشدتني من يدي

وأشارت إلى زاوية الخيمة وقالت أنظر شوف... راحت...

في الزاوية قرب فراش ووسادة رأيتها، كانت في إصيصها الأسود تمد فروعها الناعمة، لكنها عارية من الأوراق تماماً بل كانت يابسة أيضا. وتابعت:

- شفت راحت الحبقة ماتت، وتركتني... كلهم استشهدوا وتركوني... أحمد راح لعند أبوه... والحبقة لحقتهم وبقيت أنا...

لم أكن لا أنا ولا الحاضرون نملك لغة نرد بها عليها إلا لغة الدموع...

*****

كتبت في دفتري:

ما أكثر الشهداء الذين يسقطون من كتب التاريخ! من سيفطن إلى حبقة في حرب، استشهدت عطشاً، واستشهد بموتها قلب أم كانت تتنفس من رائحتها أرواح الراحلين.

*****

متى ستنمو أصابعي؟

عصافير أم صبية تمرحُ؟
أم الماء من صخرة ينضحُ؟
عليها سناً من غدٍ يلمحُ
وأقدامها العاريهْ
محار يصلصل في ساقيهْ
لأذيالهم رفة الشمأل
سرت عبر حقل من السنبلِ
وهسهسة الخبز في يوم عيد
وغمغمة الأم باسم الوليد
تناغيه في يومه الأول
عصافير أم صبية تمرح؟
أم الماء من صخرة ينضحُ
فيخضل عشب وتندى زهور

كثيراً ما كنت أتذكر كلمات هذه القصيدة للسياب وأدندن بها في لاشعوري، وخاصة حين كنت أمر بين أولئك الصبية الذين يتقافزون بين الخيام، وضحكاتهم تملأ الدنيا رغم كل مظاهر البؤس والعوز والحرمان التي تنطبع على ملامحهم، ما أصدق بدر شاكر السياب حين كان يتخيل ضحكتهم شلالاً من الفرح، وكان يلمح سنا المستقبل يشع من ملامحهم البائسة، ولكني في ذلك اليوم وأنا أمر وراء خيام إحدى المخيمات وبين مجموعة من الأطفال يلعبون الدحل ويتصايحون إلى درجة الشجار؛ شعرت بكل كلمة في تلك القصيدة

حاولت أن أتدخل لحل المشكلة بينهم قبل أن يتضاربوا، لكن ذلك الطفل الجالس وحيداً بعيداً عنهم لفت نظري فاتجهت إليه، لم يكن يتجاوز السابعة، وكان معه إبريق ماء يسكبه على التراب الجاف من العطش ظننت في البداية أنه يجبل طيناً، ويلعب به كما كنا نفعل ونحن صغار، كنا نبني من الطين بيوتاً ومدنا ونصنع تماثيل ودمى، ولكن لم يكن يجبل طيناً كان يلعب لعبة غريبة وكان مندمجاً في لعبته إلى درجة أنه لم يرني، وأنا اقترب منه وقفت وراءه أراقب لعبته الغريبة... كانت كفه مغروسة في التراب بشكل عمودي إلى ما فوق الأصابع، وقد أحاطها بحفرة كتلك التي تكون حول الأزهار حين نريد سقايتها وكان بين آونة وأخرى يسكب الماء في الحفرة حول أصابعه، وينتظر الأرض العطشى حتى تبتلعه، ثم يعاود السكب من جديد وينتظر وعيناه مثبتتان على كفه المغروسة في التراب إلى أن يجف الماء من جديد ثم يعاود الكرة

ماذا يفعل هذا الصبي أية لعبة يلعبها هذا الصغير؟

لم أتمالك نفسي أنا الواقف وراءه من السؤال الذي أجفله وكأنه فوجئ بوجودي:

- ماذا تفعل يا حلو؟ ودون أن ينزع كفه من التراب التفت إليّ مندهشاً ثم وضع إصبعه اليسرى على فمه لأن اليمنى مشغولة بلعبته، وكأنه يطلب مني السكوت. صمت قليلاً ثم قلت له:

- أريد أن العب معك هذه اللعبة الجميلة

وفاجأني بقوله:

- أنا لا العب أنا أقوم بتجربة.

سألته مستغربا:

- تجربة؟

- نعم معلمة العلوم في المدرسة علمتني إياها وأنا أجربها، وعاد إلى التحديق بكفه وهو يسكب عليها الماء من جديد. وسمعته يتمتم:

- يمكن الآنسة كذبت علينا. سألته:

- هل أستطيع أن أساعدك

نظر إلى عيني مستجدياً وهزّ رأسه موافقاً، دون أن يغير جلسته، قلت اشرحلي التجربة التي تقوم بها وأنا سأساعدك وهو يحدق بيده، راح يشرح لي:

قالت معلمة العلوم إنّ البذور إذا دفناها بالتراب وسقيناها فإنها تنبت، وتنمو صح؟ قلت له: صح وقالت إذا أخذنا غصن من الوردة وزرعناه فانه ينمو ويعود، كما كان وردة كبيرة صح؟

قلت له مجارياً: صح قال بعناد: لا ما صح من ساعة وأنا أجرب، ولم تنبت أصابعي

لم افهم للوهلة الأولى ماذا قال، وحين انتزع كفه اليمنى من التراب وشهرها في وجهي ذهلت، فهمت، وتمنيت لو أني لم اسأله كانت أصابعه الأربعة مبتورة، ولم يبق من الكف سوى راحتها...كثيرة هي الإعاقات التي شاهدتها في الناجين من الحرب، وكثيرون هم الأطفال الذين فقدوا أعضاء، ولكن كف ذلك الطفل انغرست في قلبي كالسكين حين شهرها في وجهي.

- لماذا لم تنبت أصابعي؟ لماذا كلما سكبت عليها الماء في التراب تؤلمني؟ أنا أحتمل الوجع ولكنها لم تنبت معلمة العلوم كذابة؟ وترك في كلمته الأخيرة نبرة سؤال حائر.

وحين لم أدر جواباً قال لي وهو ينظر إلى رفاقه الذين يتابعون لعبهم:

- أريد أن العب معهم بالدحل ولكنهم طردوني، قالوا لي حين تنمو

أصابعك ستلعب معنا، كيف العب بلا أصابع؟ حتى المعلمة غضبت مني حين رأتني اكتب باليد اليسرى، وأنا طالب مجتهد، وحين أخبرتها أن اللعبة التي وجدتها في الشارع انفجرت في يدي، وطيرت أصابعي، راحت تبكي وقالت ستنمو أصابعك بإذن الله

وفجأة راح يبكي ويسأل بسؤال متكرر:

- لماذا قطعت أصابعي؟ لماذا قطعت أصابعي؟ وشعرت انه يوجه السؤال إلى عيني الدامعتين.... المعلمة كذابة؟

ماذا أقول لك يا صغيري هذه الحرب فجرت ملايين الأسئلة التي تشبه سؤالك ما عدنا نعرف من الصادق ومن الكاذب ولكني أعرف أن الصادق الوحيد فيها هو الألم، والأصدق هو ألمك أنت، وآلاف الأطفال الذين سيتابعون حياتهم بصحبة عاهاتهم الدائمة، سامحني يا صغيري فأنا أصغر من أن أجيبك....

*****

كتبت في دفتري تلك الليلة:

لم أستطع أن أجبك يا صغيري حين كانت عيناك تسكب ألمها في عيني.. ولربما أكون أكثر صدقاً وتعبيراً مع هذا الورق....

آه لو تدري يا صغيري كم تمنيت أن أفقد نعمة البصر كي لا أرى كلّ هذه الوحشية التي تمارس على سطح هذه الكرة الأرضية بين من سموا أنفسهم بني البشر وتقنعوا باسم الإنسانية...

آه لو عميت، وما رأيت كيف يحولون أطفالهم حطباً لديمومة معاركهم...

آه لو تعرف يا صغيري كم أتمنى أحياناً وليست قليلة أن أفقد عقلي كي لا أعي كلّ هذا الجنون البشع الذي يحصل، أتمنى ألا أعي ألا أعرف فقد أنهكني ما أرى، وما اعرف، وما أعي.

أنتم يا صغيري لا تعرفون ما الذي يحدث حولكم، لستَ مع أو ضد، ولكنكم تدفعون الثمن أكثر من الجميع، فالشيخ الذي بترت يده قد يعيش ألمها بضع سنوات بقيت من عمره، أما الأطفال فقد ترافقهم شبابهم وشيخوختهم وكهولتهم

الأطفال في كل العالم هم الوحيدون الذين لا ذنب لهم في كل الحروب، وهم أكثر من تحرقه هذه الحروب....

هذا الذي يرمي طفلاً بصاروخ، هذا الذي يلقي من طائرته قنبلة على شكل دمية، هل لديه أطفال ينتظرون عودته محملاً بالهدايا والدمى؟.

أي قلب يمتلكه؟ والأجدر بالسؤال: هل لديه بين ضلوعه قلب؟ ومن أي حجر هذا القلب إن وجد؟

كم كنت أمام ألمك قزماً، وصغيراً يا صغيري.

كم يؤلمني هذا الشعور بالعجز وينتقص من إنسانيتي، وأنا أقف مشلولاً عاجزاً عن إزالة ألمك، وألم كل طفل كائناً من كان، إصابته شظايا الحروب المجنونة

ما أصعب أن نقف عاجزين! ليس بأيدينا إلا أن نحزن، أو نبكي كالنساء، أو نشجب، وندين، ونستنكر بينما يواصل الكبار لعبة القتل دون مبرر.

يقتلني العجز حين أعجز عن تامين ملاذ آمن للصغار أمثالك، ملاذ بعيد عن رعب الحروب فيه شيء من الدفء والنوم القرير....

هل تعلم يا صغيري حين كنا صغاراً في عمرك وعمر أترابك؛ كنا نتمنى أن نكبر ولكن حين كبرنا عدنا نتمنى أن نعود صغاراً كي لا نشعر بكل هذا الألم الذي نراه ونقف أمامه مكتوفين عاجزين.

الكبار هم الذين دمروا الوجه الجميل لهذه الحياة وأنتم يا صغيري أجمل ما في وجهها الجميل.

آه كم أتخيل كوكباً خاليا من الكبار كل ما فيه أزهار وفراشات وأطفال!

آه لو ينتهي دورنا نحن الكبار في هذه الحياة لنغادرها فنحن من جعلها رماداً أسود في عيونكم، وعلى رؤوسكم

إنها الرابعة وخمسة عشر دقيقة فجراً وأنا اكتب إليك، أنا أتألم بهدوء بصمت وبلا دموع، لم اغضب، ولم أحطم زجاجاً.

لكني أتساءل عزيزي القارئ:

هل يشعر بألمك، بحزنك، بضياعك أحدهم؟ سيكتفون بالمشاهدة فقط...

شعورك حين تسمع صرخة مولودك الجديد شعور أكبر من أن يكتب.

ربما كان شعور أبيك بقدومك أكبر من شعورك بقدوم ولدك.

هل فكرت يوماً بشعور من يقوم بقتل طفل، وهو ينهي مهمته مسرعاً ليعود إلى طفله الذي ينتظره محملاً بألعاب وحلوى يحملها إليه؟ هل فكر بشعور الأم التي قتل طفلها، وهو يلاعب طفله في حديقة الأطفال؟ كيف يجمع بين رصاصة في صدر الآخر، وفرحة في صدر طفله؟

كيف نقتل بأبشع الطرق ونحاول أن نفرح؟

*****

يوماً بعد يوم تصبح المأساة أكبر من تصوراتنا أكبر من خططنا..

ذات يوم وبعد حالة الفوضى في دخول وخروج الجرحى إلى تركيا حاولت مع بعض الأصدقاء، وطبيب متطوع تشكيل ما يشبه نقطة ارتباط وتوثيق للمصابين الداخلين إلى المشافي التركية من معبر الإنسانية المجاور للمخيمات، وكان هدفنا هو ألا يفقد ذوو المصابين التواصل مع جرحاهم فكنا صلة الوصل بين المشافي وأهل المصابين لكن حجم العمل كان أكبر من تخيلاتنا، ودفتري أضيق من اتساع جراحهم، فخلال بضعة أشهر وثقنا بضعة آلاف، منها بضعة مئات مجهولو الهوية وبلا مرافقين.

ما أصعب تلك اللحظات التي كنت أرد فيها على استفسارات الأهالي المفجوعين!

ليلاً طفل يتصل بي:

- عمو بابا... بخير؟

- بخير يا حبيبي الصبح سيتعافى إن شاء الله.

وقبل الصباح يأتيني خبر موته، ويتصل الطفل من جديد

- عمو بابا ما رجع؟

- .....

وهنا تعجز الكلمات، ويوماً بعد يوم وجدنا أنفسنا عاجزين عن الاستمرار في مكتبنا.. أهيم على وجهي في الشوارع أتأمل واجهات المكاتب..

- مركز..... لرعاية الأيتام

- مكتب المفقودين.....

- مركز كراسي طبية للمعاقين

- مركز أطراف علوية وسفلية...

- مركز.... للسفر والهجرة
أبحث طويلاً دون أن أقرأ لافتة بعنوان
- مركز الأمل لعودة اللاجئين
يبدو أن قصتنا موغلة في المجهول

*****

القبر الغريب

رحلت حتى المقابر التي كنا نحلم أن تجمع رفاتنا بمن نحب؟

حين رأيته لأول مرة في مخيم استقبال اللاجئين؛ توجست منه خيفة قال لي: إنه يبحث عني، وقد أرشدوه إليّ وقالوا له: أنني أستطيع مساعدته.

تأملته بحذر، الحذر الذي كنا نتعامل به مع كلّ القادمين من مناطق سيطرة النظام، كان في الثلاثين من العمر، قصيراً، ضامراً غائر الخدين، وكأنه قادم من مجاعة، حفر التعب، والإرهاق حول عينيه تجاعيد داكنة وسيكارته لا تفارق زاوية فمه حتى وهو يتكلم. سألته:

- بم أستطيع أن أساعدك؟

- في العثور على أمي... منذ أربعة أيام وأنا أبحث عنها دون جدوى... افترقنا من تسعة أشهر، ولم أستطع التواصل معها يبدو أنها فقدت رقم هاتفي، لكني أعرف أنها وصلت إلى هنا.

- من قال لك: إنها هنا؟ ولماذا خرجت لوحدها، ولم تخرج معها؟ كيف تترك أمك تخرج لوحدها إلى المناطق المحررة، وتبقى أنت في مناطق النظام...؟

ربما كانت لهجتي معه في ذلك اليوم قاسية، خاطبته وكأنه عميل مندس من قبل أمن النظام، أرسلوه ليوافيهم بما يحدث على الحدود وأسماء العاملين على خدمة الناس هناك، وربما ليسجل الأحاديث التي تدور هنا... وما هذا بغريب على أمن النظام فقد كشف أكثر من شخص هنا كان يعمل لصالحه، ينقل إليه معلومات، ويرسل إليه

مواقع لقصفها، رغم أنه قد لا يحتاجها غالباً؛ لأنه يقصف بشكل عشوائي.

ندمت فيما بعد على ظني به، وإنّ بعض الظن إثم.. لم يرد يومها على أسئلتي المتهمة بل نكس رأسه ليحجب عني عينيه اللتين اغرورقتا بالدمع واكتفى بقوله:

- معك حق... ولكن إذا عرفت قصتي قد تعذرني يا أخي... هل تستطيع أن تساعدني في إيجاد أمي؟

انسكب انكسار صوته في حنايا صدري، وشعرت بإشفاق يسري في عروقي نحوه، غيرت نبرة صوتي معه وقلت:

- هل راجعت المسؤولين عن المخيمات؟

- من أربعة أيام وأنا اسأل

- والله لا أخفيك الأمر ليس سهلاً، وخاصة أنها لا تحمل هاتفاً، هنا يوجد في تجمع الكرامة أكثر من ستين مخيم في كل مخيم مئتا خيمة.

- نعم وهناك تجمعات أخرى في قاح وأطمة تتجاوز المئة مخيم.

- لا بد أن أجدها سأبحث المخيمات خيمة خيمة، لا بدّ أن أجدها من تسعة أشهر و 18 يوم وأنا أحلم أن أصل إلى هنا.

واستفزني الرقم من جديد فسألته:

- ولماذا تأخرت كل هذه الفترة

- والله يا أخي حكايتي طويلة وإذا شرفتني في خيمتي سأحكي لك كل تفاصيل حكايتي. ودفعني الفضول إلى وعده بزيارة له مساء.

*****

استقبلني أمام خيمته مرحباً مهللاً، ورفض إلا أن أدخل باب الخيمة أمامه حيث تقف امرأة منقبة، قدمها إليّ أنها زوجته، وطفلة خائفة تتطلع بي بفضول، وحين حاولت أن أداعب شعرها هربت، واختبأت وراء أمها التي رحبت بي ثم خرجت لتحضر لنا الشاي كما طلب منها زوجها، لكني رفضت بشدة متذرعاً باني لا اشرب لا القهوة ولا الشاي، لأني أعرف سوء حال الناس هنا... لم يكن في الخيمة زيادة على الأثاث الذي سلّم لهم إلا حقيبة ضخمة وحين رآني أحدق بهما قال بنبرة متحسرة:

- خرجنا من دنيانا التي شقينا فيها طول عمرنا بثيابنا.

قلت مواسياً:

- المهم سلامتكم يا أخي، الحمد لله على السلامة

قال بنبرة عالية:

- لست نادماً والله على شيء، مال الدنيا للدنيا، كل ما أريده ويشهد عليّ ربي أن أجد تلك العجوز... أمي

- سنجدها إن شاء الله اللهم إذا كانت هنا.

- أول ما خرجت من حلب خابرتني، وقالت أنا صرت في منطقة اسمها أطمه وبعدها لم نستطع التواصل. وقبل أن استفسر أكثر تنهد قائلاً حكايتنا طويلة يا أخي وسأرويها لك بالتفصيل... وتناول من زوجته التي لا يظهر منها إلا عينان تشعان من نقاب أسود، وقال نشرب الشاي، وأحكي لك بالتفصيل.

ومع رشفات الشاي، ونسمات ذلك المساء الحارة والجافة راح أبو مريم يروي لي حكاية جديدة من حكايات التشرد والضياع.

*****

قبل أن أتزوج كانوا ينادونني بـ (أبو مريم) نسبة إلى اسم أمي، أما أمي فلم تناديني باسمي قط فمنذ أن كنت طفلاً تناديني أبو صالح، وكان حلمها أن تزوجني وأنجب لها صالح نسبة للمرحوم أبي الذي لا أتذكره، مات وأنا طفل ورهنت أمي شبابها، وهي لم تعد الخامسة والعشرين لتربيتي، أنا ولدها الوحيد ذاقت الأمرين من أهلها، وبيت حميها ولم تتخل عني، وربتني كل شبر بنذر كما كانت تقول، حتى أنها كانت تعمل في البيوت لتؤمن لي تكاليف تعليمي، درست معهداً زراعياً لأختصر عليها طريق عنائها، مع أني كنت مؤهلاً لدخول الهندسة الزراعية في جامعة حلب، تخرجت من المعهد وشاءت الأقدار والأكيد هو رضى أمي، ودعاؤها المتواصل لي في الليل والنهار أن أجد وظيفة طبعاً بعد واسطة كبيرة أصبحت موظفاً في مؤسسة للدواجن، بينما زملائي الذين تخرجوا معي بقوا أكثر من عشر سنوات دون عمل بشهادتهم، وربما لهذا السبب كنت متمسكاً بوظيفتي وأخاف ضياعها مني، ولم أدرك خطئي إلى أن ضيعت أمي بسبب وظيفتي.

تزوجت وسحبت قرضاً على مرتبي، واشترينا بيتاً صغيراً فيه غرفتان، غرفة لي ولزوجتي وغرفة لأمي التي كانت سعادتها تملا الدنيا، وكل صباح كانت تسألني ضاحكة:

- متى ستنجبون لي صالح؟ وأنا أمازحها قائلاً نحن نريد مريم وبعد سنتين أنجبنا مريم، وأشار إلى الخارج مريم التي رأيتها عمرها الآن ثلاث سنوات ولدت في بدايات الثورة وقبل أن تصل الأحداث إلى حلب....

يوماً بعد يوم كان الحصار يضيق على أعناقنا، ارتفعت الأسعار بشكل جنوني، فقدت الكثير من المواد الأساسية وحين بدأ الناس يتذمرون، وبدأت أولى المظاهرات التي خرجت من جامعة حلب

والاحياء الاخرى؛ هبت جند النظام من عرفوا باسم الشبيحة لقمعها، ومنهم من كان في سجونه فأطلق سراحهم مقابل الفتك بالناس المتظاهرين، ولهم كل الصلاحيات ناهيك عن الحواجز العسكرية المدعومة بالدبابات في كل الشوارع والأزقة.....رحنا نسمع كل يوم عن أشخاص يموتون على المعابر؛ وهم يهربون ربطة خبز لعيالهم من المناطق المحررة إلى مناطق سيطرة النظام، المنطقة القريبة من سوق الهال كانت معبراً، خط تماس مرصود بقناصات النظام، ووصلت الحرب إلى حينا انهالت علينا قذائف كثيرة أخطأت بيتنا، ودمرت بيوتاً ملاصقة لنا، واستشهد كثيرون، وهاجر الأكثر إلى مناطق حسبوا أنها أكثر أمناً، عرضت علي أمي ان نترك البلد ونهاجر قالت:

- يا ولدي أنا طلعت من هالدنيا فيك وبنتك خلينا نترك هالبلد

- يا أمي إلى أين سنذهب؟ أجبتها رغم أني كنت أفكر في الهجرة، وخاصة أن شبح سوقي إلى الخدمة الاحتياطية بدأ يرعبني يوماً بعد يوم...

- أي مكان فيه أمان يقولون إن الحرب طويلة.....

كنت أفكر بوظيفتي، الوظيفة التي حصلت عليها بطلوع الروح، كما يقولون هل أضحي بها وهي مصدر دخلنا الوحيد؟ كنت أعزي نفسي واقول: إن هذه الحرب لن تستمر طويلاً، ويجب ألا أتسرع كما فعل الكثير من زملائي الذين تخلوا عن وظائفهم، وهاجروا، منهم من أصبح في تركيا ومنهم من عبر البحر إلى أوربا، ومنهم من أصبح هو وأولاده طعاماً للأسماك في عرض البحار، لم أكن أملك روح المغامرة، خلقت كسولاً لا أحب التغيير، ولا التجديد.

ومع اشتداد وطأة الأحداث وسقوط قذيفة على زاوية بيتنا؛ طارت بنصف المطبخ وجدت نفسي أفتش عن منطقة أخرى أكثر أمناً.

قاطعته سائلاً:

- في مناطق النظام

- طبعاً وكيف سأسكن في المحرر، وأعبر يومياً إلى وظيفتي والمعابر مقطعة بعشرات الحواجز، والسين والجيم، والقناصات التي ترصدك من أعالي الأسطحة، والتي لا تترك قطة تعبر الشارع. قالوا هي قناصات آلية ترصد حركة الدم في الشارع، ولذلك وضع الناس سواتر من القماش وغيره تمنع رؤيتهم حين يضطرون إلى المغامرة بأرواحهم وعبور المعبر.

استأجرنا بيتا بنصف مرتبي تماماً، والنصف الآخر كنّا نحتال عليه بشتى طرق التقشف، والحرمان حتى يوصلنا إلى آخر الشهر، مع بعض المعونات التي بدأت بعض المنظمات الإغاثية بتقديمها لنا، دعك من القلق والخوف والرعب الذي تعيشه زوجتي من لحظة خروجي إلى وظيفتي حتى عودتي،

ووصل الأمر إلى غايته حين بدأت الشائعات التي تقول: أنهم سيستدعون الاحتياطي من الجيش، وسيشمل كل من هم دون سن الأربعين. وهنا جن جنون أمي لم تعد تنام ولا تهدأ راحت تحاول إقناعي ليل نهار.

ما زلت أذكر آخر أحاديثها حين قلت لها:

- يا أمي والله خايف ما نقدر نأمن لقمة عيشنا إذا تركنا الوظيفة.

انتفضت في وجهي وصرخت، وكأني عدت في عينيها ذلك الطفل الصغير الذي لا يعرف أين مصلحته:

- يا بني الرزق على الله مو عليك ولا على الراتب والدولة، الله ماشق فم إلا وكفاه... بكت يومها وقطعت قلبي: حين مات أبوك كنت ابن سنة ونصف ما كنا نملك شيء كنا نأكل من عرق جبينه ومات الله يرحمو، ولكن الله لم يتخل عنا، ما متنا، كان الرزقة تأتينا إلى باب الدار.

وعدلت لهجتها إلى التوسل:

- يا بني برضاي عليك خلينا نرحل خلينا نطلع ع المناطق المحررة كل أعمامك راحوا وأقاربنا راحوا، شدة وتزول، ونرجع.

ثم راحت تبكي وسمعتها تقول: ما بدي أخسرك متل ما خسرت أبوك بأول عمري، ما عاد لي من هالدنيا غيرك وغير أولادك، حرام هاي الطفلة تعيش في هذا الرعب وأصوات الطيران والقذائف الى دمرت مدن جنبنا ولكها صارت قريبة علينا، وزوجتك حامل، وانشالله رح تجبلنا صالح، قذيفة واحدة من صوتها فقط قد تسقط حملها ونخسر الولد... يا ابني هون ما حدا بيعرف شو اللي بدو يصير...

كنت أفكر بهدوء، كل كلامها كان مقنعاً، وكفيلاً بتفكيري في الهجرة إضافة إلى أنّ الوظيفة التي أتمسك بمرتبها ما عادت تكفي أجار البيت، ذلك البيت الذي تنقطع عنه أبسط مقومات الحياة من ماء وكهرباء أغلب ساعات اليوم وأصبح لهما مصروفاً جديداً ما عاد مرتبي يحتمله.

وبدا التفكير بالطريقة التي سنخرج بها من حلب التي أصبحت محاصرة كيف سنعبر حواجز النظام إلى المحرر؟

بدأت التواصل مع أصدقائي الذين دخلوا تركيا، ومنهم من وصل أوربا واتخذت قراري الذي جعل أمي تلك الليلة تطير من الفرح:

- غداً سنحاول الخروج إلى الحدود التركية ومنها سيتكفل بعض الأصدقاء بالخطوات التالية.

كنت أقول في نفسي: **شعور جميل ينتابك وأنت تحزم الحقائب لتغير مكانك وتجدد روحك، ولكن لا أن تحزمها لتتشرد داخل وطنك بعيداً عن كل ما بنيته في حياتك خائفاً من المجهول**. بينما كان أبو مريم يتابع:

- اخترت يوم عطلة وبالاتفاق مع عائلة أخرى من معارفنا، اتجهنا إلى الحاجز الأخير الذي يفصلنا عن المحرر شمالاً، كل ظني أننا أعددنا خطة محكمة تعتمد على هوية أمي التي دُوّن فيها قيد نفوسها في قرية ولادتها شمال حلب

وحين وصلنا الحاجز لا ننكر أن الجندي الذي كانت لهجته بدوية كان مهذباً معنا، وخاصة حين رأى معنا أطفالا ونساء.

قلنا له: إننا اعني أنا وأمي وزوجتي وابنتي ذاهبون لزيارة أهل أمي.

قال: أي زيارة في هذا الوقت يا جماعة؟ المجنون لا يخرج من بيته هذه الأيام.

سحبته جانباً وبدأت أشرح له الكذبة التي ألفتها طوال الليالي الماضية:

أمي كما ترى امرأة مريضة، وأخبروها أن أباها على فراش الموت، ويريد رؤيتها قبل موته ولم تقتنع...

قال: يا أخي أنا معك، ولكن المنطقة كلها تعج بالإرهابيين والقذايف من كل مكان وأنتم معكم أطفال ونساء

أخبرته أني موظف عند الدولة ولن أتأخر أكثر من ساعات في زيارة جدي.

وكأن كلمة موظف التي كنت أظنها ستشفع لي كانت وبالاً علي، إذ تقدم ضابط كان يسمع حديثنا وسألني

- هل أنت موظف؟

- نعم

- وستدخل مناطق الإرهابيين؟

- أحسست باتهام في لهجته، وتابع

- معك جواز سفر؟

- نعم. قلتها دون أن أدري، وهذا كان خطأ كبيراً فجواز السفر هو وسيلتي الوحيدة للخروج إلى أوربا. قال بلهجة آمرة:

- هاتو

- تناوله مني ودون أن ينظر إليه، قال:

- سأسمح للعجوز أن تخرج لزيارة أهلها، وسنترك جواز سفرك عندنا ريثما تعود هي وتأخذه أما أنت فعد إلى وظيفتك، ولا تعرض نفسك للخطر...

كان كلامه حاسماً، ولا يقبل الأخذ والرد وحين رآنا مترددين قال احسموا أمركم وأخبروني.

كنا في موقف لا يحسن فيه التفكير فكرت بسرعة، وربما أخطأت لا أدري.. ربما حبي لأمي وخلاصها من الحالة التي نعيشها هو ما دفعني إلى ذلك، اتخذت قراراً: ستخرج أمي مع معارفنا وسأعطيها رقم هاتفي الجوال لأتواصل معها، ستسبقني إلى الحدود، وسأعثر أنا وزوجتي على مهرّب ندفع له مقابل إيصالنا إلى المحرر، بعد أن أعود وآخذ جواز سفري منهم

وكأنني كنت في حلم أقنعت أمي أن تذهب مع العجوزين، رغم رفضها لكني أخبرتها أني سألحق بها غداً عن طريق مهرب، في طرق صعبة وفيها مشي طويل على الأقدام، وهي لا تستطيع ذلك، قلت لها اخرجي أنت وأخبريني عن مكانك وأنا سألحق بك.

ولم اكتشف حجم حماقتي إلا حين عدت مساء إلى البيت، ووجدت مكانها في البيت فارغاً... وجاءني صوتها ليلاً من رقم هاتف غريب، أخبرتني أنها وصلت مع الأسرة التي خرجت برفقتها إلى منطقة اسمها أطمة وإنها تنتظرني هناك، وكانت المرة الوحيدة التي تتصل بي، اتصلت أنا بالرقم الذي حدثتني منه، أخبرني أن امرأة مسنّة

أعطته هذا الرقم، وطلبت منه أن يدقه لها، وبعدها لم يرها.

لا أدرى، إما أصابها مكروه، وإما فقدت الرقم الذي كتبته لها على ورقة.. وبدأت ألح على الحاجز في طلب جواز سفري، في اليوم الثاني والثالث والرابع رفضوا، وصرفوني بأدب ولكن في اليوم الخامس اغتاظ الضابط المناوب مني، وبدل أن يقول لي: (انقلع) نادى أحد العساكر قائلاً له: خدو واعملوا الواجب حتى يتربا هوي وغيرو...

كانت عدة ساعات في النظارة، وكان منظر الدم على جدرانها كافياً لعدم عودتي ثانية، لكنهم لم يكتفوا، تقاذفتني أيديهم وأحذيتهم العسكرية ساعات بعدد شهور، أما ظهري فما زالت أثر سياطهم فيه إلى اليوم ولو لم أكن موظفاً لما أطلقوا سراحي.

وتنهد بحسرة ودلى رأسه بين ركبتيه حتى ظننته يبكي، وكعادتي لم ألح عليه إلى أن سمعته يقول تسعة أشهر وأنا محاصر في حلب، يشهد على ربي لم أترك وسيلة للخروج، ولم أفكر بالحصول على جواز سفري الذي تركوه رهينة عندهم حتى تعود أمي، وما زال عندهم حتى الآن.

تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً لم أفلح خلالها بالخروج، إلا منذ أربعة أيام وبعد أن دفعت للحواجز والمهربين أكثر من ألف دولار ثمن كل ما كنت أملكه حتى أساور زوجتي، وخاتم زواجنا أعطيتهم إياه حتى وصلنا إلى هنا عبر طرق مسكونة بالموت، والدمار، وأشلاء المعدات العسكرية والسيارات المحترقة.

لم يكن حديثه جديداً علي، وربما كان فيه شيء من المبالغة، ولكن حين أراني أثر السياط التي تركت خطوطاً كالحروق السوداء على ظهره قررت أن أساعده قدر استطاعتي.

*****

عشرة أيام مرت دون أن نعثر على أثر لمريم، درنا كافة التجمعات اتصلت بكافة الأصدقاء الذين يعملون معي وبجميع الأبواب، خطؤنا أننا كنا نبحث عن امرأة اسمها مريم، بينما كان لها اسم آخر على باب المخيم، اسم اختارته هي لأن المرحوم زوجها كان يناديها به، ولم تسمع أحدا يناديها باسم مريم هذا ما أخبرني به ولدها حين لقيته على تلة عقربات آخر مرة ذلك المكان الذي يطل على كافة المخيمات حتى على بلدة الريحانية التركية، كان يجلس في نهاية كل يوم من أيام بحثه الطويل بين آلاف الخيام يمسح التجمعات بعينيه:

وهو يقول:

- لا شك أن أمي في واحدة من هذه الخيام التي أمامي ولا بد أن أجدها غداً.

وحين رأيته آخر مرة قال لي:

- لقد وجدتها

قالها وكان قاعداً على تلك التلة، جامعاً ركبتيه إلى صدره وقد أسند ذقنه إليهما لم يرفع إلي سوى عينين دامعتين وأنا أقول مبتهجاً:

- حقا وجدتها؟ أين هي؟ متى؟

وبصوت كأنه آت من دهاليز بعيدة، مسكونة بألم عتيق راح يكمل لي حكايته التي بدأها بالخيمة

- منذ أيام، لم تكن بعيدة عنا كانت هناك.

وأشار إلى خيام قريبة تصطف على جانبي شارع عريض

- البارحة مساء عدت كعادتي خائباً من مخيمات، دون أن يذكرها لي أحد هنا جلست كعادتي على هذه التلة، أبحث عن مكان جديد؛ لأبحث فيه غداً ومن مكاني هنا رأيت جنازة... جنازة فقيرة عرفت فقرها من عدد الذين خلفها بضعة رجال وثلاث نساء لا أكثر... لا أدري لماذا

خفق قلبي وراءها، ربما لفقرها ربما لأن روحها كانت تبحث عني بين المشيعين القلائل خلفها، وجدت نفسي أهبط التلة راكضاً نحوها حين وصلت كانوا يتجهون بها إلى الباب الرئيسي نحو المقبرة التي أعدوها لمن لا مقابر لهم، شممت رائحة أمي، أقسم لك كانت رائحتها التي أعرفها من ثلاثين عاماً تفوح من المقصورة الخشبية التي تعلو أكتاف الرجال، سألت امرأة باكية تتعثر خلف الجنازة محاولة اللحاق بها.

- جنازة من هذه

المرأة الوحيدة التي أعطتني الجواب الذي كنت انتظره من آلاف الناس الذين سألتهم قالت:

- امرأة مقطوعة فقيرة يا حسرتي عليها

- ما اسمها

- مريومة

هذا الاسم الذي كنت ابحث عنه الاسم الذي كان بيت جدي ينادونها به عرفت لماذا لم يكن أحد يعرفها حين كنا نسأل؟ كنا نسأل عن مريم.

وصرخت دون أن أدرى وربما وصل صوتي إلى آخر المخيمات:

- أمي أمييييييي... هذه أمي..

وتجمد الرجال الذين يحملون التابوت، وقفوا، وحين رأوني أقفز لأصل إليه انتحوا جانباً وأنزلوه.

- دعوني أراها.... توسلت إليهم: هي أمي... وبين حوقلاتهم وعيونهم المشفقة تقدم رجل ملتح مني، وهو يقول وكلّ الله يا بني، له ما أعطى وله ما أخذ تعال لتتأكد، وحين أزاح طرف الغطاء الذي يستر وجهها رأيت ذلك الوجه الذي كنت أحلم برؤيته من تسعة أشهر، كانت أمي، شعرت أنها فتحت عينيها نصف المغمضتين ورمتني بابتسامة عاتبة حنونة..

همست لها: أمي هذا أنا استطعت الوصول إليك لن أتركك
أحسست بها تقول: تأخرت يا بني فات الأوان
صرخت متوسلاً: أمي جئتك بولدي صالح كي تريه صالح ولد صالح
لكنها لم تفتح عينها شدني الرجل الملتحي طالباً من الصبر
*****

رفع أبو صالح إلي عينين دامعتين وهمس:

- وجدتها يا صديقي وجدتها، ولكن بعد فوات الأوان... قالت لي تلك المرأة العجوز التي كانت تتدحرج وراء جنازتها، وكانت جارتها التي عاشت معها شهوراً... قالت إنها انتظرتني طويلاً، كانت عيناها لا تفارق باب الخيمة والشارع المؤدي إلى الباب الرئيسي حتى مرضت من عشرة أيام، ولم تعد تقوى على الخروج إلى باب الخيمة راحت تنام قبالة الباب، ولم يكن بصرها في الأيام الأخيرة يسعفها لتبين ملامح القادمين من الباب البعيد فكانت تستعين بي وتقول كلما رأت شبحاً من بعيد: انظري لي هل القادم من هناك أبو صالح؟ وكانت تتخيل أن كل الناس يعرفون أبا صالح، وكنت أقول لها ضاحكة وهل أنا أعرفه كيف شكله؟ فترد حلو جداً وجانبه بنت مثل القمر اسمها مريم انظري هل ذاك الشاب الداخل جنبه بنت صغيرة؟

وقالت: كانوا يأتونها بالطعام ظهراً فتخبئه، وتقول سأنتظر أبو صالح ليأتي لا شك أنه سيصل اليوم وكم كانت تنام جائعة...

قالت لي تلك العجوز:

لقد تركت أمك عندي أمانة لك وسلمتني تلك الأمانة

سألته بفضول ما هي؟

رفع أبو صالح إلي عينيه الدامعتين ولف بهما المخيمات بهدوء،

وهو يمد يده إلى جيبه أخرج منه قطعة صوف خضراء ورفعها أمام عيني.

- هذه هي الأمانة التي تركتها أمي

- ما هذه؟

وحين فردها أكثر عرفت أنها جورب صوفي من تلك الجوارب التي كانت تنسجها أمي في ليالي الشتاء لأولاد أخوتي.

فرش الجوربين على ركبته، ومسدهما قائلاً: لقد نسجت جورباً وقبعة لصالح قبل أن يولد، قالت لجارتها الشتاء هنا لا شك سيكون بارداً، وستبرد قدما صالح الصغير، أريدك أن تحضري لي أسياخ وكرة صوف؛ لأنسج له جوارب وقبعة.

ورأيت على الجورب بقعاً حمراء راح أبو صالح يتحسسها قائلاً أتعرف هذه النقاط؟ هذه نقط دم من دم أمي، لم يكن بصرها يساعدها، وهي تنسج فكانت تغرس السيخ في رؤوس أصابعها.

ونظر إليّ دون أن يراني، كان يحدق في البعيد البعيد وسألني

- ما رأيك أن اسمي ولدي مريم؟

نظرت إليه مستغرباً وقلت:

- مريم اسم بنت، اسم امرأة، وليس رجلاً، ثم أنّ ابنتك كما أذكر اسمها مريم

قال دون أن ينظر إلي:

- ولكن أمي اسمها مريم وأمي كانت امرأة ولكن بقلب سبعين رجلاً.

صمت حائراً وقد خانتي كل الكلمات ثم قلت محاولاً أن أغير له الموضوع ولكنني لم أوفق أيضاً:

- أين دفنتموها؟

- أين سندفنها؟ وهل نحن المهجرين نملك قبوراً، لو كان الأمر لي

لما دفنتها إلا بجوار أبي كانت تحلم بذلك وكانت تلك وصيتها والتفت إلي وقال بتنهيدة طويلة:

- نحن يا صديقي لم نفقد وطننا الذي كان يجمعنا بمن نحب فحسب؛ بل فقدنا حتى القبور التي تجمعنا بمن نحب. دفنت أمي في قبر غريب، وأرض غريبة... ثم قال برجاء: كل ما أريده منك يا صديقي أن تساعدني في السكن بالخيمة التي كانت تسكنها لعلي استنشق رائحتها فيها...

*****

الاختطاف

(اعمل خيراً وارمه في البحر)
مثل عربي

عجائز قريتنا كنّ يرددن هذا المثل : افعل خيراً وارمه بالبحر، كنت أسمع هذا المثل ولا أعرف معناه؛ حتى جاء ذلك اليوم المرعب من حياتي، يومها لم أفهمه فحسب بل عشت معناه حقيقة وليس قولاً، فأنا خلال رحلة عملي مع الفعاليات والمنظمات الإنسانية والإغاثية في قرى ومدن الداخل السوري التي تعرضت لأعنف أنواع القصف والدمار، وعلى الحدود التي أصبحت مخيماتها أكبر من المدن، ما كنت أنتظر أجراً، ولا شكراً من أحد سوى الله وأعظم أجر كنت أتقاضاه هو تلك الابتسامة التي ترتسم على شفتي طفل، وأنا أمد له يدي بشيء يحبه، أو دعوة عجوز من قلب صادق، وهي ترفع يديها إلى السماء وتقول لي:

- روح الله يحمي شبابك لأمك وأهلك

لكني لم أتوقع أن تكون حياتي التي أعيشها حتى هذه اللحظة مكافأة من شخص ما لا أعرفه مقابل عمل خير بسيط قمت به، ونسيته، وهذا ما حدث معي ذلك اليوم المرعب...

*****

لا أتذكر ملامح ذلك الشخص المنقب الذي كان يرمقني بعينين تفيضان عرفاناً بالجميل... فمن الصعب أن تتذكر شخصاً بلا ملامح، ولم تر منه إلا عينيه

كان يقف على بعد أمتار من البوابة الحدودية التي يدخل منها العابرون إلى تركيا، مرضى، وجرحى وأصحاب عاهات وعاملون مع المنظمات الإغاثية والإنسانية وكنت واحداً منهم....

كنت أنتظر النداء باسمي المكتوب بورقة الضابط التركي المسؤول عن إدخالنا لأدخل، وقبل أن يأتي دوري وصلت تلك المرأة الملهوفة تنوء بحمل ولد، رأسه متهدل على كتفها، ورجلاه مسترخيتان إلى ما دون ركبتها، راحت تحاول إقناع ضابط البوابة بالسماح لها بالدخول.... فهمت من كلامها أنّ الطفل بحاجة ماسة لأن يسعف إلى إحدى المشافي التركية، لكن ضابط البوابة الذي لا يتقن من العربية إلا ما يلزمه لوظيفته المخصصة، وغالباً هما كلمتان يكررهما طوال النهار (مسموح، ممنوع) لم يفهم إلا أنها تريد الدخول، واسمها غير موجود في لائحته فراح يكرر لها بصبر نافذ ومن صدر بدأ يضيق بها:

- ممنوء.... ثم يبذل جهداً ليلفظ حرف العين

- ممنوع....

ثم ينسى نفسه ويصيح بالتركية والعربية:

- يسق يسااااق، ممنوء... ممنوع

كانت الجموع التي تريد الدخول لحالات مرضية اضطرارية كثيرة... وأولئك الجنود الأتراك ليسوا أجلافاً قساة، أو بلا قلوب لكنهم مأمورون بأوامر محددة، لا يستطيعون الخروج عنها قيد أنملة، فكثيراً ما كنت أرى دموعهم المشفقة، وهم يهرعون راكضين لحمل الجرحى إلى سيارات الإسعاف وهم يدعون الله بان ينتقم من الظالمين.

بينما الأم الملهوفة تحاول من جديد أن تشرح له حالة ابنها دون جدوى... والرجل المنقب يتابع بلهفة أكبر حوارهما.

وفهمت أن الطفل مصاب بقصور كلوي ويحتاج إلى عملية غسل كلى، ولو انتظر إلى الغد فقد يموت، وأن المشفى الذي كان يغسل به كليته دورياً قد قصف وأصبح خارج الخدمة، حاولت أن أتدخل لكن صاحبنا كان مبرمجاً كأي آلة وهو يكرر:

- ممنوع. وراح يشرح لي كي أقوم بإفهام المرأة، لأنّ وجهي كان مألوفا بالنسبة له لكثرة دخولي وخروجي من ذلك الباب المعبر الإنساني للمنظمات الإغاثية فهمت منه:

- إنّ العدد المسموح به اليوم خمسون، والعدد الذي خرج في أول النهار هم الذين يحق لهم الدخول، وراح يهز لائحة الأسماء ويكرر

- ممنوع هذه فقط يدخل... مرضى جرحى انتهى الدخول من الصبح

وأمام لهفة الأم، وعيني الأب الذي دفع زوجته لعل قلب الضابط يرق لها كأم أكثر منه كأب، خطرت ببالي فكرة سريعة بادرت إلى طرحها فوراً

قلت له:

- أنا لي اسم في اللائحة، وبما أن العدد محدد سأعطي هذه المرأة مكاني ولتدخل باسمي أنا، وأمام شرح المحيطين بنا لحالة الطفل المريض الإسعافية ممن يجيدون التركية وافق صاحبنا على دخول المرأة بدلا مني...

شطب اسمي من اللائحة، سال المرأة عن الاسم الذي سيدخل... أذكر أنها قالت له عمر... حتى نسبته لا أذكرها...

وبدأت مشكلة جديدة وهي مرافقة زوجها لها، فواضح أنها امرأة

بسيطة لا تعرف كيف تتحرك دون زوجها... وبدأت المحاولات لإقناع الضابط بدخول الأب، ورغم أني أعرف أن هؤلاء الضباط لا يحبون الأخذ والرد وإذا قالوا (يوق) يعني يوق، ومع هذا لم أيئس من المحاولة في إثارة شفقته على الطفل، فرحت اشرح له، وضع هذا الطفل خطير جداً، والأم بمفردها لن تعرف بم تتصرف وأين وكيف

قال لي:

- ما دمت تعمل مع الأطباء أنت ساعدها

قلت له: لو يوجد مشافي أو كهرباء لا أحد يأتي الي هنا، هي ستدخل بدلاً مني وضروري وجود الأب

وبدأ يلين رويداً رويداً

وراح يشرح لي؛ أنه موظف مأمور ولا يستطيع أن يتجاوز الأنظمة والقوانين، ولو فعلها فهذا سيضر به قلت له بحماس:

- إن الله سبحانه وتعالى لن يضرك ما دمت تعمل خيراً لله، وأنه عند الله لا يضيع مثقال ذرة ووو وكدت أن أجلده بخبطة عصماء عن فعل الخير والإحسان؛ لأني شعرت من ألفاظه أنه يميل إلى التدين، فقد سمعته أكثر من مرة يذكر اسم الله والنبي محمد... وحين تمتم بالعربية: لاهول ولا كوة إلا بالله العلي العزيم تابعت إلحاحي قائلاً:

- افعل خيرا وارمه بالبحر..

أعجبته الجملة وقال:

- جدي كان يقول مثل هذا

وراح يستفسر عن معناها.. قلت له:

- هذا مثل شعبي عربي.

قال: أعجبني كتير.

وراح يكرر الكلمات بصعوبة محاولا حفظها

- افأل هاير وارمي ببهر

وكم كانت فرحتي كبيرة وفرحة المرأة أكبر حين أعلن موافقته على دخول الأب اقتداء بقول هذا المثل وربما ظنه حديثاً نبوياً أو آية قرآنية.

وما إن أشار بموافقته حتى صاحت المرأة منادية الرجل الذي كان ينتظر بفارغ الصبر انتهاء مفاوضاتي، فنزع لثامه وتناول الولد من زوجته، وسبقها إلى البوابة الداخلية، لم أحفظ ملامحه، ولكن سمعت صوته الخشن وهو يشكرني ويلح في معرفة اسمي، بينما كانت الأم ترميني بدعوات حارة من قلبها المحترق ألماً على ولدها...

قلت للضابط وأنا أستدير عائداً بعد أن فقدت دوري في الدخول

- اعمل خيراً وارمه في البحر... فكرر مبتسماً

- افال هاير وارميه ببهر

وابتعدت وأنا مرتاح الضمير أشعر بمتعة مساعدة تلك الأسرة، وفي الوقت ذاته أفكر بطريقة لدخولي بعد أن فقدت دوري...

وما هي إلا أيام حتى نسيت تلك القصة في غمرة الأحداث التي نمر بها كل يوم.

وذكر لي بعدها بأسابيع أن رجلا اسمه أبو عمر دخل من تركيا مع زوجته وطفله، جاء يفتش عني على الحدود ولم يجدني وعرفت من زملائي انه يريد السلام علي وشكري على الخير الذي فعلته معه لكني لم اذكر ذلك الخير إلى أن جاء ذلك اليوم المرعب...

*****

ذلك اليوم...

منحنياً كنت ألملم أكياس الفواكه التي اشتريتها حين امتدت قبضة حديدية من خلفي، وجذبتني لتبتلعني سيارة صفق بابها عليّ،

وفرملت مزمجره وانطلقت كذئب التقط فريسة ومرق كالبرق... كل ذلك حدث بطرفة عين...

كنت مع أخي الأكبر، والذي اعتقل في سجون النظام وذاق الويلات هناك إلى أن أفرج عنه بأعجوبة، كان يحاول دائماً أن يرافقني في سفري، وخاصة بعد أن كثرت أقاويل حوادث الخطف التي لا يعرف من وراءها.. مرّ على صباحا، واقترح أن نمضي استراحة في بلدنا مع الأهل، وأقنعني حين ذكرني بشوق أمي إلى لمة أسرتنا التي لم تجتمع على مائدة واحدة منذ سنوات....

ركبت جواره في سيارته واتجهنا إلى مدينة معرة النعمان.... ومع ظلمة المغرب كنا على جسر مدينة سراقب حيث نثر بائع فواكه صناديقه منتظراً رزقه من السيارات العابرة... قلت لأخي

- ما رأيك ان نشتري بعض الفواكه؟ وافق مباشرة وقال:

- انزل ريثما أصل إلى الكازية القريبة وأملأ السيارة بالبنزين...

ما هي إلا دقائق حتى كنت أرتب الأكياس على حافة الطريق بينما كان البائع على بعد أمتار مني يعيد ترتيب بضاعته، حين امتدت تلك القبضة وابتلعتني سيارة انطلقت كسهم تاركة الفواكه التي تساقطت من يدي تتدحرج على عرض الطريق...

فجأة وجدت نفسي في سيارة صالون شبه مظلمة، وبلمح البصر رفع أحدهم قميصي وألبسه لرأسي، بينما أمسك آخر بذراعيّ وقيدهما بوحشية للوراء، وطرحني على المقعد وامتدت يد تفتشني من رأسي إلى قدمي ولم تعثر إلا على محفظة جيبي التي تحوي بطاقتي الشخصية وبعض النقود...

في الثواني الأولى لم أدرك ما حدث، اختنقت حتى صرختي، بينما كان قلبي يدق صدري بعنف كأنه يريد أن يطير منه كل جسدي كان

يرتجف بل كان ينتفض، وفي أذنيّ كان طنين قوي يدور براسي كله... لحظات وبدأت أدرك رويدا رويدا أنني قد اختطفت... وحين مرقت السيارة فوق مطب يعترض الطريق شعرت أنها طارت في الهواء ثم ارتطمت بالأرض، وكأن من فيها ارتطموا بالسقف، بينما كدت أنا المقيد أن أسقط خارج المقعد، صرخ أحدهم بالسائق:

- خفف السرعة راح تروحنا خلص صرنا بعيدين

وبدأت السيارة تهدئ من سرعتها في الوقت الذي بدأت اسمع فيه الأصوات من حولي:

- أنت متأكد أنه هذا هو باعتقادي أننا أخطأنا، شكلو مو الشكل اللي خبرنا عنه الشيخ...

رد صوت آخر فيه حدة:

- أنا متأكد هادا هوي أنا شفتو أكتر من مرة على الحدود بالمخيمات، والشيخ قال أشقر وعيونو زرق ويحمل على ظهره شنطة أنا راقبته على الحدود وتابعتوه معي إلى جسر سراقب...

نحره صاحب الصوت الأول:

- ولك هادا عربي مو أجنبي خود شوف هويتو أسمو حسن، بعدين معو هوية مدنية.

كنت أحاول أن استجمع صوتي لأرد عليهم، لأصرخ في وجوههم:

ماذا تريدون مني؟

ولكن لغطهم كان أقوى من صوتي الغائر في حلقي

لا شك أنهم ظنوا من لباسي، وربما من شعري الأشقر أنني أجنبي، وأرادوا اختطافي؛ ليحصلوا على فدية كبيرة وهذا ما قاله أحد الأصوات:

- شكلوا أجنبي يحمل هوية سورية، يمكن مزورة، هادا ممكن نقبض عليه كومة دولارات

كنت أعرف أن سحنتي وشكلي، وطريقة لباسي توهم الكثيرين في نسبي، الكثير من الناس حين يرونني مع فريق أجنبي يظنونني منهم وربما كان هذا سبباً في اختطافي ثلاث مرات، ولكل مرة حكاية ومنهم كانت تكاد تفصل رأسي عن جسدي...

لم تكن لهجتهم غريبة عليّ بل هي لهجة قريبة من لهجتنا المحلية، لا شك أنهم من أولاد المنطقة.

وانطلق صوتي فجأة، فصرخت بكل قوتي

- من أنتم شو بدكن مني؟

أجابني صاحب الصوت الحاد ساخراً

- ما بدنا منك شي بدنا نستضيفك عندنا كم يوم وبعدين نبيعك لأهلك.

دوت الجملة في دماغي (نبيعك لأهلك) وقفزت إلى مخيلتي صورة أمي حين يأتيها خبر اختطافي.... وتذكرت أخي الذي ذهب ليملأ وقودا للسيارة لا شك أنه الآن قد عاد، واكتشف إنني لست في انتظاره على الجسر سيسأل عني بائع الفواكه، ولكن هل رأى البائع السيارة التي اختطفتني، ربما نعم وربما لا لأن كل شيء حدث بلمح البصر حتى أنا لم انتبه للسيارة التي وقفت ورائي، وأنا أرتب الأكياس، لكن أخي لا شك أنه سيرى تلك الأكياس المبعثرة، وخاصة التي أفلتها من يدي وتبعثرت فواكهها على الطريق، سيعرف أن سيارة مرت، واختطفتني، لكن ماذا سيقول لأهلي؟ ماذا سيقول لأمي؟

أحسست بالسيارة تخرج عن الطريق العام، انعطفت إلى اليمين وكأنها دخلت في طريق كثير الحفر، راحت تتعرج يمنة ويسرة حتى ارتطم رأسي بزجاج النافذة المجاورة أكثر من مرة مما اضطر السائق إلى تخفيف السرعة ومن جديد سألني أحدهم:

- ماذا يعمل أبوك؟

لم أرد على سؤاله وصرخت به:

- من أنتم؟ أنتم ثوار أم حرامية

قهقه صوت غليظ لأول مرة

- نحن حراميه

بينما أعاد السائل الأول سؤاله:

- ماذا يعمل أبوك؟

- لاشيء

- كيف يعني لا شيء

- كان يعمل بالعقارات

قال صاحب الصوت الحاد

- عقارات يعني بيع وشراء، يعني أبوك عضمو دهب... شي حلو هلق لازم تحكي معو وتقللو يحضر شي مية ألف...

وسأل: مليح ميت إلف؟ والا خليهن 200 ألف، مبين عليك مدلل وغالي على أمك.

إذن لقد اختطفني لصوص، قطاع طرق، ولا يهمهم من أنا؟ وماذا اعمل؟ همهم أن يحصلوا على الفدية...

ورحت أتخيل كيف سيعذبونني لإجبار أهلي على الدفع... فكرت أن اسألهم عن زعيمهم لأتفاهم معه، ولكن من خلال كلامهم لم أكتشف من هو الرجل الأهم بينهم؟ من هو قائدهم؟ كلهم كانوا يتكلمون معاً وبصوت واحد، وكل واحد منهم يعلو صوته على الآخر، لم اكتشف صوتا بينهم إذا تكلم يأتمر بأمره الآخرون... طلبت أن يفكوا قيد يدي لأنه يكاد يحز لحم معصمي، لكن لم يأبه أحد لطلبي.

قال أحدهم انت دائماً تدخل من معبر انت مع صحفيين ولا منظمات

قلت: لماذا خطفتموني والله انا ماني مع حدا لكن عملي كله مع منظمات إنسانية

قاطعني أحدهم:

- منظمات إنسانية لمين؟ للنظام؟ وتعمل مع الصحفيين كمان؟

وقال آخر: منظمات إنسانية؟ يا عيني أنتم كلكم حرامية تسرقون المعونات وتبيعونها.

ورد آخر

- مو بس هيك، ويقبضون رواتبهم بالدولار

- وهدد ثالث متوعداً والله رح تدفع كلشي قبضتو بالدولار، والله أنتم لصوص الثورة، أنتم سرقتم دم الناس، وهنا لم اعد احتمل وقعت كلماته كالسوط على أذني فصرخت بكل قوتي:

- خسئت نحن شباب الثورة، ورجالها، وأنتم لصوصها أنتم الذين تخطفون الناس لتحصلوا على الفدية، لتكدسوا أموالا من أرواحهم، أنا من ثلاث سنوات أعمل متطوعا ودون مقابل لا بالليرة ولا لدولار، أساعد الناس والمحتاجين تحت البرد، والمطر، والثلج، والقصف.

توقعت أن ينهالوا على بالضرب وأنا أشتمهم ولكن الذي فاجأني صوت ذلك الرجل الذي توقعت أني اسمعه لأول مرة:

- إذا كنت هيك سنتأكد حين نصل إلى الشيخ، وان كنت كاذب فيا ويلك.

وغير لهجة خطابه إلى الجميع: أظن أنو مو هاد الشاب المطلوب

- الشيخ حدد لنا هاي المواصفات.

- على كل اقتربنا نصل.

وكأن السيارة دخلت بلدة متعرجة الأزقة، فكانت تنعطف من منعطف إلى آخر إلى أن وقفت، سمعت صرير باب حديدي وهو يفتح لتعبره السيارة بهدوء

ومن شفافية اللقميص الذي لثموني به لمحت تلك الدار الواسعة التي دخلتها السيارة وأغلق بابها خلفها ثم راحوا ينزلون، تركوني في السيارة مقيداً، وأغلقوا الأبواب علي، ثم راح وقع إقدامهم يبتعد إلى أن عم الهدوء المكان، وكأنني مرمي في مقبرة مهجورة.

وفي تلك الظلمة المرعبة بدأت شياطين الرعب تدق في صدري، وأنا أتخيل طرق التعذيب التي سيجبرون بها أهلي على دفع الفدية....

تخيلت أشياء كثيرة غريبة وعجيبة من كثرة ما سمعت عن حوادث الاختطاف، تخيلت أن يدلوني بحبل من فتحة صغيرة إلى بئر مهجور رطب، ثم يضعون حجراً على فوهة البئر، وكل يوم يرمون لي برغيف من الخبز نتصارع أنا والجرذان على أكله، ثم ينزلون لي هاتفا لأتصل بأهلي، وبأمي تحديداً لأطلب منها أن تبيع كل أملاك أبي وترسل لي الفدية المطلوبة.... وتخيلت أنهم قد يتفقون على المكان الذي ستترك فيه النقود، وكيف سيطلبون ابتعاد أهلي عن المكان ثم يأخذونها، وينسونني في الجب أموت جوعاً، وربما تأكلني الجرذان المتوحشة التي تعيش هناك... وبدأت استغيث بالله وأتلو كل الدعوات التي أحفظها أن يخلصني من هذه المصيبة، ثم أتذكر مسترجعاً كلامهم في السيارة وأحاول أن استخلص هويتهم هل هم قطاع طرق؟ هل هم لصوص؟ أو هم ثوار يبحثون عن شخص ما وشكوا بي؟ قالوا سيعرضونني على الشيخ أي شيخ هل هو كبير العصابة أو قائد عسكري لفصيل من فصائل الثوار؟ وسرت رعشة باردة في جسدي وقد خطر سؤالاً آخر ببالي: هل يعقل أنهم من جماعة النظام؟

وسيسلموني له؟ لا شك أن الموت سيكون أرحم وأنا الذي سمعت عن المعتقلين في سراديبه ماذا يحل بهم.

وأحاول إن أرتب أفكاري، كيف سأقابله؟ بأي حديث سأبدأ؟ وقبل أن أصل إلى أي خطة لكلامي في تزاحم أفكاري المتلاطمة سمعت باباً حديديا يفتح بعنف ووقع أقدام ثقيلة تدق الأرض، وكأنها راحت تدق صدري ثم جاء صوت رجل خشن يسال بغضب:

- أين هو؟ الله يخرب بيتكن

وقبل أن أسمع رداً فتح باب الصالون السحاب مصدراً صريراً كبوق إسرافيل، وسُلّط ضوء مبهرٌ على جسدي المكوم في المقعد، ومع كلمة:

- هذا هو.. صرخ الصوت الخشن:

- اكشف وجهه. ومع الضوء المبهر الذي انغرس في مقلتي لم أر أحداً لكنني سمعت الصوت الخشن يتلفظ بشتيمة مزلزلة:

- يا بقر يا جحاش يا أولاد الـ.....

وانقض عليّ وراح يفك قيدي ويتابع بذات الصوت:

- أستاذ حسن؟ ولك هادا الأستاذ يا حيوانات... حسن تعال تعال وانكب على معانقاً

ما عدت قادراً على فهم شيء، وهو يقودني من كفي عبر ظلمة ساحة الدار، ولم أعد أفهم ما يقول من كلمات، وحين أصبحنا داخل غرفة رأيت وجهه.... حدقت في عينيه.. عيناه ليستا غريبتين على لكنهما ممتلئتان بالاعتذار... وحين هتف رجل بكلمة:

- عمي أبو عمر... تذكرت عيني ذلك الرجل الذي كان يراقبني بعينين متلهفتين وأنا أحاور ضابط البوابة.

عانقني من جديد وهو يقول:

- يا سواد وجهي منك يا ابن أخي. والتفت إلى من حوله:

- يا كلاب أرسلتكم لتقبضوا على جاسوس عسكري، عويني على الحدود، فجئتم لي بمن أنا مدين له بحياة ابني عمر...

وحضنني وهو يقول بصوت متهدج: كرمال الله سامحني يا بني. وحين أزاحني عن صدره رأيت في تلك العنينين اللذين تذكرتهما دمعتين ثقيلتين تزحفان نحو لحيته المخضبة بالشيب.. لكني لم أكن أملك من وقع المفاجأة أي كلمة لأقولها...

تخيلت وجه الضابط التركي يقول لي:

- افأل هير وارمه ببهر

فتنهدت من أعماقي وقلت:

- الحمد لله، افعل خيراً وارمه بالبحر

*****

كتبت في دفتري:

صفحة الاختطاف ليست صفحة شخصية تخصني، بل هي صفحة من أكثر صفحات الحروب سواداً بشكل عام، والحرب السورية بشكل خاص، ففي تلك الحرب، وفي ليل الانفلات الأمني وغياب القانون المحاسب انتشرت الكثير من العصابات، والأكثر انطلقت من حضن النظام ومن أيام المظاهرات الأولى حين أطلق العنان لشبيحته ليعيثوا فساداً بين الناس؛ مقابل قمع التظاهرات، ويوماً بعد يوم شكلوا عصابات خطف منظمة؛ لوعت الآلاف ليجمعوا الملايين من الليرات، ثم الدولارات مقابل عدم قتلهم

للمخطوفين.. هي تجارة من تجارات الحروب، تجارة الأرواح بشكل مباشر.. وهناك من تاجر بأرواح الناس بشكل غير مباشر فتستر وراء أسماء مؤسسات إنسانية براقة، وراح يتسول بها باسم أولئك الناس المشردين في العراء، فتاجر بلقمة عيشهم، والغطاء الذي قد يقيهم حر الصيف وقيظ الشتاء وجمع من ورائهم أكداساً من الدولارات.

وقد عرفت خلال عملي أشخاصاً كثر من هذا النوع المتقنع بقناع الإنسانية، والأدهى أن بعضهم جاء متقنعاً بالدين، فقد عرفت شخصياً من كان يتستر بلحيته مستغلاً طولها، ومحفظته المليئة بالدولارات والريالات ليندس إلى شهواته الشخصية، وكأن تلك المخيمات متاجر يشتري منها ما يشبع حيوانيته البهيمية، فيفتش عن قاصرات معوزات مرميات في الخيام؛ ليتزوج منهن مدعياً الستر عليهن، وعلى كتاب الله وسنة رسوله، ناشرين بذلك زواج القاصرات الذي استفحل في مخيمات اللجوء نتيجة العوز والحرمان.

أذكر أني أهديت مرة لعبة لطفل في الثالثة عشرة، وأخرى لأخته التي تصغره بسنة واحدة، وحين التقيت الطفل بعد عام تذكرني وقال بحزن:

هل تريد لعبة أختي لقد تركتُها في البيت....

لم أجرؤ على سؤاله: أين ذهبت اختك؟ خشيت أن يقول لي: إنها ماتت لكنه قال:

- لقد تزوجت...

شعرت بغضب شديد، وقصدت خيمة الأم، وحين سألتها لم فعلت هذا

ابتسمت ببرود وقالت:

- زواج البنت سترة لها.

- لكنها طفلة صغيرة.

- لقد زوجت أخواتها الثلاث قبلها في مثل سنها.

وانخرطت في حديث طويل، لم يقنعني حرف منه، فقد سمعت مثله كثيراً عن الفقر والحاجة وأولاد الحرام... بعد سنة أخرى لقيت ذلك الطفل وأخبرني أنه يريد لعبتين لابنتي أخته وراح يشرح لي:

إن أختي تركها زوجها، وسافر إلى بلاده البعيدة بعد أن أنجبت منه توءمين...

وربما لم يقتصر هذا على الأفراد، بل قامت به دول باسم مخيمات النازحين السوريين، ودول تدعي العروبة والإسلام، وبعضهم أغلق الباب في وجه النازحين الفارين من الموت في الوقت الذي فتحت فيه بعض الدول الأوربية أبوابها وأحضانها لهم...

ملعونة تلك الحرب ففي الوقت الذي تجد فيها من يعمل ليل نهار دون مقابل فقط لإرضاء الله وإنسانيته، ويحتمل المشقة والشتائم، ويعرض نفسه للموت أحيانا.. تجد فيها في الطرف المقابل من يراها متاجر ستدر عليه الملايين، وسوق نخاسة يشتري منها جواريه التي تشبع غرائزه...

*****

شموس غارقة في الطين

كتبت في دفتري:

حين تراها من بعيد تحسبها رايات زرقاء، تعلن استسلامها لزرقة السماء في وجه القدر... وحين تقترب أكثر تراها خياماً تمتد على مرمى البصر، تترنح أمام ضربات الريح..... وحين تدخلها تدرك أنها أحضان تنبض وجعاً، تحاول أن تلفّ بدفءٍ شحيحٍ آلامَ الإنسانية الجريحة...

هي أحضان تلم شتات أولئك الذين كانوا يعيشون رتابة حياتهم، يكدحون طوال النهار ليعودوا إلى ظلّ سقفٍ، ربما قضوا حياتهم حتى رفعوه، **وإذا بالحرب في لحظات تهدم كل ما بنوه في سنوات.... لم** يجدوا مكاناً يفرون إليه بأرواح أبنائهم قبل أرواحهم إلا تلك الرايات الزرقاء المستسلمة للقدر الظالم.

*****

كانت ليلة غدّارة غدرت بهم كما غدر كل أمان في حياتهم، حتى سماء نهارها لم تف بصفائها الذي كان يبتسم لهم من وراء وشاح غيوم كاذبة البياض...

قبيل المساء من ذلك اليوم التشريني طلبت منا النقطة الطبية أن نقوم بإيصال دواء وللحاجة الماسة إلى ابنة شهيد اسمها أمل... مبتورة الساق حديثاً في مخيم مجاور على خاصرة الجبل.

كان علينا أن نقطع بسيارتنا سبعة كيلومترات على طريق ترابي خطته عجلات السيارات خلال شهور الصيف، يبدأ مستقيماً ثم

يأخذ بالصعود نحو تلك الجروف المتدرجة فوق بعضها البعض على سفح الجبل الحدودي، والتي تلاصقت عليها خيام تخفق بآلاف الأرواح الشاردة.

لم تكن السماء حين انطلقنا تنذر بتلك الليلة المرعبة، كانت موشاة بغيوم خفيفة، ورويداً رويداً بدأت كتل سوداء هائلة ترتفع من جهة الجنوب والغرب، كتل ترسم أشكالاً أسطورية لوحوش عملاقة داكنة السواد، وكأنها خارجة من عمق التاريخ تتمطى نحو قبة السماء لتتلون رؤوسها ببقايا الشمس الهاربة فتبدو كأنها ألسنة لهب تتطاير مطاردة بقايا النهار.

قلت لرفاقي: هل ترون ما أرى؟

قال أحدهم: لا شك أنها عاصفة قوية.

وقال آخر: كأن الليل ينقض منها. وقلت في أعماقي: الله يستر يا رب ارحم أولئك المشردين في العراء

بلا ستر ولا غطاء.

وكأن أشجار الزيتون والتين والسرو المزروع على جانبي الطريق قد أحست بالخطر القادم، فراحت تنتفض هلعاً وكأنها تحاول التملص من جذوعها الهرمة لتولى الأدبار هاربة.

حاولنا مضاعفة سرعتنا كي نصل قبل العاصفة التي تقتحم السماء بجنون مريع، وكأنها قد أرسلت أمامها أنفاسها على شكل رياح عاتية..

قلت في نفسي: **أولئك الذين يسكنون الخيام كل شيء يغدر بهم حتى السماء**.. إلى أين سيفرون من هذا الغضب الزاحف إليهم، **هم كأشجار الزيتون قدرهم أن يواجهوا تلك الرياح، ولكن شتان بين جذور الزيتون، وأوتاد تلك الخيام** التي تتهاوى أمام أول نفخة للريح...

سبقنا العاصفة إلى بوابة المخيم الذي كان يمور في حركة دائبة،

وقد استشعر الناس الخطر القادم من الجنوب، الجميع في حالة استنفار وهلع، رجال يتصايحون وهم يتفقدون أوتاد خيامهم، ويثقلون أطرافها بأكوام التراب والحجارة، ونساء تتراكض هنا وهناك، تتلاعب الرياح بثيابهن الطويلة، وتكاد تطير بهنّ وهن يجمعن أولادهن من بين الخيام، عجائز وشيوخ يقفون على الأبواب يصيحون بالعابرين أن يدخلوا بينما الظلام بدأ يلف زرقة المخيم، وتناثرت أضواء شحيحة هنا وهناك وبدأت مداخن المدافئ ترسل دخانها كعفاريت لعوبة تتلوى في وجه الرياح الباردة التي راحت تعزف صفيرها على حبال الخيام.

وكأن السماء كانت متواطئة معنا فما إن دخلنا الخيمة التي نقصدها حتى كانت زخات المطر قد بدأت طرقها العنيف على سطوح العوازل.

استقبلنا أم الفتاة المقعدة في فراشها، وهي تمطرنا بوابل من الشكر والدعاء متمازجاً في الترحيب وإعلان العجز عن مكافأتنا، بينما عيون الفتاة المتدثرة حتى عنقها تفيض عرفاناً بالجميل، وألماً، وقد حشرت أجساد أخوتها الثلاثة قربها وهم يمدون نحونا رؤوسهم الصغيرة، والغائرة بين أكتافهم، وكأني سمعت أسنانهم المكشرة تصطك من البرد...

راح صوت المطر الذي ينهمر بعنف على سطح الخيمة يطغى على صوت الأم التي كانت ترجونا أن نستريح قليلاً، ومع إلحاح صوت المطر وإلحاحها وجدنا أنفسنا عاجزين عن الخروج.

سألتها عن الفتاة وصحتها وبصوت عال كأنه صراخ راحت تشرح لنا حكايتها:

- مسكينة أمل كانت في المدرسة...

ألف مرة قلت لها يا بنتي بلا هالمدرسة يا بنتي ما في أمان.. الموت بكل مكان وهي تقول: مستقبلي مستقبلي.. أي مستقبل؟ ليش بقي بلد لحتى يكون إلنا فيها مستقبل؟ ما عاد لي في الدنيا غيرها وغير هالأطفال بعد استشهاد المرحوم... لكن روحها متعلقة بالمدرسة كانت طالبة بكالوريا ومن الأوائل قالت: لو بدي أموت لازم أروح..

تذكرت ذاك الطفل الذي كان يقف على باب مدرسته يحلم أن يكون مهندساً معماريا ليبني الوطن ويرفض أن يكون جندياً أو قائداً لأنه رآهم يهدمون الوطن، وخلال الحلم باغتته القذيفة، فمات وبقي الحلم مكفنا في حقيبته المدرسية.

ووجهت حديثها إلى وكأنها أدركت من عيوني تأثري بدموعها:

- يا بني الموت سهل، لكن العجز أصعب من الموت.

سألتها وماذا حدث بعد ذلك؟

قالت: الساعة الثامنة صباحاً مع موعد دخول البنات إلى المدرسة جاءت الطيارة وقصفت على باب المدرسة، ربك ستار كان أغلبهم قد دخلوا وصاروا وراء السور لولا ثوان لكانت مجزرة، أكتر من مائة بنت كانوا على الباب، قدر الله ولطف قصفت أربعة صواريخ على الباب حفرت حفرة أكثر من عشرة أمتار، واجهات المحلات التي في الشارع كلها طارت ووقع قسم من السور، وكان نصف أمل تحته ونصفها الآخر يستغيث أخرجوها من فم الموت، إحدى ساقيها بقيت تحت الركام والثانية مثل العجينة من أعلى الفخذ...

ولمع برق أضاء الظلمة الباهتة بوهج يخطف البصر، وسمعت المرأة تقول:

- أشهد أن لا إله إلا الله، اللهم استرنا من هذه الليلة.

ولمحت لحظتها في عيني الفتاة دمعاً يترقرق في غوريهما، وصوت

ضعيف همست ترجو أمها أن ترسل في طلب ابنة خالتها لتحقنها بإبرة مسكنة للألم، وردت السماء على همسها بدوي رعد مرعب، وكأن السماء رمت حمولة جبال راحت حجارتها تتدحرج فوق المخيم، وصرخ الأطفال بصوت واحد وتكوروا فوق أختهم التي صرخت:

- يا لله دخيلكم رجلي. بينما أسرعت الأم تبعدهم عنها وهي تقول:

- لا تخافوا يا ماما لا تخافوا.

رد أحدهم برعب:

- ماما أجوا الطيارات؟

- لا يا حبيبي هادا صوت الرعد والمطر هذا رحمة من الله...

فتكور كقط مرتعب في حجرها ودفن رأسه في صدرها وفتحت السماء أنهاراً محملة على أجنحة رياح عاتية راحت تلطم الخيمة بعنف جنوني.

سألت المرأة وأنا أرى تمايل الخيمة تحت ضربات الإعصار:

- هل تفقدت الخيمة من الخارج يا خالة؟

أومأت برأسها أي نعم وقالت:

- أهل الخير ثبتوها.. الختايرة من العصر قالوا لما رأوا الغيوم القادمة من القبلة أن عاصفة قادمة.... انتبهوا

ومع أصوات المطر والريح راحت أصوات الناس تتعالى في الخارج وكان القيامة قد قامت عياط، صياح، صراخ، استغاثات، أدعية

- هات الجاروف

- يا أهل الخير ساعدونا المياه أغرقت الخيمة

- امسك الحبل ياولد شد حتى أدق الوتد

- يا الله فرجك يا الله

- احفر حوالي الخيمة

- افتح ساقية للماء....

وفتحنا باب الخيمة رغم الرياح الشديدة كان المخيم كله أرضاً، وسماء، بشراً، وخياماً يضج بالحركة والهلع والصياح، وثمة سيول تنحدر معربدة من الجروف العالية والأودية المحيطة... وأشباح الناس حول الخيام مع مصابيح البطاريات في كل مكان وكأنهم خلية نحل.

الجميع كان يعمل، وما يكاد أحدهم ينتهي من تثبيت وتد أو شد عازل حتى ينطلق إلى أقرب صوت يطلب المساعدة، ودون أن ندري وجدنا أنفسنا بين الناس نفعل معهم ما يفعلون ندق أوتاد خيمة هنا تكاد تطير، ونحول مجرى ماء هناك.

ومن إحدى الخيم المجاورة جاءنا صوت استغاثة:

- يا ناس غرقنا

كانت الخيمة تكاد تهوي في مجرى السيل الذي يلطمها بشدة يريد اقتلاعها وفي الداخل كان ذاك الشاب المدد لا يستطيع الوقوف.. رأيت ساقه المثبتة بالجبص الأبيض من أعلى الحوض حتى أخمص القدم، وقد بدأت المياه التي تسربت إلى الداخل تحيط به، وهو مشلول مقيد في الجبص، لحظتها تخيلته أخي الذي رقد شهورا في هذه الوضعية بعد إصابته في المظاهرة، وبدأت أنا ورفاقي بمحاولة إبعاد السيل عنه بينما كان الناس في الخارج يحولون مجرى الماء بعيداً، ويقومون بشد الأوتاد التي كادت أن تقتلع.

قال عجوز يعمل بجواري:

- بحياتي ما شفت متل هالمطرة من سبعين سنة

ويرد آخر يمسك مصباحاً بين أسنانه يمر ضوؤه عبر لحية طويلة تهطل كمزراب، وهو يضرب الأرض بمعولة بحدة:

- هذا غضب من الله، هذا غضب من الله،

ويرد آخر من عمق الظلمة بغضب:

- يا شيخي أي غضب اتق الله بهؤلاء الأطفال الذين يغرقون في الطين... وقبل أن يتحول الحوار إلى مشادة بينهما، فتحت امرأة باب خيمة فاندفق الضوء مع استغاثتها وهي تنادي:

- يا أهل المروة المرأة ستموت انجدونا. ودون أن أدري اتجهت إلى مصدر الصوت

كانت امرأة مسنة تسد باب الخيمة بقامتها ما إن رأتني حتى قالت:

- بدنا سيارة يا بني الله يوفقك بدنا سيارة.

- خير يا خالتي

- كنتي من الرعبة رح تولد...

ولم أدر جواباً تخيلت أسرة داهمتها المياه... حريقا قد اشتعل، ولكن لم أتخيل أن امرأة يمكن أن يأتيها المخاض في هذه اللحظات وتابعت العجوز مخاطبة امرأة اقتربت منها:

- المرأة حامل سبع شهور ويمكن ما صار وقتها ومن الرعب ستسقط نريد إسعافها ستموت هي والولد

وتدفقت نسوة نحو الخيمة وقالت لها أحداهن: كنتك بالشهر الثامن مع بنتي ما حان وقتها..

- من الرعبة يا أختي من الرعبة.

وقبل أن أفكر بإحضار السيارة، تذكرت أنه من المستحيل أن تمشي سيارة على ذلك الطريق الترابي المنحدر نحو النقطة الطبية، فما كان مني إلا أن استدرت انتظر ماذا يحدث ولكن في نفس اللحظات سمعت صرخة وليد تشق العاصفة بقوة الحياة.

حدثني مرة أحد الأطباء العاملين في أحد المشافي أن نسبة الولادات في المخيمات كبيرة جداً ولأسباب كثيرة منها الرغبة بتعويض

من قتلتهم الحرب وأحياناً الرغبة في استعادة الاسم من فم الموت إنهم يصارعون الموت بطريقتهم وضحك يومها ذاك الطبيب وقال: وربما من قلة الشغل.

بقيت العاصفة مستمرة لأكثر من ساعة، ثم بدأت تتقطع ما بين كرّ وفرّ تهدأ رويداً وكأنها تسترد أنفاسها ثم تغير من جديد على تلك الخيام بقوة أكبر.

كانت المياه تنقط من رأسي إلى قدمي ولم أعد اشعر حتى بقدمي في حذائي الممتلئ بالمياه، والمثقل بالطين.. رحت أبحث عن رفاقي وقد بدأ الناس يهدؤون، ووجدتهم قد تجمعوا في السيارة وهم يحاولون إشغال الصوفاج لكنه كان معطلاً حاولنا أن نعصر ثيابنا لنخلصها من أكبر كمية من المياه المخزنة فيها، لكن البرد كان قارساً حتى أننا فكرنا بمغامرة النزول إلى مخيمنا قبل أن نموت من البرد.

وكأن ضوء السيارة قد لفت أنظار الناس إلينا بعد أن بدأت العاصفة بالتراخي، وإذا بزجاج النافذة ينقر علينا، ورجل أنيق يتدثر بمعطف يدعونا للنزول إلى خيمته وما كنا نحتاج إلى إلحاح كثير منه.

اصطحبنا إلى خيمته وهو يعتذر منا نيابة عن الناس الذين انشغلوا عنا بمصائبهم.

ما إن دخلنا خيمته حتى هب علينا دفء حنون، وكم كانت سعادتنا كبيرة حين عرفنا أنه يملك مدفأة كاز، كدنا نحضنها من بردنا، وعلى وهج الدفء راح النمل يسري فيّ من رؤوس أصابعي حتى أصابع رجلي، تخلصنا من ثيابنا الخارجية ونشرناها ثم رحت استطلع تلك الخيمة التي لم انتبه في البداية لغرابة محتوياتها...

ثمة سبورة بيضاء متسخة متآكلة الأطراف معلقة على صدر المكان، ورسوم طفولية لفواكه وطيارات ودبابات علقت على

الأطراف، وبجوار السبورة حيث جلست كانت علبة بلاستيكية فيها أقلام متنوعة أغلبها مأكول الأطراف، ورأيت في الزاوية أكداس كتب ودفاتر، استأذنت مضيفنا ومددت يدي إلى إحداها كان دفتراً رسمت فيه أزهار وأطفال وطيارات ومدافع كما شاهدت ألعاباً صنعت من علب السردين وأشياء مهملة لكنها مشبعة بالخيال... وقبل أن اسأل كان صاحبنا قد عرف ما أريد:

- أنا مدرس، اسمي عبد اللطيف... قلت مستغرباً

- وهل هذه مدرسة؟

- تقريباً وضحك ضحكة حزينة وتابع:

- نعمل واجبنا ضمن المتاح.

وعرفنا أنّ مضيفنا مدرس كبير كان يعمل في ثانويات دمشق وحين أعلن تعاطفه مع الثورة بدأ يستشعر خطر الاعتقال، وقبل أن يطوقوا داره بليلة واحدة كان قد خرج هارباً نحو المناطق المحررة، ومنها وصل إلى الحدود ليغادر إلى تركيا لكنه تراجع عن قراره في اللحظة الأخيرة.

أذكر مما قاله تلك الليلة:

السعادة ليست محددة بمكان لتذهب إليها، السعادة تتخذ بقرار، أنا استطعت أن أتخذ قراري بالسعادة وجدتها هنا حين رسمت ابتسامة على حزن قلوب أطفال هذا المخيم. صمت قليلاً ثم راح يشرح:

حين وصلت إلى هذا المخيم أصبحت على تماس مباشر مع حجم الجرح، هذا الجرح الذي أسرني هذا الجرح المفتوح اتساع الوطن فتح عيني على حقائق كثيرة أولها: إيماني بأنه من الخيانة له أن أتركه وحيداً، وأهاجر لأستمتع برخاء العيش والأمن والسلام وما يتوهم أنه

سعادة في أوربا. حين عايشت الأطفال الحفاة العراة هنا، وقد تركوا مدراسهم، وقبور آبائهم، وجدت من العار أن أتركهم مختاراً كما تركهم آباؤهم مرغمين أمام قهر الموت، أكبر خيانة أن ارحل بعلمي عن هذا الطفل الذي سيبقى جاهلا بعد أن دمرت مدرسته، ما كان أمامي من خيار إلا أن أحول هذه الخيمة الخاصة بي إلى مدرسة يتجمع فيها كل أطفال المخيم أعلمهم، والعب معهم، طيلة النهار، يذكرونني بأحفادي الذين تركتهم تحت رحمة الحرب، والنظام ولم أجد حتى الآن طريقة لإخراجهم من دمشق، أشعر معهم بالدفء حين يتدفقون إليّ صباحاً وهمهم الأول أن يتحلقوا حول مدفأة الكاز هذه، لأن أغلب الخيم لا مدافئ فيها وإن وجدت مدفأة حطب، فالحطب رطب ولا يشتعل ويهدد دخانه بخنقهم أو حرقهم في أية لحظة... فهنا إما أن يموت الطفل الهارب من الحرب برداً او حرقاً أو خنقاً بالدخان...

وبينما كان الأستاذ عبد اللطيف يتحدث شردت مع ذاكرتي إلى ذلك الطفل الذي أخرجناه كومة متفحمة من تحت الخيمة التي احترقت بأكملها قبل أن يتمكن أحد من الوصول إليه، قلت: نعم في الشتاء الماضي شهدت حريق طفل.

سألني:

- الذي في مخيم قاح؟

- نعم

- سمعت به لكن لم أعرف كيف حدثت الحادثة حبذا لو رويتها لي لأني مهتم بجمع تلك التفاصيل المأساوية.

قلت وأنا أتذكر ذلك اليوم المؤلم:

- قالوا لنا أنه الطفل الوحيد لأبويه وكانا في شجار دائم فكل المخيم وكل ليلة يجب أن يستمع إلى شجارهما الذي يصل إلى تبادل

الشتائم والضرب، قالوا إن الزوج كان يهددها بالزواج وكانت تعيره بتعلق إحدى فتيات المخيم البائرات به وشيء من هذا القبيل...

- وليلة الحادثة قالوا إن الخلاف احتدم بينهما إلى أن سمعوه يحلف عليها بالطلاق، ويرميها خارج الخيمة، وروت لي جارتهم التي حاولت فض الخلاف بينهما قبل أن يرميها بالطلاق: أن ذلك الطفل المسكين كان يتابع شجارهما ببكائه الذي يملأ الأسماع كل ليلة، وقالت لي:

- حين رمى أبوه أمه خارج الخيمة تعلق بها وحاول الخروج معها حافياً في ذلك الطين الذي قد يغرقه، ولكني منعته وقلت له أنا سألحق بها وأرجعها، بينما أبوه كان قد خرج لا أدري إلى أين قلت له البس جزمتك الجديدة وأنا سأرجع.. قال لي إنها مملوءة بالماء وماما لم تسمح لي بتنشيفها على السخانة وقبل أن أصل إلى أمه على بوابة المخيم كانت الخيمة قد اشتعلت به لا شك أنه أشعل سخانة الكاز ليجفف جزمته فوصلت النار إلى ثيابة ومنها إلى قماش الخيمة...

- سألني الأستاذ ولماذا لم يطلبوا إطفائية

ابتسمت وقلت له: مستحيل...

مستحيل لأني يومها رأيت النار بعيني كانت أسرع من لمح لبصر وهي تلتهم الخيمة التي تتهاوى في ضربات ألسنتها.... ورأيت تلك الأم المطلقة قد عادت مع أصوات الناس، وحاولت أكثر من مرة أن ترمي نفسها في لجة الحريق لولا إمساك الناس لها ورأيت ذلك الأب جالسا فوق كومة الرماد يضرب صدغيه بكلتا قبضتيه وصوت نحيبه لا يزال يحز في قلبي إلى اليوم وقطع شرودي صوت الأستاذ:

- هؤلاء الأطفال هم الضحايا الحقيقيون لهذه الحرب.

تلك اللحظة وكأن القدر كان يتنصت لحديثنا وأراد أن يؤكد ما

كان الأستاذ يقوله حين شقت أسماعنا تلك الصرخة المستغيثة رغم بقايا العاصفة

- يا أهل المروة يا عالم يا ناس مات الصبي.

كنا جميعاً أسرع الناس في الوصول إلى مصدر الصوت وهناك في فرجة الباب ومع انعكاس الضوء المنسكب من الداخل رأيت تلك المرأة. كانت تقف كتمثال جمده الرعب وقد مدت ذراعيها إلى الأمام وفوقهما كانت لفافة طفل دثرته بحرام تتدلى أطرافه، كانت تحدق به، وتصرخ مات مات تكاثر الناس من جديد وأخذوا الطفل من فوق ذراعيها، وأدخلوها قال الأستاذ حين عدنا مرتجفين:

- اعتقد أنه مات من البرد

- من البرد؟ سال أحدنا

- نعم الصقيع هنا يجمد دم الكبار فكيف بالصغار. هذا الطفل عمره ثلاثة أشهر رايته أكثر من مرة في حضن أمه التي تأتي بأولادها كل صباح إلي قبل الجميع يأتون مرتجفين لتقوم هي بإشعال المدفأة لهم، قالت لي أنها لا تفلح في إشعال مدفأتها لان الحطب المبلل مستحيل إشعاله وإذا اشتعل فدخانه يخنق.. ومرة قالت الموت من البرد ارحم من الموت خنقاً بالدخان

وتنهد متابعاً: كان طفلاً جميلاً ما شاء الله كالقمر، لا يشكو من علة لا شك انه مات من البرد

وصمت الأستاذ عبد اللطيف وبدا التأثر على ملامح وجهه حتى تخيلت أن دمعة عميقة تترقرق في أعماق عينية المحاصرتين بالتجاعيد.

صباح اليوم التالي استيقظنا على ما يشبه الزقزقة لكنها لم تكن زقزقة عصافير، وإنما عشرات الأطفال ممن هم دون العاشرة قد

أحاطوا بخيمة الأستاذ يغنون وينشدون، ويتضاحكون، وكان شيئاً لم يرعبهم بالأمس حتى السماء المشمسة كانت متنكرة لكل ما فعلته بهؤلاء الناس وفتح بعضهم الباب وسأل

- أستاذ اليوم دروس وإلا لعب؟

- اليوم عندي ضيوف انتظروني في الساحة

وحين غادرنا تلك الساحة بسيارتنا العالقة في الطين كانوا خلفنا مع أستاذهم بثيابهم الرثة والتي تجمع كل الألوان، أقدامهم عالقة في الطين وأكفهم الصغيرة تلوح لنا مع ابتسامات تعجز تلك الشمس الباردة فوقهم عن دفئها تخيلتهم

وأنا ألوح لهم (**شموساً طالعة من الطين**)

عالم بلا أسماء...

أموات على قيد الحياة

- عثمان سيظهر على التلفزيون مو معقول. عثمان ابني؟

- صرخت أم عثمان غير مصدقة في وجه ابنة الجيران التي نقلت لها الخبر، ثم راحت تؤكده:

- أي والله يا خالتي قالوا خبر عاجل بالأحمر، أنو التلفزيون سيبث مقابلة مع عثمان م ر

صرخت الأم من جديد:

- صح هذا اسم ابني بس أشو اللي أخد عثمان ع التلفزيون؟ وليش بدو يطلع ع التلفزيون

- ما بعرف ردت الفتاة متهربة من السؤال، ولم تذكر سبباً لهذه الام المنكوبة منذ سنة ونصف بفقدان ولدها الذي لم تسمع عنه خبراً.

- وايمت رح تطلع هاي المقابلة يا بنتي؟ أخرجت الفتاة جوّالها ونظرت إلى ساعته وقالت:

- أبوي قال بعد أخبار المسا يعني بعد تلاث ساعات وربع

ثلاث ساعات وربع طويلة الدقائق متراخية الثواني كانت أطول من عمرها الذي كان شقاء بشقاء، كانت أطول من الواحد والثلاثين عاماً التي قضتها وهي تنتظر زوجها الذي اعتقل في أحداث الثمانينات، ولم تسمع عنه خبراً سوى أنه في سجن تدمر، ومنهم من قال أنه مات في المجزرة التي ارتكبت هناك، ولكنها بقيت تنتظر.... كان عمر عثمان

شهوراً، وأخوه أحمد تجاوز السنة بشهور، رهنت عمرها لتربيتهم وتعليمهم حتى تخرجوا من الجامعة لكنهم بقوا بعينها أولئك الصغار الذين يجب أن تطعمهم بيدها، وتستيقظ ليلاً لتتفقد أغطيتهم، وتخاف عليهم من نسمة الهواء، لم يستطع أحمد الحاصل على شهادة في الحقوق الحصول على وظيفة بسبب التقارير الأمنية التي تأتي مع عدم الموافقة؛ لأن اسم أبيه من الأخوان المسلمين، فاضطر إلى السفر للعمل عاملاً مياوماً في لبنان قبل بداية الثورة، ولم يعد يستطيع العودة بعد قيام الثورة خوفاً من اعتقاله على الحدود، وزجه في صفوف الجيش الاحتياطي الذي لم يعد يوفر حتى أبناء الأربعين، وهو مازال في الثانية والثلاثين، بقي معها عثمان الذي لم يغادرها ليلة حتى وهو في كلية الآداب كان يعود مساء للنوم بجوارها.

وحين بدأت الثورة وعلمت أنه تسلل مرة إلى إحدى المظاهرات وألقى قصيدة شعرية ألهبت مشاعر الناس؛ جنّ جنونها تمنت لو أنها تستطيع أن تكبله بقيد حديدي كي لا يخرج ثانية، توسلت إليه كثيراً وبكت أكثر، وكادت أن تقبل أقدامه؛ ليعدها بعدم الخروج ثانية، ثم مرضت وطرحت في فراشها دون أن يدري أحد سر مرضها إلى أن كشفت التحاليل المخبرية أنها مصابة بسرطان عضال، ولم يخرج عثمان ثانية إلى تلك المظاهرات السلمية، لزم فراش أمه التي كانت دوماً تكرر مثلها الشعبي في أذنيه:

- يا بني اللي بيحرقو الحليب بينفخ على اللبن.

- يا بني هادا النظام ظالم، أبوه من قبلو فلح حماه وحلب وجسر شغور.

- وإذا أقسم لها أنهم لا يفعلون أي شيء في المظاهرات فقط ينادون "حرية وسلمية" كانت تصيح في وجهه:

- أبوك اشو عمل يا عمري أنت؟ والله عمرو ما عمل شي ضد الدولة، كان من الأرض للبيت ومن البيت للأرض، كلشي صار أنو

ضيوف آخر الليل طرقوا بابنا، وكانوا مقطوعين، ضيوف الله، ناموا للصبح وراحوا، وتاني يوم اعتقلوا أبوك بحجة أنو عم يلفي الأخوان المسلمين عندو وراح، وما رجع لليوم....

ورغم الوعود القاطعة، والإيمان الغليظة التي حلفها لها على عدم مشاركته إلا انها أرادت أن تربطه بحياة خاصة به أكثر، أقنعته بالإسراع بالزواج من ابنة خالته التي يحبها وتحبه، وضبطته أكثر من مرة يرسل إليها رسائل وقصائد من شعره، لكنه كان يؤخر الزواج منها ريثما يبني نفسه كما كان يقول، قالت في نفسها إذا ارتبط بها، وأنجب منها ولداً سينسى المظاهرات. قالت له:

- يا بني أنا مرة مريضة، وإلي عندك طلب قبل ما موت... بدي أشوف خلفتك

استجاب لها عثمان الذي أخبره الأطباء دون أن يخبرها أنها ستموت، وخاصة أن العلاج الكيماوي لم يعد متوفراً في المناطق المحررة والحصول عليه مكلف جداً...

تزوج من ابنة خالته عبير، وباع مصاغها بعد أيام من زواجهما واشترى الجرعة الأولى لأمه وبعد ثلاثة وعشرين يوماً حان موعد الجرعة الثانية، ولم يكن يملك إلا دراجته النارية فاتجه إلى بازار إدلب لبيعها والحصول على ثمن الجرعة، ذهب ولم يعد.

واختفى عثمان....

والآن تقول لها ابنة الجيران:

- عثمان سيظهر على شاشة التلفزيون

دخلت عبير وهي تحمل رضيعها وقد سمعت اسم عثمان يدور بين خالتها وبين ابنة الجيران وهي تسأل:

- خير خالتي اسمعت اسم عثمان؟

قالت الأم بفرح:

- أي أي عثمان سيظهر على التلفزيون، طول عمره كان يحلم انو يطلع بالتلفزيون، ويلقي شعر ثم تجهم وجهها، وسألت دون أن تنظر إلى أحد

- بس وين كان؟ أكيد كان بلبنان عند أخوه أكيد صار شاعر كبير متل ما كان يحلم، ورح يطلع يلقي شعر على التلفزيون.

وحولت نظرها إلى ابنة خالته التي عشقها سنين طويلة، وقالت وهي تضحك وتبكي:

- أكيد كتب إلك شعر حلو ولأبو عثمان – وأشارت إلى الرضيع – شعر أحلى.

مرّ دهر على الأم والكنة إلى أن حانت ساعة ما بعد الأخبار وكانت المولدة الكهربائية جاهزة خوفاً من انقطاع الكهرباء.

انتهت نشرة الأخبار التي لم يسمعوا منها إلا أن الجيش العربي السوري يدك معاقل الإرهابيين على امتداد ساحة الوطن، من الشمال إلى الجنوب ومن الصحراء على البحر، كل الوطن كان من الإرهابيين؟

وأخيرا خرج المذيع:

- أعزاءنا المشاهدين إن عيون رجال الأمن الساهرة، والتي لا تنام حرصاً منها على أمن وأمان المواطن قد تمكنت من مطاردة أولئك المندسين العملاء الذين يهدفون إلى تقويض أمن البلاد، والعبث بأرواح المواطنين والممتلكات العامة، وقامت بمداهمة وكر من أوكارهم، وإلقاء القبض على قائد المجموعة الإرهابية وعناصره المندسين من جنسيات مختلفة، وتمت مصادرة أسلحة من تصنيع إسرائيلي، ونواظير ليلية أمريكية الصنع و...

وراحت الكاميرا تعرض أكواما من البنادق والرشاشات والقنابل...
التفتت الأم إلى كنتها الغارقة في الشاشة، وسألت:
- ما خلصت نشرة الأخبار؟ يقطع عمرن شفنا وسمعنا من هالكذب كتير... وكأن المذيع أجابها وهو يقول:
- سيداتي سادتي والآن لقاؤنا مع قائد المجموعة الإرهابية، ومنفذ عميلة الهجوم على مبنى امن الدولة في معرة النعمان، واغتيال أولئك الشهداء الأبرياء من رجال امن الوطن المجرم الإرهابي عثمان م ر...
ومع انزياح الكاميرا إلى الوجه المجاور، والذي لم تستطع عمليات المكياج إخفاء الكدمات الزرقاء حول عينيه الجاحظتين في ذلك الوجه الأقرب إلى شكل الجمجمة صرخت الأم:
- ويلاه ويلي عثمان ابني... كذب كذب كذب

*****

لقيت أم عثمان لأول مرة في سنة 2012 حين كنا نقوم بتوزيع مساعدات إنسانية في مغاور سرجيلا، وكان ذلك قبل اللقاء التلفزيوني مع ولدها، وفلزة كبدها.
سرجيلا أطلال أثرية من الأطلال الكثيرة جداً في جبل الزاوية تعود إلى القرن الأول أي منذ إلفي سنة هجرت، في منتصف القرن الثالث الميلادي نتيجة الأوبئة وانتشار مرض الطاعون آنذاك، وعادت إلى الازدهار الاجتماعي والاقتصادي والعمراني في القرن الرابع ثم هجرت بالكامل في القرن العاشر الميلادي أي منذ قربة ألف سنة وفي 2011 عادت تعج بحركة الناس الذين هربوا من بيوتهم وقراهم المجاورة إلى مغاورها وحماماتها التي تستعصي على الطائرات كما يظنون، سألت نفسي يومها:

- هل أعادت الحرب سوريا ألف عام للوراء؟ فعاد السوريون إلى الاحتماء في مغاور سرجيلا خوفا من بطش طائرات النظام، في الوقت الذي تفكر فيه الشعوب الأخرى بغزو الفضاء، والسكن في كواكب أخرى؟

هناك في بيت من بيوت سرجيلا المهجورة من ألف عام لقيت أم عثمان وبيوت سرجيلا رغم تقادم العهد عليها إلا أن بعضها لا يزال يحتفظ بهيكله رغم إهمال الدولة لتلك الآثار، فبيوت السكن فيها تتألف من طابقين ومزودة بأروقة محمولة على أعمدة، وكان الطابق العلوي مخصصاً للسكن والنوم والسفلي مخصصاً للمؤونة، وتخزين المواد وأدوات العمل لكن ساكنو اليوم فعلوا العكس فقد احتموا بالطوابق السفلية؛ لأن العلوية لا سقوف لها، ومكشوفة للطائرات كما سكنوا مغاور الإصطبلات، التي كانت مخصصة للحيوانات والمقابر المزودة بتوابيت حجرية سوداء؛ نحتت من جلاميد عملاقة. أغلب سكان جبل الزاوية هربوا بأرواحهم إلى الآثار المحيطة بقراهم، وخاصة في الليل كي لا تداهم نومهم البراميل، وبعضهم كان يعود إلى قريته في النهار ليكسب لقمة عيشه من أرضه.

هناك سكنت أم عثمان التي فرت بكنتها وحفيدها الذي لم يسموه بعد؛ لأنهم ينتظرون عودة أبيه لتسميته؛ ولذا كانوا ينادونه بأبي عثمان.

حين عرفت أننا نعمل مع منظمات إنسانية هبت من زاويتها التي كانت ترقد فيها بجسدها المسلول، وثوبها الأسود المتخافق، ومشت نحوي محنية الظهر تكاد كفاها تلامسان الأرض، وتمد رأسها نحوي كسلحفاة عجوز لا يساعدها بصرها على الرؤية، كانت آثار المرض قد حلت في كل جسدها، وتركت على وجهها شحوباً تمازج مع جراح عمر من الشقاء وقالت:

- يا بني أنا ما بدي مساعدات أكل وشرب الله كافينا، أنا بدي تساعدوني لأعرف وين ابني؟

جلست بجوارها وراحت بالدمع والكلمات تروي لي حكايتها، أذكر مما قالت:

- راح عثمان على إدلب ليبيع الموتور ويشتريلي الدوا، وأنا ماكنت راضية الحمد لله، الله عطاني القوة والصبر، راح من سنة وأربعة أيام، ومن يومها لاحس ولا خبر.

وحين التفت إلى عبير متسائلاً عن حقيقة ما ترويه كانت تهز رأسها موافقة

- كلهم يكذبون علي، قالوا لي هرب إلى لبنان لعند أخوه، وقالوا راح يشتغل بالشام لحتى يجيب حق الدوا بس عثمان حنون، مو معقول ما يبعتلي خبر قال اشو؟ ما في اتصالات، والطرق مقطوعة، عثمان لو حبال ما بتربطو عني، مستحيل كلهم كذابين، قلبي عم يقللي أنهم اعتقلوه، وأخدوه متل ما اخدو أبوه أكيد؛ لأنه طلع بالمظاهرات، نص الشباب أخدوهن يا قلبي على شبابن.

وارتفع نحيبها وهي تقول آخر مرة كذبوا علينا فيها أخذونا إلى حدود حماه حتى نحكي معو بالتلفون، وآخذو مصاري، قديش ما بعرف، عبير بتعرف لكن كان كلو كذب بكذب.

والتفتت على عبير وقالت: خلي عبير تحكيلك وأشارت إلى كنتها التي تجلس كتمثال أثري في تلك الخربة وهي تحضن طفلها النائم.

- احكيلوا يا عبير.

لكن عبير بقيت ساكتة، وعرفت أنها لا تريد أن تتكلم أمام حماتها.

أخبرتني بعد ساعات من جلستنا تلك بأسرار أخرى لا تعرفها الأم، كانت تبحث عني، ونحن نوزع المساعدات على الناس هناك لتروي تفاصيل أخرى لا تريد لحماتها أن تسمعها.

قالت:

- عثمان ما بلبنان، ولا بالشام عثمان معتقل في سجن صيدنايا ولكن لم نخبر حماتي والله ستموت لو عرفت..... جاءنا من فترة رجل وقال إنه كان معتقلاً مع زوجي هناك، وطلب منه أن يخبرنا، فقد اعتقلوه على دوار إدلب يوم كان ذاهبا لبيع الموتور.

وقال ذلك الرجل إنه يعرف شخصاً يستطيع أن يؤمن لنا مكالمة هاتفية معه وأن هذا يكلف 500 ألف ليرة، قمت مع أخي ببيع قطعة الأرض التي ورثتها من أبي، وأمنا المبلغ، رفض أن يحدد الموعد قبل إيداع المصاري مع شخص ثالث من المعرة، ونحن لا نعرفه، وأجبرنا على ذلك، وحدد لنا موعد بعد تسليم المبلغ بثلاثة أيام، كان هالحكي من شهر، رحنا لحدود المحرر قبل حماه أنا وخالتي وأبو عثمان وأشارت إلى الطفل، كان الموعد الساعة الثامنة صباحاً، ووصلنا قبل ساعة، بقيت يومين حاول علم الطفل يقول بابا؛ لحتى يسمعها لأبوه اللي ما شافو، وصرت كركروا لحتى يضحك، ويسمعوا ضحكتو، وما بعرف ليش خالتي عملت أكل، أكل كتير.. كل الأكلات اللي بحبها عثمان – وأشارت إلى موقد حطب، وأوان سوداء بجوارها – وعلى حدود حماة على تلة مرتفعة قال فيها تغطية سيريا تيل، قعدنا تحت الشمس ننتظر.

وصارت الساعة ثمانية، وما حدا اتصل، وصارت تسعة وما حدا اتصل، والرجل الوسيط معنا، وكل ما نسألوا يقول: طولوا بالكن بكون ما وصل التلفون لعندو، بكون ما قدروا يعطوه التلفون... وخالتي اللي فرشت الأكل ما بعرف ليش، تقول يا جماعة برد الأكل وعثمان ما إجا، ولما قلتلها ما رح يجي قالت بحدة : بس خليه يتصل وأنا رح قللو يجي، ورح يجي لأنو عثمان ما بيرفضلي طلب، هلق شوفو،

وترجع تقول: ياالله بس الأكل برد حتى لما قال الرجل: يمكن اليوم مارح يقدروا يأمنوا الاتصال، كانت خالتي تقللوا ع مهل يمكن هلق يتصل، يمكن يكون بالحمام.. يمكن يكون دقنو طويلة، وعم يحلقها يمكن.. وكأن خالتي يومها صارت تهلوس، بقينا لبعد الظهر وللعصر وما حدا اتصل... بعدها لا شفنا الرجال، ولا عرفنا مين اللي أخد المصاري ولا اتصل عثمان...

وعدت عبير أن لا أوفر جهدا في البحث عن أي معتقل خرج من صيدنايا وان آتيها بأخباره، وأخبرتها أن احد أخوتي قيل لنا إنه معتقل هناك، وسأفتش عن إخباره كما أفتش عن أخبار أخي.

وكم كانت المصادفة رائعة حين خرج أخي من المعتقل، وهو يسجل في ذاكرته الكثير من أسماء وعناوين المعتقلين، **والذاكرة هي الوحيدة التي يسمح لها بتهريب المعلومات من السجون**، والأهم أنه كان يحمل رسالة شفوية من سجين كان معه في سجن صيدنايا إلى أمه المصابة بمرض السرطان، ولكن للأسف لم نستطع إيصال الرسالة إلى أمه...

عرفت منه كل التفاصيل المذهلة التي شكلت حلقات مفقودة في حكاية عثمان.

روى لي أخي والذي اعتقل بعد إصابة أخي الأول قال:

- أعرف عثمان جيداً من أيامي في أمن الدولة.

يومها سمعنا خشخشة المفاتيح، وقعقع قفل الباب ليلاً، وكانت القلوب تقع رعباً من ذاك الصوت، كان علينا أن نهب واقفين ونتجه إلى الجدران بوجوهنا، وكانت الدماء تكاد تجف في انتظار الاسم الذي سينطق به السجان ليقاد إلى التحقيق تلك الليلة، وما إن يتلفظ بالاسم حتى يهب صاحبه إليه دون أن ينظر نحو وجهه، فيمد يديه

الجاهزتين للقيد، ورأسه الجاهز للثام الذي يحجب عنه الضوء، ثم يقودونه عبر الممرات، مع كل أنواع السباب والشتائم واللكمات التي لا يعرف من أي جهة ستأتيه.

- بدك حرية يا ابن الـ... سيادة الرئيس مو عاجبك يا أخو الـ.. أنت نسيت مين ربك ورب رباه... ومع كل كلمة كانت الكبول الحديدية تنهال عليه إلى أن يدخل غرفة المحقق، فيشبح إلى السقف، ويبدأ الموت البطيء.

يومها فتح الباب ولم ينادوا باسم أحد بل رموا بعدة أشخاص إلينا، ومنهم شخص شبه غائب...

وكان عثمان الذي كنت اسمع به شاعراً، من أيام الدراسة، دون أن تجمعنا صداقة قبل تلك المرحلة... رأيت وجهه المدمى من أثر الكبول التي يستقبلون بها المعتقل على رأسه.

حين قعقع باب المهجع ورموه إلى الداخل شبه فاقد للوعي وكان الرقم 236 في ذلك المهجع الذي لا تتجاوز مساحته ستة أمتار طولا وأربعة عرضاً، كان عددنا أكبر من عدد البلاطات التي ترصف أرضه وبالتالي المساحة التي تحق للواحد منا أقل من بلاطة، قمنا بمعالجة جراحه، ومحاولة تهدئته لكنه كان لا ينقطع عن البكاء، وهو يكرر جملة واحدة:

- أمي يا شباب أمي، أمي مريضة سرطان كنت في طريقي لشراء دواء الجرعة الكيماوية لها والله... وفهمنا منه: أن حاجزاً على دوار إدلب أوقفوه على دراجته النارية التي ينوي بيعها، وجن جنونهم وهم ينزعون عنه تلك الجمدانة السوداء التي لف بها رأسه؛ لتقية الهواء البارد على دراجته، انزلوه وهم يقولون هادا إرهابي مبين من غطا راسو، ثم أحرقوا الدراجة بالبنزين الذي فيها، وقيدوه ورموه في السيارة قال إنه

لا يعرف من هم؟ دولة؟ نظام؟ وإلا عصابة تشليح لا يعرف..

في اليوم التالي حين قعقع الباب ووقفنا إلى الجدار، فالموت لمن يفكر برؤية وجه السجان.

وكان المطلوب مرة أخرى عثمان، نسينا ان نوصيه أن لا يعترف بأي تهمة ينسبونها إليه، وألا يقول للمحقق إن أحداً قد ضربه في الطريق إليه؛ لأنه عندها سيرى الويل في طريق العودة...

قال لي أخي: حظ عثمان كان سيئاً فالتهمة التي سلمت له كانت القتل...

سألته كيف؟

قال:

- حين نقف مطمشي العيون مكتوفي الأيدي إلى الوراء أمام المحقق الذي لا نعرف منه إلا صوته، يقول هل تعترف؟ وما إن تسأله: بماذا يا سيدي يكون الحبل المربوط بيديك إلى السقف قد شد إلى الأعلى، وأصبحت معلقا في الهواء، بالكاد أصابع قدميك تلامس الأرض، وذراعاك اللتان قلبتا من خلف ظهرك إلى أعلى كتفيك تسمع معهما طقطقة أضلاعك، حينها تطلب الموت، ولا تجده، وتبقى لمدة ساعات، وهذه تسمى عملية الشبح وهي الوضعية التي تتلقى فيها الأسئلة.

مقدرة الإنسان على الاحتمال تختلف من شخص إلى آخر، منهم من يقر بكل جرائم الدنيا من أول ساعة، ويكون في الحقيقة بريئاً من الدعس حتى على نملة، عثمان كان ضعيفاً واعترف بكل ما طلب منه كان شاعراً رقيقاً وكتلة مشاعر، وأحاسيس لكنه لم يستطع أن يصمد إلى النهاية...

وقد حكى لي عن جلسة من أولى جلسات التحقيق معه قال:

حين أدخلوني باب الغرفة وأوقفوني في الوسط استطعت من وراء اللثام أن أتبين ملامح شبح يتصدر طاولة في صدر المكان، وكانت رائحة الكحول الممتزجة بدخان السجائر خانقة، وبلحظة أصبحت مشبوحاً بين الأرض والسقف، شبه معلق في الهواء، وروحي تكاد تخرج من بين كتفي، وجاءني صوته مقهقهاً كخوار ثور؛ رداً على الصرخة اللاإرادية التي انطلقت مني، وأنا اشعر أن أضلاعي كلها تكسرت، وسمعت صوتها بإذني.

- مالك ولا؟ خليك رجال.. أمبارحة كنت شايل سلاح وعم تقتل بمفرزة الأمن.

وكأن غضب الله نزل عليَّ من خلفي حين أقسمت له إنني لم أفعل ذلك.

انهالت على الكبول من شخص كان يقف خلفي، شعرت بالضربات الأولى تشطرني شطرين، لا أدرى عدد الجلدات؛ لأني لم أعد اشعر بشيء وجاء الأمر لمن يجلدني بالتوقف وعاد الصوت يسأل:

احكيلي كيف قتلت الشباب بالمعرة. لا تكون عنيد خليني ساعدك.

- يا سيدي أقسم بالله العظيم مالي لا خبر، ولا علم

وقبل أن أكمل جملتي صرخ:

- أي إله وأي عظيم؟ خلي يجي يخلصلك من هون، هون ماحدا بخلصك غير أنك تعترف... وسكت قليلاً وكأنه كان يشرب كأسه، ثم راح يقترب مني وقذف بما تبقى في فمه على لثام وجهي، كان خمراً مقرف الرائحة، ثم شعرت بجمرة نار تغرس في أسفل عنقي، كانت السيكارة الأولى التي أطفؤوها في جسدي وسمعت صوته يبتعد، وهو يقول:

- مساعد! أقنعه في الاعتراف قبل ما أرجع

- حاضر سيدي.

خلعوا عني كل ملابسي حتى الداخلية، وبدؤوا بإطفاء السجائر في جسدي

وعادت السياط الملهبة تحز ظهري، وكتفي، وراسي، وبطني في البداية شعرت بها ثم لا أدري في أي عالم أصبحت، حين فتحت عيني كنت في المهجع، والشباب حولي يحاولون إيقاظي من غيبوبتي، وبعضهم يدلك عضلات كتفي، وآخر يحاول وقف نزف الدم المتدفق من ظهري.

وفي جلسة أخرى قلعوا أظافر قدميه، وهددوه بالاغتصاب في الجلسة القادمة.

كل هذا ولم يعترف عثمان بشيء لم يفعله، لكنه في النهاية أعترف بكل شيء أرادوه...

قال لي وقد انفجر باكياً حين لمته على اعترافه بشيء لم يفعله:

والله لست جباناً، احتملت كل أنواع العذاب، الشبح لساعات، وأيام، الضرب بالعصي الكهربائية، والصعق بالكهرباء حتى في خصيتي، إطفاء السجائر في كل نقطة من جسدي، قلع أظافري التبول على رأسي، وفي فمي مرات، التهديد بالاغتصاب، كل هذا احتملته، ولكن الذي هددوني به ليلة اعترفت لا يمكن لبشر أن يحتمله، وحين سألته بمَ هددوك؟ دخل في نوبة بكاء طويلة ثم حدق في وجهي وقال:

- يا أخي لقد كرروا السيناريو ذاته إلى أن تركني المحقق، وخرج طالباً من الجلادين إقناعي، جلدوني حتى تعبوا أسمعوني أقبح أنواع السباب والشتائم وكانوا يومها حريصين على عدم فقدي لوعيي ثم انقطعت الأصوات من حولي، وبقيت بين الموت والحياة، أكثر من ثلاث ساعات، ثم فتح الباب وجاءني صوته:

- احكي يا عثمان كيف قبضوا عليك

- يا سيدي والله العظيم كنت نازل على إدلب لبيع الموتور واشتري دوا لأمي

وصرخ بي:

- دوا لأمك؟ وتلفظ بشتيمة فظيعة لأمي لم اسمعها طيلة حياتي وقال:

- أنت تضيع الوقت، وتلف وتدور وتضيع وقتنا ع الفاضي، ولا تريد أن نساعدك

شرب من كأسه وبصق نصف جرعته في وجهي وسأل من جديد

- أمك وين ولاك؟

- بالضيعة

- مع مين عايشة

- معي انا وهي ومرتي، وما منطلع برا البيت والله العظيم.

- كم عمرها

- 71 سنة

- ومرتك ولا؟

- 19 سنة

- حلوة مرتك ولا؟

وحين لم أرد.. وضح سؤاله:

- جسمها حلو؟ النومة معها حلوة؟ وحين لم أرد قال:

- إذا ما بدك تعترف بكرا رح تحضر معنا التحقيق، رح تكون قاعدة هون جنبي بالزلط، وعم تشرب معي كاس، بكرا بكرا، وضحك بقهقهة مخمور وخاطب شخصا آخر:

- شو يا مساعد بتصير معك هالعجوز؟ أمو؟ أم واحد وسبعين سنة..

ولك أنا بعرفك ابن قـ..... بتحب العجايز وما بتوفر حدا.....

- أنا بأمرك سيدي

- شو رأيك تروحو تجيبوها وتقضي معاها ليلة هنيه...

وباللاشعور صرخت

- لا أمي لا...

ولم يضربني أحد هذه المرة قال لي بهدوء:

- ليش لا ولا ما بدكن حرية؟ رح يفرجيك بعينك الحرية قول وفعل... ولك ما بضحي بمرة عجوز للمساعد كم ساعة؟ ونحن اللي عم نضحي بأرواحنا لنحميك، ونحمي أهلك وحدود الوطن... شو إنك قليل وطنية.

وأصدر أمره الذي كان أصعب من كلّ أنواع العذاب التي لقيتها:

- بكره بتجيبوا أمو، ومرتوا لهادا الحيوان، وبتجمعلي كل الشباب العازبين الساعة 10 بالليل، وبتجبلي ليتر ويسكي، بدي أسكر على مرتك وأمك بكرا ولا تعترف لشوف... بكرا بتجيبو لهادا الجحش بدون طماش حتى يشوف بعينو الحرية وإلا ما بدك حرية بطلت؟؟؟؟

وصرخت بهم:

- لا لا لا كلشي والا أمي أمي مريضة، بعترف بكلشي بدكن إياه بس أمي لا.

وعلق أخي: طبعا يفعلون هذا وقد فعلوا أفظع من هذا، وعثمان سمع بذلك من بعض المعتقلين، فلم يستطع الاحتمال، واعترف بكل ما أرادوه له.

ثم أكد قوله: حظ عثمان كان سيئاً فقد سلمت له الورقة الأصعب ليعترف بمضمونها و ليوقع عليها.

كررت لأخي: لم أفهم

قال: سواء اعترفت أم لم تعترف، المحقق إمامة عدة أكداس من أوراق مطبوعة جاهزة التهم، ومطلوب منه أن يرفع كل يوم إلى قيادته القاء القبض على أصحاب هذه التهم، وحين تأتيه الحواجز بالمعتقلين يمد يده التي تأتي بالصدفة على إحدى المجموعات ويناول المتهم المشبوح أمامه عدة ساعات ورقة منها، ويقول وقع على اعترافاتك... وقبل أن يوقع تكون تلك الجلسات التي حدثتك عنها.

- إذن هم لا يريدون أسماء

- لا.. هم يريدون أرقام، تخيل مرة جاؤونا بدفعة من المعتقلين كلهم يرتدون قمصاناً سوداء، وحين سألناهم ما تهمتهم؟ قالوا لا ندري.... وعرفنا فيما بعد أن تهمتهم هي ارتداء القميص الأسود، كانت الأوامر أن يعتقلوا عدداً من الأشخاص الذين يرتدون لونا أسود؛ لان إحدى التظاهرات قد اتفقت على هذا اللون لمعرفة بعضهم، فاعتقلوا كل من كان ولو عابرا بهذا القميص في الشارع، ولم لو يكن له أي علم بالمظاهرة، ذنبه أنه ارتدى ذلك اليوم اللون الأسود.. يريدون أرقام، ولكل تهمة يريدون عدداً مطلوباً من القيادة... وحظ عثمان كان تهمة التسليح، وقتل مفرزة الأمن بينما أنا كان حظي ورقة تظاهر، وتخريب الممتلكات العامة، والإساءة لشخص الرئيس، ورفع علم الاستعمار لا أكثر.

مسكين عثمان، كان أكثرنا تعذيباً كالذين لهم تهمته، فكلما قعقع الباب واستدارت الوجوه إلى الجدران كانوا ينادون باسمه. في الفترة الأخيرة دفعوه على الدرج فصدعت قدمه وتمزقت أربطتها، ولم يعد يستطيع النهوض لكنهم كانوا مصرين على اسمه، أو أن يفتديه معتقل آخر ليأكل نصيبه من التعذيب وأنا افتديته عدة مرات، في كل مرة كانت الوجبة ثلاثمائة جلدة يتناوب عليها ثلاثة جلادين من ذوي العزم واللاإنسانية

- وهل الذي يفتديه سيعترف نيابة عنه ماداموا يعذبونه ليعترف؟

- لا...لا هم يتلذذون بالعذاب، كانوا يأتون مثلاً آخر الليل وقد طلب منهم أن يحضروا عشرين شخصاً للتعذيب؛ لأن الضابط المناوب وغالبا يكون سكران قد جافاه النوم، ويريد أن يتسلى بأفانين تعذيب؛ لا تخطر على بال الشيطان.

سكت أخي هنيهة وقد أسند جبينه إلى كفه ثم رفع إليّ عينيه فقط قائلاً:

- تخيل مرة أحد الضباط المناوبين رأى كابوساً فهب مذعوراً من سريره وهو ينادي:

- هؤلاء الكلاب يريدون خنقي... يريدون خنقي... لقد جلس على صدري ثلاثون واحداً منهم وكادوا يخنقونني... ثم صاح بالحراس والجلادين ليلقي لهم بأوامر تلك الليلة الرهيبة...

ليلتها قعقع الباب، فهب الجميع مستديرين إلى الجدران كالعادة، وجاءنا صوته مقهقهاً:

- نايمين مو؟ مساكين... هون عنا اوتيل ميريديان مو هيك؟ اسمعوا ولاك هلق إجت أوامر جديدة من سيادة العقيد مطلوب الليلة إعدام 30 إرهابي، وبعدين 30 كمان من اللي حاولوا يعتدوا على سيادة العقيد في المنام، فإما يعترفوا ويطلعوا لحالن وإما منطالعن نحن.. نحنا منعرفن واحد واحد...

لم يتحرك أحد. كم تتمنى في تلك اللحظة أن ينشق الجدار الذي أمامك وتحلق بعيداً... كم يتمنى المرء الموت تلك اللحظة. خيم الصمت الرهيب لثوان ثم راح صوت بكاء خجول سرعان ما انتقلت عدواه إلى الآخرين، وزلزل صوته من جديد:

- مارح تطلعوا لحالكن مو؟ طيب كلشي بياكول ضربه على راسو بيطلع فوراً.

ما أصعب تلك اللحظة التي ينتظر قفا رأسك مرور صوت الصفعة من جانبه إلى رأس مجاور، وبهذا المرور تكتب لك الحياة، ولكن تلك الصفعة الحديدية لم تتجاوزني فكنت من الثلاثين المحكومين بالإعدام.

أخرجونا ودون أن نودع بعضنا أو نترك وصية لأهلنا، أو حاجياتنا أو لباسنا مع من تكتب له الحياة من بعدنا، مشينا مقيدين بجنزير طويل يربطنا جميعاً إلى الساحة مطمشي العيون. صرخ الجلاد بالباقين:

- 30 واحد يجهزوا حالن بعد شوي للإعدام...

أصعدونا على كراس واطئة لكنهم لم يقيدوا أيدينا وقفنا كالأصنام متجاورين في صف واحد، يسمع كل منا دعاء الذي بجواره، ودقات قلبه في صدره، وبعد زمن من الترقب القاتل تدلت حبال المشنقة من الأعلى وراح الجلادون يحكمونها حول أعناقنا.

وزلزل صوت الضابط الكبير:

- خايفين مو بدكن الحياة بتحبو تعيشو بعد ماخربتوا البلد..

- وكمان بدكن تخنقوني مو ولاك يا...

وصب سيلاً من الشتائم المقذعة، والتي لم نسمعها كثيراً لأننا كنا مشغولين بالتشهد الأخير في حياتنا، وارتفع صوت متحدّ من آخر الصف كما تخيلت يتلوا آيات من القرآن، وهنا جن جنون الضابط وجلاديه... صاح:

- عم تنادي لربك ليجي يخلصك؟ خلي يجي ربك يخلصك لشوف خليه يتفضل ولك لو بدو اياك ما خلاك تجي لهون، ولك ربك اللي بخلصك هوي سيادة الرئيس فهمت... وسمعنا صوت لكمة قوية كأنها طارت بقطعة من رأسه وهو يسأله

- مين ربك ولاك؟

ولم يرد وتتالت أصوات اللكمات والسؤال:

- مين ربك ولاك؟ سيادة الرئيس، الرئيس ربك ما بعترف فيه... سمعنا صرخة ذاك الشخص التي سكت بعدها إلى الأبد كما تخيلت مع صوت الضابط اتركوه يفطس كلب ومات... ثم عوى كالذئب آمراً:

- نفذوا الإعدام

وبدأت الكراسي تُركل من تحت الأقدام من بداية الصف والغريب مع صوت اندفاعة كل كرسي كان صراخ صاحبه يعلو بدل آن يختنق وحين دفعت الكرسي من تحتي، وجدت كفاي بفعل انعكاسي تتمسكان بالحبل من فوقي قبل أن يزرد على عنقي، وجسدي يتطوح في الهواء...

كانت لعبة قذرة تركوا أيدينا حرة لنُعلّق بين الموت والحياة والذي تراخت كفاه عن الحبل لا شك أنه اختنق، وخاصة حين انهال الجلادون علينا بالضرب وهم يصرخون:

- اتركوا الحبل يا كلاب ما بدكن تموتوا ها؟ بدكن تعيشوا...

ختموا تلك الليلة التي هي أصعب من الإعدام بألف مرة بقولهم إن الضابط أحب أن يمزح معنا بعد كابوسه اللعين أحب أن يمرح بلعبة الموت هذه...

ما كانوا يريدون أن نموت، لأنهم لا يملكون غيرنا في الوقت الحاضر يتلذذون بعذابه،

والتفت إلى أخي هل تتخيل موتاً أصعب من هذا العذاب النفسي... أنزلونا ورشونا بماء ساخن يشوي الجلود العارية، ثم دعكونا بالملح، وقالوا الآن عودوا إلى المهجع، وناموا بأمان كيف ينام من دهنت حروقه بالملح؟ حين عدنا كنا فرحين بالحياة، وكأننا ولدنا من جديد، ولكن لم نعد جميعاً، عدت أنا وعثمان، وفقدنا بعض الشيوخ الذين

لم يقووا على الإمساك بالحبل لا شك أنهم اختنقوا... رفاقنا الذين كانوا ينتظرون دورهم بالإعدام أجلوهم إلى الغد؛ ليعيشوا ألف موت قبل موعد موتهم، سمحوا لنا ان ننام متمددين بكامل طولنا على حصتهم من بلاطات المهجع وناموا واقفين لضيق المكان في انتظار موعد موتهم في الغد.

*****

سألته:

- وماذا حل بعثمان بعد ذلك؟

- حولوه إلى دمشق قبلنا، ولم نكن نعرف ذلك؛ لأنه ككثيرين غيره أخرجوه ولم يعد، فمنهم من يحول، ومنهم من يموت، وقليل من يطلق سراحه، المهم خرج عثمان ولم يعد وبقيت أنا ثم حولت مع ثلاثين شخص إلى العاصمة؛ لان المعتقل في إدلب بعد ستين يوماً يحول إلى دمشق.

ربطونا بسلسلة طويلة من أيدينا كالدواب، وحشرونا ملثمين في سيارة مغلقة، ودون أن نعرف إلى أين؟ في الطريق كانت المفاجأة، أعطوا كل واحد منا رغيف خبز كامل، وثلاثة أقراص من الفلافل، وحبة بندورة تخيل هذه وجبة خمسة نجوم، يا إلهي ما ألذ وما أطيب الفلافل والبندورة!

سألته: وكيف كان طعامكم في السجن؟

ابتسم أخي بمرارة وقال طعام؟ كنا في المهجع قرابة 300 شخص أحيانا كان يقعقع الباب الذي يقطع القلوب صوته، ويرمى لنا بثلاث ربطات من الخبز أي اقل من أربعين رغيفاً، وأحيانا يزيدون إلى ما يقارب نصف رغيف للسجين

- خبز فقط؟

- أحيانا يتكرمون بحبات بطاطا يتقاسم الحبة بضعة أشخاص، أما إذا كنا مشبوحين في الساحة حيث نعلق بشكل جماعي على سيخ يشبه سيخ الشواء ونبقى لساعات، وربما لأيام حتى تصبح الأقدام من ورمها أضخم من الرؤوس، فكان الجلاد يمر على الأفواه المفتوحة، ويحشوها بلقيمات من الخبز، لقيمات فقط كي لا نموت من الجوع، ويحرمون من تعذيبنا ولذلك حين رأينا قطعة اللبنة، أو ذاك المربى العفن برائحة الصدأ وجدناه نعمة كبيرة... وهكذا نقلونا إلى فرع 258 في كفر سوسة وهناك حشرونا في أقبية تصل إلى ثلاثة طوابق تحت الأرض، لكن التعذيب هناك أخف قليلاً. ومن هناك يتم التحويل إلى المحاكم حسب التهم الملصقة بالمعتقل، فمنهم من يحول إلى المحكمة المدنية، وهذه أسهلها ومنهم إلى الميدانية، وأحكامها من العشرين سنة إلى المؤبد، ومنهم إلى المحكمة العسكرية، وهؤلاء غالباً يرتدون الثوب الأحمر المخصص للمحكومين بالإعدام، ومن كفر سوسة يُحوّل المعتقلون إلى سجن تدمر، أو صيدنايا، وكنت أنا من حصة صيدنانا، وهناك التقيت بعثمان مرة أخرى في المهجع الرابع.. حين رأيته لأول مرة تجاهلته خوفاً من العيون وفي غفلة منهم تعانقنا عناق من هم أكثر من أخوة، وعرفت أنه قد حول إلى محكمة ميدانية لأن تهمته التسليح، والقتل، وبكى يومها كثيراً وهو يتذكر أمه المريضة التي تنتظر الدواء منذ شهور، وفي سجن صيدنايا تعرفنا على أنواع جديدة من الألم والعذاب لكن من أوجعها تلك الأصوات التي تأتينا ليلاً تمزق الآذان، والأرواح، صرخات رجال تشق الليل، وهم يتوسلون حتى الموت، ومن أكثر الأصوات التي لن تنسى؛ صوت تلك المرأة في إحدى الليالي.... بقيت تصرخ وتستنجد حتى الصباح وهي تكرر:

- والله يا سيدي لا أعرف عن زوجي شيء، والله من سنة ما شفتو

وتنهال عليها تلك الشتائم البذيئة التي يتعفف أي ذي إحساس عن ذكرها، كانت تصمت أحيانا، وكأنها تغيب عن الوعي ثم نسمع استغاثتها بين أصوات مخمورة، وكأنهم يمزقون جسدها... وهي تصرخ:

- أنا بعرضكم حرام عليكم حرام. بينما كانت قهقهاتهم، وأصوات كؤوسهم تعربد في ظلمة الليل.

وفي ليال أخرى كنا نسمع أصوات سجانات لا تختلف بذاءة شتائمهن عن السجانين من الرجال. كنّ يتلفظن بالشتائم ذاتها، وكأنهن رجال.

ولكن الذي لا أنساه أصوات الأطفال هناك. كانوا يحضرون أطفالاً ويعذبونهم أمام أمهاتهم، ويغتصبون الأمهات أمام أطفالهن، أو أزواجهن وإخوتهن وآبائهن... عرفت لماذا اعترف عثمان بالذي لم يفعله...

*****

وتابع أخي في جلسة أخرى:

- حين عرف عثمان أن نتيجة العفو الذي صدر من رئيس الجمهورية قد حولت من المحكمة الميدانية إلى المدنية، راح يتوسل إلى كل يوم أن لا أنسى أمه... أن اذهب إليها، وأطمئن عليها.. ومثل عثمان كثيرون، ولم نكن نملك وسيلة لحفظ أسمائهم وعناوين أهليهم إلا الذاكرة.

في الفترة الأخيرة من اعتقالي بدؤوا يهتمون بعثمان أكثر من غيره بدؤوا يداوون جراحه، والكدمات التي على وجهه، والجرح العميق في خده الذي حفرته حافة الباب الحديدي يوم امسك به جلاده من قفا عنقه، وراح يدق رأسه بالباب الحديدي.

استغرب عثمان هذا الاهتمام، فبقية المعتقلين كان يأتيهم كل يوم أربعاء طبيب لا يرون وجهه، يقف على الكوة الحديدية وينادى: مَن منكم مريض؟ فيرفع المرضى أيديهم دون أن يستديروا إلى مصدر الصوت، فيوزع لكل واحد منهم حبة واحدة من النوع نفسه لكافة العلل، أما عثمان فبدؤوا يخرجونه لساعات، ويضمدون جراحه، ويعطونه أدويه مقويه، كما أنهم أضافوا إلى طعامه حبات من الزيتون، وأحيانا قطعة بحجم البيضة من اللبنة، وهنا بدأ المعتقلون ينفرون منه ويرتابون في أمره بل ويخافونه حيث ظنوا أن السلطات قد اشترته، وأصبح عميلاً مندساً بينهم من سلطات السجن فنبذوه، لكني أنا الذي كان يعرف سر عثمان.

سألته: وما سرّ هذا الاهتمام؟ ما سرّ عثمان؟

قال: لقد أسر لي بذلك كانوا يخرجونه ليدربوه على حديث تلفزيوني سيبث أمام الجماهير، يعترف فيه بجرائمه التي ارتكبها، وليثبت أن عين الحكومة ساهرة، ولا يمكن لمجرم مثل عثمان أن يفلت من العقاب.

كانوا يحفظونه السيناريو حرفاً حرفاً.

تركت عثمان بعد أربعة أشهر في صيدنايا، وحاولت التواصل مع أمه لكن قلبي لم يطاوعني على إخبارها بالحقيقة، أرسلت إليها من يقول لها أن عثمان مختفية في دمشق، ولا يستطيع العودة خوفاً من يلقى القبض عليه، ويساق للخدمة، وسمعت أن أحد النصابين من العملاء الذين كانوا معنا في سجن صيدنايا قد سلبهم نصف مليون ليرة ليؤمن لهم مكالمة هاتفية.

قلت: وهل هذا ممكن؟

قال: لا أظن قد ينجح في ذلك شخص بالاتفاق مع مسؤوليّ

السجن الكباروبمبالغ طائلة، ولكن احترفوا هذه الأكاذيب، وأصبحت مهنة لكسب الملايين والغريق يتعلق بقشة، وسمعت أن عثمان قد حكم بالسجن مدة عشرين عاماً...

*****

كانت مصادفة غريبة أن أعرف من أخي تفاصيل حكاية عثمان، ولكن لم أستطع أن أفي بوعدي لأمه بعد أن عرفتُ كل ما كانت تريد معرفته لسببين: الأول أن المقابلة التلفزيونية، والتي خططوا لها شهوراً قد سبقتني إلى أم عثمان. والسبب الثاني أنها قد سبقتني إلى العالم الآخر بعد سماع تلك المقابلة.

وتتزايد الأسئلة كل يوم في دفتري:

- ماذا حلّ بعثمان؟ أما زال حياً في ذاك الجحيم؟

- هل سينقل إلى سجن آخر؟ وهناك سيلتقي برجل عجوز سجين من أكثر من أربعين عاماً؟ وحين يجلس بجواره، سيتحرك دم عتيق في عروق العجوز ليحضن ولده الذي لم يعرفه في ساحات الحياة، فالتقاه في ظلمة السجون...

- هل ستنطق جدران السجون يوماً وتبوح بأسرارها؟ أنا كمؤمن عقيدتي تقول سيشهد على أولئك الظلمة حتى أيديهم وأرجلهم قبل أن تشهد حيطان سجونهم...

- لماذا في وطني تلتقي الأجيال في سراديب السجون الضيقة هل تضيق تلك الأوطان عن جمعهم في رحابتها....

- ماذا حل بتلك الآلاف المؤلفة في عالم الأرقام تلك... أليست تلك الأرقام من الشباب هي التي ستبني الأوطان ومَن من بعدهم سيبني؟ الحاكم والجلاد؟ هل هم فقط أصحاب البلاد؟ وما مصير

ملايين الأطفال الذين ولدوا وبقوا ينتظرون أسماءهم تأتي من آباء غيبوا في عالم الأرقام

ويوماً بعد يوم تتراكم الأسئلة في دفتري فهل من مجيب؟

من أيّام الحصار

عبور الموت

عُرفتْ تلك الفترة باسم حصار حلب الثاني، والذي بدأ في تشرين الأول من سنة 2016.

أيام لا تنسى، ستبقى محفورة في ذاكرتي، عميقة عمق الآلام التي عانيتها، وعاينتها في تلك الأيام العصيبة من حياتي.

وصلنا مع سيارات المساعدة التي يتوجب علينا إدخالها إلى المدنيين المحاصرين في حلب، إلى بلدة كفر حمرة، حيث ذلك المعبر الوحيد المؤدي إلى داخل المدينة المحرر والمحاصر، كان هناك حشد هائل من السيارات التي تنتظر العبور الآمن... عرفت أنه لم يبق أمامنا سوى تسعمائة متر لنكون داخل المدينة هناك حيث ينتظرنا آلاف الجياع الذين يحلمون برغيف خبز ولو كان يابساً...

وقفت سياراتنا على جانب الطريق، ونزلنا نستطلع ما يحدث... فهمت من الأحاديث المتداخلة هنا وهناك أن الطريق الذي يمتد أمامنا يعرف باسم طريق الكاستيللو، طريق مرصود بقناصات مطلة عليه وراجمات صواريخ من حلب الجديدة، ومناطق أخرى، ولا يعبر إلا في غفلة من عين تلك القناصات.

كانت رائحة الموت تفوح منه وهو يتمدد كأفعى مرعبة بجوار ساتر ترابي يرتفع بمحاذاته ويمتد على طوله ساتر يتجاوز ارتفاعه المترين وبالتالي تستطيع أحيانا أن تتوارى به السيارات الصغيرة وتمرق بسرعة سهم داخلة او خارجة من المدينة حسب الأوامر التي تأتيها

من الحاجزين اللذين في أوله وآخره، أما السيارات الكبيرة كسيارات المساعدة التي نصطحبها فإنها تنتظر نوم القناصين الذين ستكون عيونهم بالمرصاد لها.

شعرت بالقهر وأنا أتأمل حمولة سياراتنا، نحن لا نحمل مواد متفجرة، لا نحمل رصاصا، وقنابل ومواد متفجرة تقتل الناس كل ما نحمله مواد غذائية لبشر يتضورون جوعاً في الداخل، بشر يختبئون في بيوتهم بعيداً عن الرصاص والقنابل والصواريخ، وربما لا ينتمون إلى أي طرف من الأطراف المتحاربة للسيطرة على مدينتهم نعم مدينتهم التي ولدوا فيها وترعرعوا في شوارعها، عاشوا حياتهم يفتشون عن لقمة عيشهم ولقمة أطفالهم... أتخيلهم الآن هناك في الملاجئ العميقة يحضنون أطفالهم المرتعبين من صوت الانفجارات وهم يصرخون رعباً وخوفاً وجوعاً، نعم يبكون جوعاً وقد يموتون وسيارات المعونات تحتجز هناك على بعد 900 م من موتهم، **أي عالم متوحش هذا؟ هذا القناص الذي يحجز الطريق، لا يقتل من يعبره برصاصاته فحسب، إنه يقتل آلاف الأطفال، وبغير رصاص حين يمنع عنهم علبة حليب قد تنقذ حياتهم.**

يا إلهي إلى أين وصلت الحرب بهذا الكائن الذي يعرف باسم الإنسان...

تملكتني روح المغامرة، لابد من الدخول والوصول إلى أولئك الناس المحاصرين لابد من أن أعانق ألمهم، وكانت إحدى المهام المعهودة إليّ أن أعرف ما هي احتياجات الناس في الداخل، وأنقلها إلى الجهات التي تنوي مساعدتهم، عليّ ألا أضيع الوقت لا بد من وسيلة للدخول.

وعرفت أن سيارات المحروقات كالمازوت، والبنزين هي الأكثر مغامرة في قطع ذلك الطريق المرصود بالموت في كل شبر منه، سيارات

المازوت يجب أن تدخل لان الأفران التي تخبز ستتوقف إن لم يصلها الوقود، وكذلك المشافي التي تعتمد محركات الديزل بدل الكهرباء التي أصبحت من الماضي.

على أن أجد سائق سيارة وقود ليدخلني ولم يكن ذلك صعباً، عشرات السيارات كانت تنتحي جانب الطريق تنتظر فرصة للدخول، ولكن الصعب كان إقناع السائق.

اخترت رجلاً ستينياً يجلس وحيداً بجوار صهريج كبير، عيناه مثبتتان على قبضته اللاسلكية التي تخشخش بين آونة وأخرى معلنة عن انطلاق حوامة، أو بدء راجمة أو رشاش العمل، كان ملتفاً بالظلام، ويدخن بشراهة، اقتربت منه، وهو غارق مع قبضته اللاسلكية يحاول أن يفهم شيئاً من كلامها المتقطع، سلمت عيه وعرضت عليه طلبي لم يجبني مباشرة بل راح يتأملني قبل أن يطلب مني الجلوس ثم راح يشرح لي خطورة المغامرة معه قال:

- هل تعرف معنى أن تدخل مع سيارة محروقات؟

قلت له:

- تعني أنها سيارة كبيرة ولا يستطيع الحاجز الترابي أن يخفيها عن عين القناص.

- إضافة إلى ذلك هل تعرف خطورة الحمولة التي معنا

- كيف

- نحن نحمل مواد قابلة للاشتعال، يعني أي طلقة تصيبنا هذا يعني أن تشتعل السيارة بمن فيها خلال دقائق وقبل آن يصل أحد إلينا.

مع أني شعرت بالخوف، ولكن كانت رغبتي في الوصول إلى أولئك الناس أكبر من خوفي قلت له:

- الأعمار بيد الله يا عمي قل ما يصيبنا إلا ما كتب الله لنا

نظر إلي بإعجاب وهو يتمتم قائلاً:

- صدق الله العظيم

راح يقيسني مرة أخرى بعينيه الضيقتين، وهو يسحب نفساً عميقا من سيكارته، وربما كان يرى أنني أصغر من هذه المغامرة.

وسألني:

- هل أنت مضطر للدخول؟

قلت دون تردد

- أكيد هناك من ينتظرني

- أهلك؟

واحترت ماذا أقول له؟ هم أهلي ولكن لم يلدوني، كل امرأة في الداخل تتكور على رعبها هي أمي، كل طفل يحتاجني هناك هو أخي الذي لم تلده أمي، أريد أن أوصل احتياجاتهم إلى من يلبيها، هؤلاء الناس أهلي، أنا منهم وهم مني.

قلت ودون أن أفكر أكثر:

- نعم

ثم قلت لأقنعه أكثر بالموافقة على اصطحابي كما تخيلت:

- أنا أعمل مع منظمة إنسانية ومطلوب مني الدخول للوقوف على احتياجات الناس هناك.

نظر إلى ملياً مرة أخرى وكأنه يعاينني من رأسي إلى قدمي، وكأن كلمة "منظمة" أدت إلى دور سلبي في موافقته عكس ما توقعت.

- يا عمي طريقنا خطرة وهذه مسؤولية، أنا لا مانع عندي من اصطحابك ولكن على مسؤوليتك، وشدد على الكلمة الأخيرة مكرراً:

- على مسؤوليتك

قلت دون تردد:

- على مسؤوليتي

قال موافقاً انتظر معي ريثما يسمحون لنا، واعتقد أننا لن نتأخر لأن المازوت الذي معي لمشفى ميداني، وهم يلحون على دخوله بأقصى سرعة ممكنة لان المحركات التي تدير أجهزة المشفى تكاد تتوقف لانتهاء الوقود.

أخبرت رفاقي أني سأسبقهم مع سيارة المازوت وانتظرهم في الداخل ورغم استنكارهم لتسرعي أصررت على فكرتي وعدت أنتظر مع سائق السيارة، وكان الوقت قد قارب منتصف الليل.

طلب مني ألا أبتعد لأنه لا يعرف في أية لحظة يطلبون منه الانطلاق.

سألته: كم تستغرق مسافة المعبر؟

قال دون اكتراث أنها دقائق... دقائق إذا يسر الله لا أكثر.

ننتظر ساعات، وربما أيام لعبور مسافة لا تتجاوز الثلاث دقائق وعدت إلى تأملاتي، وأنا أتأمل خزان الوقود الملتف بالظلام.

سألني السائق قائلا:

- أنت تعمل مع منظمة إنسانية؟

قلت: نعم

تنهد قائلاً:

- **وهل بقيت إنسانية يا بني الإنسانية ماتت، لازم تكون صارت بالمتاحف** وأشار إلى خزان الوقود وقال:

- هل ترى هذا الصهريج، كل قطرة فيه مرتبطة بروح إنسان قد يموت إن لم تصل إليه، وها نحن مجبرون على الوقوف هنا ننتظر

أن يذهب القناص ليبدل إبريق المتة، أو يذهب ليتبول كي نغتم تلك اللحظة لنصل إلى أولئك الناس المتعلقة أرواحهم بنا.

القناص كم يقتل من البشر دون أن يدري ليس بالضرورة أن يخترق الأرواح برصاصاته يكفي أن يحتجز هذا الخزان من الوقود الذي ينتظره مشفى يفصله عنه دقائق، هذه الدقائق كم ستقتل من البشر هناك دعك من المتحاربين، إذا انتهى الوقود من محرك الديزل، كم من الأطفال سيموتون في الحاضنات! كم من المرضى يموتون في غرف العمليات! كم سيختنق من الناس الذين يتنفسون من جرات الأوكسجين!

وتنهد من أعماق صدره تنهيدة شعرت بحرارتها تسري عبر ذلك الليل الذي تمزقه أصوات الانفجارات من كل جانب، وتخترق ظلمته الرصاص الخطاط بين آونة وأخرى، ثم قال وكأنه يحدث نفسه:

- لقد تخلى العالم عن إنسانيته من زمان، الحيوانات لا تفعل ما يفعله إنسان اليوم، لا والله الحيوانات لا تفعل ذلك...

في الثالثة صباحاً فتح المعبر، وسمح لأول سيارة بالعبور... أين ذهب القناص لا أدرى، ولم أفكر في ذلك تلك اللحظة كنت ارتجف رغماً عني من هول الدقائق القادمة، لكني فيما بعد تساءلت أين ذهب ذلك القناص؟ هل هي فترة تبديل نوبات القتل؟ أم أنه ذهب ليتبول، وخلال دقائق تبوله سيسمح لآلاف الأرواح التي تنتظر سيارات الوقود، والمساعدات بالعيش من جديد أو أن مكالمة هاتفية جاءته من حبيبته، وراحا يتغازلان في ذلك الجو النيساني البديع، وربما دخل بحديث عن مفاخره، وهو يخبرها عن الرقم الكبير الذي قنصه اليوم من أرواح البشر، بل تخيلت أكثر من هذا، ربما اختلفا على تسمية الأولاد الذين سينجبونهم، أو عددهم، وكلما طال الخلاف

أكثر سيسمح لأرواح كثيرة أن تستمر بحياتها عبر ذلك المعبر الذي شغل بتلك المكالمة الهاتفية.

وعبرت أول سيارة كانت صغيرة من نوع سوزكي تستطيع التخفي جيداً بجوار الساتر الترابي العالي بالنسبة لها، جلس رجل قرب سائقها وفي الصندوق الخلفي كانت امرأة وطفل، ودون أية إضاءة مرقت كالسهم غير مكترثة بالحفر التي كانت تتقافز بها، وهي تجعر بكل ما فيها من قوة وانطلقت وراءها سيارة ثانية في عدد آخر من الركاب.

كان العم أبو عبدو جاهزاً وراء المحرك وكان دورنا كما قال السيارة رقم خمسة، وقد عبرت حتى اللحظة ثلاث بأمان الله... قال لي مطمئناً وكأنه رأى ارتباكي أو اصفراري:

- لا تخف أنت من جهة الساتر أي شيء يحدث لا سمح الله افتح الباب واحتم بالساتر، إذا سمعت صوت قذيفة اقفز فوراً. ثم استدرك:

- القذيفة التي تسمع صوتها لا تقتلك، التي تقتلك هي التي لا تسمع صوتها وضحك رغم صعوبة تلك اللحظات.

ولكن مرور السيارات الثلاث أمامنا كان كفيلاً بتهدئة روعي قليلاً ولأول مرة انتبه لمعنى أنت على اليمين أي أن السائق الذي على اليسار، والذي يبعد أقل من نصف متر عني هو في المكان الأكثر خطورة؛ لأنه قد يكون أبعد مني بنصف متر عن الساتر الترابي

في الحرب مقاييس الزمان والمكان تصبح بالغة الدقة فبين الثانية والثانية وبين الشبر والشبر مسافة واسعة للموت أو الحياة.

وقبل أن تنطلق سيارتنا، وفي الثلث الأخيرة من الطريق حدث ما كان يخشاه الجميع.... رشاشات كثيفة راحت تمزق السكون، سمعت أزيز الرصاص فوق رؤوسنا وخلال ثوان كنا منبطحين على الأرض،

وكأن الليل قد انسحب وبقيت غبشة تسمح لنا بتميز الناس حولنا كانوا يتصايحون:

يا لطيف! يا ستار! استر يا رب! وهناك رأيت السيارة الرابعة تشتعل النار فيها، وكأنها رميت بمواد حارقة لم انتبه لحمولتها حين مرت بجوارنا، ولكن على ضوء الحريق الذي مزق حجب الظلام رأيت رجال الإنقاذ يتسللون بمحاذاة الساتر، وراحوا ينقلون منها أشخاصا يمزق صياحهم القلوب بينما عمل آخرون على إطفائها، وفتح الطريق للسيارة الخامسة، والخامسة هي سيارتنا... لم يأتنا الأمر مباشرة بالانطلاق بل تأخر حتى تم التأكد من أمان الطريق من جديد، ربما القناص عاد إلى مكالمته بعد أن قنص السيارة، ربما اكتفى بها بعد أن صورها لحبيبته ليريها بطولته الخارقة، ومدى مهارته في صيد أولئك الناس الذين تشتعل النار في أجسادهم، دقائق لا أكثر وانطلق أبو عبدو نحو دقائقنا الحاسمة... كان بطلاً حقيقيا وهو يقول:

- يا رب توكلنا عليك...

ودعس ضغطة المازوت ليجعر الصهريج كمارد مرعب وينطلق مخترقاً الموت

قال إنها ثلاث دقائق، ولم تكن أكثر من ذلك في عقارب الساعة...

ثلاث دقائق في كل دقيقة ستون ثانية بين كل ثانية وثانية عالم شاسع تدور في فلكه تخيلات، ورؤى تتعثر بدقات القلوب الهلعة التي تهوي، وترتفع مع كل شبر تتقافز به جنون السيارة بين كفي أبو عبدو؛ الذي لا أستطيع أن أصفه إلا بالبطل، أطنان من الهواء كانت حبيسة في صدري ترفض الخروج مررنا بجوار السيارة المحترقة، وبقي أمامنا ظلام الثلث الأخير أي قرقعة لحديد الصهريج كان انفجاراً، أي ميلان كان انزياحا لمسار الأرض عن مدارها، كنت أرتجف بشدة، لم أشعر

بمثل ذلك البرد في حياتي، عيناي كانتا معلقتان بشفتي أبي عبدو المزمومتين بشدة كقبضتيه المعروقتين على المقود نظر إليّ بزاوية عينه وهو يهدئ من سرعته، زمن طويل مضى بين انفراج شفتيه وبين كلمة:

- الحمد على السلامة يا بني. رغم الظلام الدامس شعرت بالشمس قد غمرت أرجاء الكون وأولها داخلي الذي استرخى مطلقا غمامة الهواء الحبيس.

- وصلنا؟

همست وكأنني ألفظ أول كلمة في حياتي. أصبحت أنا في داخل حلب ولكن سيارات المساعدات بقيت تنتظر فرصتها في الخارج.

وسمعت العم أبو عبدو يقول:

- نحن الآن في الأمان.

أين مدينتي؟

نحن الآن في الأمان؟

هكذا قال أبو عبدو... كم تذكرت هذه الجملة التي كانت في لحظة ما بشارة ولادة بالنسبة لي، كم كانت مؤلمة حين كنت استعيدها وانا أتجول في شوارع حلب!

تلك الشوارع التي عرفتها منذ طفولتي... ولم أكن قد تركتها منذ زمن طويل هي بضعة شهور، لا أكثر ولكن كل شيء قد تغير هذه ليست حلب التي أعرفها...

تلك الشوارع التي أعرفها والتي كانت تعج بالحياة، تمور بالحركة، لا تكاد تجد فيها ممراً لقدمين بين زعيق السيارات، وأصوات الباعة هي الآن شبه خالية وكأنها مدينة أشباح

حتى الوجوه التي كنت أصادفها كانت غريبة كئيبة مغبرة، وكأنها قادمة من عوالم أخرى لا نعرفها.

خلال العشرين يوماً التي قضيتها في ذلك الحصار، والتي انقطع فيها المعبر الذي عبرناه في اليوم التالي لدخولنا، وبعد دخول سيارات المساعدة التي تخصنا، خلالها عرفت ما قد يعرفه الإنسان في عشرين سنة... تعمدت أن أزور الأحياء التي عشت فيها، وفي كل زيارة كان قلبي يتقطع، ليست الوجوه هي فقط التي رحلت بل المكان كله قد رحل... هنا كان دكان العم أبو علي، وهنا كان يجلس على كرسيه الخشبي كل صباح، ولكن الآن لا الدكان ولا الكرسي ولا أبو علي قد عاد موجوداً... هنا مكان هذه التلة الكبيرة من ركام البيوت المجروفة كانت ساحة كبيرة، كنا نلعب بها كرة القدم، أصبحت اليوم جبلاً من نفايات وركام حجارة، وقضبان حديد... وهناك أعرف بناية كان

يسكنها زميل لي... كنا نناديه من الشارع فيطل علينا من بلكون الطابق الثالث قبل أن ينزل إلينا، نعم كانت بناية من ثلاثة طوابق اليوم لا أرى إمامي إلا أسقفا متراكبة على أعمدة مكسرة تلامس طرفها الأرض، بينما الطرف الآخر مازال عالقا بقضبانه الحديدية...

لكن الأغرب من كل ذلك أن تلك المدينة والعابرون القلائل الذين صادفتهم كانوا لا يعرفون الخوف... كانوا يمشون في الشوارع مسرعين غير آبهين لهدير الطيارات التي تحلق فوقهم، ولا لأصوات الانفجارات التي تصم الآذان حين تنطلق من مكان قريب، كانوا يتابعون سيرهم وكأنهم في عالم آخر غير الذي يمشون فيه، أو كان ما يسمعونه حولهم لا يعنيهم وربما ما عاد لديهم ما يخافون عليه، كانوا يعيشون كل ما حولهم وكأنهم خارج المشهد كأنهم متفرجوا فلم من أفلام الرعب، وكل ما يحدث أمامهم مجرد تمثيل وتأكد لي هذا الشعور عندهم من خلال مجموعة أطفال رأيتهم يلعبون في إحدى الساحات قرب أكوام من القمامة، كانوا يلعبون لعبة أعرفها تسمى (الحاح) حيث يمسك كل منهم بعصا، وهناك عصية صغيرة على حفرة يقوم اللاعب بضربها ليبعدها إلى أقصى مسافة ممكنة، وله الحق في ضربها ثلاث مرات حيث ينقرها بطرف عصاه، فإذا ما ارتفعت قليلاً في الهواء ثنى لها بضربة ثانية، وينطلق كالسهم وراءها، ينطلق غير مبال بهدير حوامة فوقه ستلقي ببراميلها المتفجرة، أو بانقضاض طائرة السوخوي التي ستفرغ صواريخاً، كان هدير أغنية اللعبة يعلو على كل الأصوات وخاصة حين يوفق بضربة بعيدة المدى للعصا الصغيرة، فكان يقف ماداً قامته الصغيرة مبرزاً عضلاته الفتية، وهو يحدق مزهواً بفوزه نحو الطائرات صارخا وهو يشد قبضتيه : نحن الأبطال، نحن الأبطال، ويكرر الأطفال خلفه نحن الأبطال نحن الأبطال...

كتبت في دفتري:

كل الذي شاهدته أيام الحصار في حلب كان مؤلماً، ولكن الذي آلمني أكثر هو مطالب الناس هناك... وكان بعض المطلوب مني أن أعرف احتياجاتهم لإيصالها إلى الجهات الخيرية التي تستطيع مساعدتهم...

حلب التي عاشت عبر تاريخها الطويل سيدة التجارة والصناعة... وطبعت اسمها في الأسواق العالمية... ماذا يطلب أبناؤها اليوم؟

حلب تلك المدينة الحالمة دوماً التي كانت تسابق الفجر في استيقاظها تغط شوارعها اليوم في سبات عميق، وحين التقيت ببعض الناس، وسألتهم عن احتياجاتهم، كان الخبز والماء هو غاية أحلامهم.

كان يقول: لا نريد شيئاً كل ما نريده أن ترحل الطائرات، والقذائف أن تتوقف الحرب ونحن نتكفل بحياتنا...

الخبز كانوا يجففونه خوفا من الأيام القادمة، وخزانات الماء كانوا قد انزلوها عن الأسطحة حيث تتعرض للشظايا، ووضعوها أمام ما تبقى لهم من حطام بيوتهم...

في مشفى ميداني

بصعوبة كبيرة جداً استطعت الوصول إلى المشفى الميداني الذي مازال يعمل في الوقت الذي خرجت فيه أغلب المشافي عن الخدمة بعد قصفها... ورغم وجود صديق مرشد معي من أولئك الشباب الذين يعملون على خدمة الناس لوجه الله، لا جزاء ولا شكورا، ولولا السيارات المسرعة وزعيق أبواقها، وهي تتجه نحوه لما تمكنت من الوصول إليه، لأسباب كثيرة إضافة إلى الشوارع التي تغيرت ملامحها، وفقدت الكثير من أبنيتها، فالمكان الذي اختير له لا يمكن أن يخطر ببال أحد أنه مكان مشفى، إذ كان في حي متلاصق البيوت وقد دمر أغلبها حتى بناؤه لم يكن بناء مشفى، فهو ليس أكثر من بناء منزلي كبير نسبياً؛ مؤلف من طابقين أحدهما أشبه ما يكون بقبو أرضي، أو مستودع كبير... عرفت أنهم مجبرون على اختيار هذا المكان، وهذا البناء لأنه لا يلفت الأنظار إليه، وبالتالي هو أقل عرضة لقصف الطيران الذي يستهدف النقاط الطبية والمشافي الميدانية.

ولسوء حظي تصادف دخولي مع وصول سيارات نقلت مصابين تم إسعافهم من تحت إحدى العمارات.

كان يمور بالحركة كخلية نحل، يضج بالأصوات، وكأنك في سوق شعبي كانت أصوات المتألمين والجرحى الجدد تتداخل مع عويل أهاليهم، وخاصة الأمهات وأصوات الاستغاثات تقطع القلوب.

ومن أول خطوة تخطوها عبر بهوه (الصالون) إلى آخر غرفة فيه لا تجد مكاناً شاغراً لمريض، حتى الممرات تجد فيها جرحى ممددين وسط بركة من دمائهم، وقد انحنت عليهم ممرضة، أو متطوع يحاول إيقاف نزفهم ريثما يصل طبيب يكون مشغولا بجريح آخر، وكم من أم أو أب

يحمل حطام ولده، ويركض به هنا وهناك، باحثاً عمن يسعفه.

والذي لفت نظري هدوء العاملين فيه وفتور حركتهم مقارنة مع هيجان الناس، واستغاثاتهم وغليان دماء مرافقيهم... وعرفت قد اعتادوا هذه الحالات التي يعايشونها ليل نهار... فالقذائف والطيران لا يهدآن وقوافل المصابين لا تتوقف، وخاصة أن أكثر من مشفى ميداني قد قصف وأصبح خارج الخدمة

بعد أكثر من ساعتين استطعت أن أقابل الطبيب المسؤول كان رغم ابتسامته الواسعة التي استقبلني بها منهكاً يتصبب عرقاً، اعتذر مني بعد أن عرفته بنفسي وذكرته بالأصدقاء الأطباء الذين أرسلوني إليه.

جلس بإعياء على كرسيه، وهو يمسح عرقه بمنديل قماشي عن صلعته التي تمتد إلى نصف رأسه ولحيته الخفيفة، والتي ظهر شيبها الناصع مع أن ملامح وجهه لا يبدو منها أنه تجاوز الثلاثين بكثير:

- آسف تأخرت عليك كانت هناك عمليات إسعافية لا يمكن التأخر عليها

- وهل كانت النتائج جيدة إن شاء الله

- نحن نعمل ضمن المتاح، يا صديقي كما ترى نحن نتعامل مع الواقع ضمن الإمكانيات المتاحة، نعمل ما علينا نعمل واجبنا والباقي على الله

- أكيد قواكم الله لا شك أن أجركم عند الله كبير.

- أصلا نحن لا نطلب أجراً إلا منه هل تعلم أن اغلب الشباب والصبايا هنا متطوعون.

- لا شك ان لديهم خبرة سابقة في العمل الطبي

- بعضهم نعم وبعضهم دربناه هنا، لأننا أحيانا نحتاج إلى ضعف العدد الذي عندنا.

ابتسم متابعاً: هل تعلم أنّ بعض الممرضين هنا لم يدرسوا أكثر من معهد تمريض، وأصبحوا اليوم يعادلون أطباء مختصين في خبرتهم.

قلت موافقاً: من كثرة الحالات التي يرونها

- من كثرة الحالات التي تفرض عليهم، أحيانا يضطر أحدهم لإجراء عمل جراحي يكون صاحبه بين الموت والحياة، وإن لم يسعفه سيموت وكثيراً جداً ما ينجحون.

مطلوب منك هنا أن تنسى الكثير مما تعلمته في كلية الطب وإلا يموت الكثيرون بين يديك.

أتذكر حادثة طريفة في بدايات الثورة..

طُرق بابي بعد منتصف الليل، فقلت لنفسي يا ساتر يا رب، لا شك أن المخابرات قد جاءت لاعتقالي... وفوجئت برجلين ملثمين اندفعا إلى الداخل قبل أن أدعوهما إلى الدخول وأحدهما يقول:

- يا دكتور داخلين على الله وعليك. وحين أزاحا لثامهما عرفت أحدهما وكان من مرضاي من قرية مجاورة لبلدنا، وفهمت بعد جهد جهيد من تلعثمهما أن أخا أحدهما قد أصيب في المظاهرة بأكثر من طلقة في خاصرته، وأنهم لا يجرؤون على إسعافه إلى مشفى وإنهم يردونني أن أسعفه في البيت، حملت حقيبتي وعلى دراجة نارية وصلنا إلى المصاب.

وابتسم طويلاً تخيل أنهم كانوا يخبئونه في إصطبل الدواب خوفا من مداهمة قوات الأمن لهم، ويريدون أن اجري له العملية في الإسطبل.. لا تحليل ولا تعقيم ولا تفريغ معدة ولا غرفة عمليات، ولا هم يحزنون وأجريت العملية وتمت بنجاح، وهو إلى اليوم حي يرزق... الله هو الشافي.

وفهمت أنهم في هذا المشفى يعملون في ظروف مشابهة لظرف هذه

الحكاية.. لأني حين طلبت منه أن يكتب لي احتياجاتهم كتب أشياء كثيرة، أشياء يمكن بها تجهيز مشفى، بدءا من أجهزة التصوير الشعاعي والإيكو والتخطيط إلى علبة الكحول والقطن.

حين خرجت وألقيت نظرة أخيرة على المبنى خطر ببالي أن اكتب في دفتري

المشفى يحتاج مشفى بدءاً من المبنى إلى المعدات وانتهاء بالكادر الطبي.

مع فريق الإنقاذ

أيّ مكان تذهب إليه في الحرب تظن أنه المكان الأكثر تمثيلاً لهول المأساة، هذا ما ظننته حين سرت في الشوارع المقفرة المدمرة قلت في نفسي هنا تستطيع أن ترى الحرب بكل تداعياتها، وحين دخلت المشافي الميدانية اعتقدت أنها هي التي تجمع مآسي الحرب كلها، ثم غيرت رأيي وقلت إذا أردت أن تعرف هول المأساة التي يعيشها الإنسان في الحرب فاعمل مع فرق الإنقاذ فهناك ترى المصاب الجلل في لحظته الأولى، تسمع صرخة الألم الأولى، وترى لحظة الصدمة الأولى... فإلى اليوم لا أستطيع أن أنسى ذلك الرجل الذي كان يقف عاجزاً، ونحن نخرج له كامل أسرته شهداء من تحت الأنقاض... كان يوماً لا ينسى...

كان يوماً من أيام الحصار التي أجبرت فيها على البقاء في حلب وقد سدّت كل المنافذ التي تربطها بالعالم الخارجي...

تذكرت أن صديقي أحمد ابن منطقتنا، وزميل المدرسة ورفيق المقعد أخبرني بعد انقطاع بيننا لا أكثر من سنتين أنه قد انضم للعمل مع فرق الدفاع المدني التي تقوم بإنقاذ الناس المدنيين في حلب، أحمد

ذلك الصبي المتمرد المشاكس والجميل أيضا، كان لا يكلّ ولا يملّ من الحركة، لا تنقضي الحصة إلا وتوجه إليه عشرين ملاحظة من المدرس، وكثيراً ما تسبب لي بمشاكل نتيجة ثرثرته في الصف، لكنه كان محبوباً شديد الاندفاع لمساعدة زملائه، ولم يكن في دروسه كسولاً، ومنذ المظاهرات الأولى انقطع أحمد عن المدرسة؛ لأنه لم يكن يوفر مظاهرة إلا وسيكون في أولها يهتف على الأكتاف، وأصبحت صوره في كل الفيديوهات التي تنقل إلى النظام... وعرف أهله أنه سيعتقل فأخفوه عن أعين الجميع... وبعد مرور ما يقارب السنتين جاءني هاتفه وأنا على الحدود السورية التركية، كانت المرة الأولى التي يكلمني فيها بعد غيابه، وكانت الأخيرة، وعلمت منه أنه يعمل في حلب مع فريق الدفاع المدني، تكلم كثيراً كعادته، كان عاصفة كلام، فهمت منه أنه يعشق عمله ويعتبره جهاداً مقدساً، وكرر أكثر من مرة قوله تعالى (ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً) ورجاني أن أزوره في حلب، ووعدته أني سأفتش عنه حتى ألقاه في أول زيارة لي إلى حلب وحين سألته ما هو عنوانكم؟ ما زلت أذكر ضحكته، حين قال لي لن تفتش كثيراً عنا فنحن فريق الدفاع المدني أول من يحضر إلى الضربة، حتى البعض يقول إننا نعرف الضربة قبل وقوعها، وكأننا نفبركها كما يتهموننا في الأخبار، قال: انظر إلى المكان الذي تقصفه الطيارة ستعرفه من غمامة الغبار اتجه إليه، وتجدنا قد سبقناك... عنوان الدفاع المدني غمامة الغبار، وصدق أحمد، وصلت إليهم، ولكن لم أجده كنت قد تأخرت عدة أيام لا أكثر...

لم يكن الوصول إلى مقرهم صعباً لأنهم متواجدون في كل مكان فما إن تقصف الطائرة حتى تسمع سياراتهم تصفر كالريح باتجاه مكان الضربة قبل ان تنقشع غمامة الغبار عنها.

وصلت إلى مقرهم قبيل المساء كان جانب مدرسة قد قصفت، وأوقف التعليم فيها بعد أن تمازجت دماء تلاميذها بحبر أوراقهم، ولونت دماؤهم، وأشلاؤهم أوراقَ دفاترهم.

كان المقر قبواً أرضياً شبه مظلم، تتسلل نحوه أشعة الغروب من نوافذ مستطيلة بمحاذاة السقف، تفوح منه رائحة الرطوبة والجوارب وبقايا الأطعمة، وعشرات الأسرّة الحديدية تنتشر بمحاذاة الجدران والأعمدة وعلى تلك الجدران المتسخة كجدران السجون خطت ذكريات غير واضحة الحروف، وعلقت ثياب مترهلة وخوذات بيضاء من هذا المكان الرطب الأقرب إلى قبر جماعي كانوا ينطلقون كالريح ليهبوا الناس الحياة.

سألت عنه المكنى بأبي زيد رئيس الفريق، وكان أول من طلع لي مصادفة وكان أحمد من المقربين إليه، لم يجبني مباشرة لكني لمحت الجواب في دمعة كانت تترقرق في أعماق عينيه فهمت أنه استشهد منذ أيام لا أكثر أثناء عملية إنقاذ...

وبسرعة اتخذت قراري كعادتي سأعمل مع هذا الفريق مكان أحمد طالما أنا محاصر في حلب... وحين عرضت الفكرة على أبي زيد رحب بي لكن الذي حدث بعد مجيء بقية أعضاء الفريق من مهمتهم كان شيئاً آخر... فبعد أن قدمني أبو زيد إليهم، وأني سأعمل معهم تباينت وجهات نظرهم، بعضهم رحب بي، وبعضهم التزم الصمت مكتفياً بابتسامة محايدة، لكن ذلك الشاب الصغير والذي عرفته باسم جاكو استفز أعصابي فقد اظهر عداءه لي من النظرة الأولى، واستنكر وجودي بينهم، سألني مشككاً وكأنه يستهزئ بقدرتي:

- هل تعرف خطورة العمل معنا؟

قلت مبتسماً:

- أتعلم منكم.

- ولكن نحن قمنا بدورات على هذا العمل.

- أعمل ما تطلبونه مني.

- قال بنبرة عدوانية

- أنت ستعيق عملنا وتعطلنا ثم إننا لا نعرفك ما أدرانا أنك تعمل لصالح الـ... وغمز بعينه وضحك بسخافة ضحكة طويلة حاول بها استضحاك الآخرين.

شعرت بغيظ يسري في عروقي نحو هذا الصبي، كان صغيراً لا يتجاوز السابعة عشرة حتى ملامحه كانت طفولية، لكن في أعماق عينيه لمحت خبثاً يتناقض مع تلك الملامح الرقيقة، تمنيت لو انقض عليه وامسك بتلابيبه واصرخ به:

- لماذا تريد منعي من المشاركة في إنقاذ الناس؟ لست أفضل مني؟ أنا قمت بالكثير من الأعمال الإنسانية وأخدم الناس أيضا... ولكن صوت أبي زيد الغاضب حسم الموقف حين صرخ به مهدداً:

- جاكو

فيقطع ضحكته الهستيريه وكأنه صفعه على فمه وتابع أبو زيد:

- هذا صديق الشهيد أحمد، وأنت تعرف من هو أحمد، لماذا تشكك به؟ أحمد رحمه الله كان أفضلنا وأشجعنا

وسررت همهمات بين الشباب تترحم على روحه بينما تابع أبو زيد:

- ثم تذكر يا جاكو هذا ليس عملك تقبل الناس أو لا تقبل، هذا عملي أنا.

لحظتها ما كان من جاكو إلا أن انسحب إلى سريره في زاوية بعيدة، ليخرج موبايله ويبدأ اللعب به دون أن ينطق بكلمة، وسحبني أبو زيد من يدي طالباً مني أن لا أهتم وأن اغفر له شكه لأنهم ينضم إليهم

أحيانا من يكون عميلاً للنظام.

- قلت له أعرف هذه الحالات

قادني إلى سرير فارغ، وقال هذا سيكون سريرك طيلة ما أنت معنا لم أسأله من هو صاحب السرير، وكأنني قد عرفت لم يكن عليه سوى فراش إسفنجي داكن اللون، وخوذة بيضاء معلقة على الجدار فوقه، لكني شعرت أنها خوذة أحمد.

وحين جلس بجواري سألته كيف استشهد أحمد؟

تنهد تنهيدة طويلة وختمها بآه طويلة:

- كان رحمه الله مندفعا جداً دمه حام، يغلي دائماً، كان دائما في البداية في الأول قبل الجميع...

حكى لي كثيراً لكن لم أسمع إلا القليل، كنت أتذكر ملامحه وشيطناته المرحة ومشاكساته، صوره على الأكتاف يهتف في المظاهرات، وكان أبو زيد يحكي عنه بنفس الحسرة التي أتذكره بها، ويحاول من خلال حديثه أن يعطيني بعض مبادئ العمل في الإنقاذ سمعته يقول:

- كنت دائماً أقول له يا أحمد إن سلامة الفريق هي الأهم في عمل الإنقاذ لأن الفريق إذا قصف إثناء العمل هذا يعني موت الجميع، لكنه لم يكن يسمع الكلام، فغالبا ما تعود الطائرة إلى قصف المكان نفسه الذي قصفته مستهدفة فرق الإنقاذ، والتجمع الذي سببه القصف الأول... وهذا ما حدث كنا ننقذ أسرة، وكاد احمد يصل إلى طفل لا يزال حياً بين الأنقاض، وصل إلى يده كما كان ينادي، حين أخبرونا أن الطيران قد عاد، وهنا يجب علينا مغادرة المكان، والاحتماء بأقرب مكان لكنه لم يغادر بقي ممسكاً بيد الطفل العالق بين الأنقاض، وحين عدناه وجدناه قد احتضن الطفل الذي لا يزال حياً لكنه قد استشهد...

ما كاد أبو زيد ينهي قصته حتى بدأت القبضات اللاسلكية المنتشرة بين أيدي الجميع تصرخ:

مروحي براميل باتجاه منطقة العمل مروحي براميل... وكررت الجملة كثيراً ولكن أعضاء الفريق كانوا كأنهم لا يسمعون، وربما اعتادوا سماع هذه الجمل، والتحذيرات ولكن كأن الجميع قد لسعوا وهبوا واقفين حين قال: --- حلب يا حلب المروحي نفذ.

ومع كلمة نفذ كانت الخوذ البيضاء قد أصبحت على الرؤوس، وكان أبو زيد أولهم قلت له سأذهب معكم قال:

- اليوم استرح أنت هذه الحالة مستمرة دائماً، دائماً لدينا عمل دورك غداً وضحك وهو يقول:

- لا تخف الشغل كثير مع الأسف...

نمت تلك الليلة في سرير الشهيد، وفي ظلام ذلك المهجع كان وجهه يحوم طارداً النوم عني بعيداً، تخيلت ابتسامته التي لم تكن تفارقه مضرجة بالدم الذي يغطي وجهه، وهم يسحبونه من تحت الأنقاض، لا أدرى متى غفوت وأنا أتذكر آخر كلماته.

(ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً) في أول غفوتي رايته محلقاً في غابات خضراء، فوق قصور مرمرية تجري من تحتها الأنهار...

*****

حقاً (الشغل كتير) هدير الطائرات لا ينقطع، والقبضات لا تسكت، والموت يسكن كل مكان في تلك المدينة المحاصرة.

ورغم أني لم أنم جيداً الليلة الماضية، كان اليوم التالي يوماً حافلاً بالمآسي وكان يوم جمعة... استيقظت على جلبة الفريق، وهم يرتدون ثيابهم واغلبهم كان ينام بكامل ثيابه، كانوا يتصايحون مستنفرين بعضهم بعضاً، ورغم أني لم أسمع صوت القبضات إلا أني فهمت أنهم

متجهون إلى ضربة في مكان ما... لم تكن الشمس قد ارتفعت كثيراً ومازال الصباح يلسع الوجوه التي مازال النوم يغشاها بنسمات نيسان الباردة... ارتديت الخوذة التي كانت معلقة فوق سريري، وانطلقت خلف أبي زيد الذي قال لي تعال معي....

مسح سماء المدينة بعينيه كان الدخان يتصاعد من ثلاثة أماكن ليست بالبعيدة كثيراً عن مرمى أعيننا... انطلقنا في أكثر من سيارة واتجهت كل واحدة إلى نقطة من النقاط الثلاث التي حددها أبو زيد والمراصد الاخرى، كنت في سيارته... وكان معنا ذاك المدعو جاكو، وصلنا إلى حي قديم من تلك الأحياء المبنية عشوائياً والمدمرة خارج التنظيم، والتي تنتشر في منطقة الشعار وطريق الباب كما توقعت، عبرنا شارعاً كل البيوت عل جانبه مهدمة، وكان البيت الذي قصف قديما يتألف من ثلاثة طوابق تسكنه أسرة واحدة، أب وامرأته وأطفاله الخمسة وأبوه وأمه العجوزين.. هذا ما فهمناه من ذلك الرجل الذي كان يصرخ بأعلى صوته:

- يا رب يا رب... الله أكبر راحوا كلهم راحوا.

ومن الجيران الذين راحوا يتجمعون عرفت انه صاحب البيت

لم يكن الأطفال هم الذين يصرخون بل كان الجميع يصرخ، ولكن لا تكاد تميز كلمة حتى الدار أو البناء المقصوف لا يمكن أن تعرف إليه مدخلاً بناية قديمة مكومة بأسقفها الثلاثة، السقف الأخير كان طرفه الأمامي ملاصقا لأرض الثاني والطرف الخلفي مازال عالقا في الهواء ممسكا بأعمدة عارية من أكثر الجدران التي تهدمت، وكذلك الطابق الثاني كان منهاراً على الأول والدرج الذي يصلهما كان معلقاً في الهواء، تسلق رفاقي الركام المندفق إلى الشارع نحو الطابق الثاني مباشرة وفعلت مثلهم كانت الجدران قد تداخلت ببعضها وسدت الممرات،

التي يمكن أن ندخل منها، وبعضها الآخر كان منقذفاً إلى عرض الشارع، تراجع الجميع كما طلبنا منهم إلا ذلك الرجل الأربعيني الذي كان يضرب بكلتا قبضتيه على رأسه ويصرخ من أعماق محترقة بكلمة واحدة تكاد تمزق القلوب:

- يا الله يا الله يا الله كلهم راحوا.

ويركض باتجاه كومة الدمار، يحاول أن يزيح قطع الاسمنت، ثم يرتد خائباً ليضرب رأسه من جديد ويصرخ مستغيثاً.

- يا الله... يا الله

عرفت أن هذا الرجل هو صاحب البيت الذي يختنق تحت ركامه تلك اللحظة أبواه العجوزان وزوجته وأطفاله الخمسة... وقد شاءت الأقدار أن يخرج لحاجة ما من البيت قبل قصفه بنصف ساعة لا أكثر، ربما ليأتيهم بطعام الإفطار... كان يصرخ:

- يا ريت كنت معكن يا ريت متت وما طلعت مين بقي لي يا الله.

كان الفريق يعمل بهمة ونشاط منقطعي النظير، رغم الأدوات البسيطة التي يستعملونها، وكنت أعمل معهم، وقد قال أحدهم حين رأى ارتباكي:

- أعمل مثلما أعمل

ورغم النشاط والهمة العالية، كانوا يعملون بحذر شديد خشية انهيار كتلة إسمنتية على من بقي فيه شيء من الروح تحت تلك الأنقاض، ولفت نظري جاكو؛ جاكو الذي كرهته بالأمس وتمنيت أن أطبق كفي على عنقه؛ كان يزيل الركام ويبحث هنا، وهناك دون أن يفتر عن الحركة شعرت ساعتها أني ظلمته، فهو يعمل وكأن الذين تحت الأنقاض هم أهله وأخوته، وكان صوته لا يكف عن الصياح بكلمات تثير الحمية وتحفز العزيمة:

- يا لله يا شباب تعالوا إلى هنا، روح أنت إلى هناك بسرعة يا أخواتي بسرعة.

ويصرخ بالرجل الذي ينتف بلحيته ويضرب رأسه:

- وكل الله يا عمي، إن شاء الله سنخرجهم ان شاء الله أحياء قول يا رب... ادعيلنا..

سنخرجهم... سنخرجهم! أكثر من ساعة، ولم نخرج أحداً، ثم فتح أمامنا ممراً حين رفعنا بقايا جدار من الطريق زاحفين، وهناك عثرنا على جثتي الجد والجدة. ووفي الوقت نفسه رأى أحدنا الطفلة الأولى، وقد قذفت إلى سطح الجيران جثة هامدة... وجاءنا التحذير من القبضات بإخلاء المكان لان الطيران قد عاد ليقصف المنطقة من جديد...

بعد ساعات من العمل والكر والفر بين الغارات المتتالية صاح أحد أعضاء الفريق من زاوية بدت بعيدة من خلال صوته المخنوق طالباً المساعدة فهمنا أنهم وجدوا بقية الأطفال كانوا ثلاثة ينامون بجوار بعضهم كأنهم لم يستيقظوا ذلك الصباح ماتوا خنقا تحت السقف قبل أن يستفيقوا من أحلامهم...

ستبقى صورة ذلك الأب محفورة في خيالي طيلة العمر.. كان يقف قرب كومة الركام التي كانت داره يتابع برموش لا ترف جرافة التركس، وهو يجرف الأنقاض باحثاً عن عضو يلوح له متدلياً مع كل جرفة... وبين الآونة والأخرى يأتي ليعد الجثث على أصابعه، وكأنه فقد عقله، وهو يقول: مشيراً إلى الأكياس: هدول خمسة أمي وأبوي ورغد وعبدو وفاطمة سحر وين ومنير وين... هدول خمسة لسا في اتنين ومرتي. ويعاود العد من جديد ناسياً أن الطفلة الأولى التي وجدناها على السطح الذي حلقت اليه نقلت إلى المشفى...

وهناك في عمق الركام قرب بقايا درج دائري يظن أنه يؤدي إلى

الطابق الأول سمعت ما يشبه الأنين، أصخت السمع أكثر، إنه أنين متقطع مخنوق يأتي من الأسفل، وتجمعنا لنبحث في كيفية الوصول إلى مصدر الصوت.

دقائق من الحفر ولاحت من خلال قضبان الحديد وكتل الإسمنت فجوة تؤدي إلى ما يشبه المطبخ وامرأة متكومة هناك وراحت رائحة غاز تملأ المكان..

رد أبو زيد على أنين المرأة بصوت عال:

- أمي لا تخافي لا تخافي وصلنا إليك وصلنا.

وتساءلت كيف نصل إليها عبر هذه الفتحة الصغيرة التي يتشابك حديدها كشبكة العنكبوت وكرر بأنفاس لاهثة، وهو يدق قطع الإسمنت بمطرقة ثقيلة ليخلصه من الحديد.

- وصلت إليك وصلت... لكن المسافة كانت لا تزال بعيدة ورائحة الغاز بدأت تطغى على أنوفنا...

وفجأة بدأت القبضات اللاسلكية بالصياح:

روسي حربي دخل منطقة العمل... فض التجمعات... أكثر من حربي روسي داخل حيز التنفيذ...

لم أفهم الكثير، ولكن يبدو أن المنطقة التي كنا نعمل فيها كانت مستهدفة لأن الجميع، وبسرعة البرق كانوا يتقافزون خارج المبنى، من أكثر من جهة وكنت معهم أفعل ما يفعلون كان هدير الطائرة في السماء يكاد يمزق الأسماع، رأيتهم يفتحون دكاناً، سحبوا بابه الكبير للأعلى وخلال ثوان كنا في الداخل، وأنزل علينا الباب كدت أقول لهم: لقد تركنا المرأة حيّة تكاد تختنق برائحة الغاز ولكني تذكرت كلمة أبي زيد البارحة:

سلامة الفريق أهم من أي شيء... لو أصيب الفريق سيموت الجميع...

وجدنا أنفسنا في ظلمة الدكان، ولم يكن دكانا كان مستودعاً فارغا من الداخل وقد ركنت في زاويته دراجة ذات عجلات ثلاث وصندوق قديم.

سألت الذي بجواري، وقد لفت نظري حين كنا نركض نحو الدكان لنحتمي به وجود أكثر من شخص كانوا يتحلقون حول البناية:

- هؤلاء لو ساعدونا لأنجزنا العمل بسرعة أكبر كانوا يتفرجون علينا.

قال لي لو طلبت منهم المساعدة ستسمع جواباً غريباً

سيقولون لك: هادا مو شغلنا هذا شغل الدفاع المدني

- ولكن يستطيعون المساعدة ويد الله مع الجماعة

- لا يا أخي هؤلاء يتقدمون للمساعدة في اللحظات الأخيرة لحمل فتاة أو امرأة وربما تبدأ مساعدتهم بعد انتهاء عملنا وانصرافنا في التنقيب عما يسرق من البيت...

- لم افهم

هؤلاء لصوص لصوص، لا دم فيهم، ولا أخلاق، ولا إنسانية ينتظرون خروج امرأة من تحت الأنقاض ثم يهبون إليها بحجة المساعدة ليسلبوها وهي ميتة إسوارة، أو خاتماً، هؤلاء ينقذون الذهب لا الأرواح، لصوص.. هل فهمت؟

يا إلهي كم هي كبيرة تناقضات أخلاق البشر، ففي الوقت الذي يضحي فيه فريق بروحه لانقاذ روح؛ هناك من يتربص بجثة ليسلبها ذهبها...

في الوقت الذي كان فيه الباب يرتج ويقرقع كأنه سيقع علينا من هول الانفجار القريب، كان أحد أعضاء الفريق يصعد صندوق الدراجة ويبعد شاشة جوالة إلى امتداد ذراعه ويقول ضاحكاً سنتصور سيلفي الوداع.

لم أستغرب كيف ضحكوا جميعاً فالموت عند هؤلاء الشباب فقد رهبته، فقد هيبته بحكم المجاورة والمعاشرة، إنهم يعيشون معه جلّ أوقاتهم حقاً كانوا أبطالاً! كم تمنيت أن أبقى معهم!

ودوى الانفجار الثاني كأنه أمام الباب في الشارع، وقبل أن يهدأ تماماً حاول أحدهم أن يرفع الباب السحاب، فسمعنا ارتطام الشظايا على أرض الشارع فعاد وأغلقه بسرعة...

وأعلنت القبضة من جديد:

- أن الحربي قد أعلن أنه انتهى وفي طريق العودة... وفوراً كان الجميع يتقافزون متسلقين البناية المكومة من جديد، وكان شيئاً لم يحدث، وكان أبو زيد يتحدث على القبضة طالباً من القسم الثاني من الفريق أن يتوجه إلى مكاننا فوراً.

ظننت أنه يريدهم لمساعدتنا ولكن علمت فيما بعد أن طرف الشارع الذي نعمل فيه قد قُصفتْ ثلاثُ بيوت متجاورة منه...

كان المكان خالياً إلا من الغبار الذي يكاد يحجب الرؤية، والذي أدهشني وجود صاحب الدار في المكان الذي تركناه فيه لم يتزحزح من مكانه رغم الصواريخ التي تساقطت حوله، وقدر الله ألا تصيبه... كان يحاول الوصول معنا إلى الفتحة التي على زوجته وهي تختنق في فجوتها، أبعدناه لنكمل عملنا، فعاد إلى أكياس الجثث ليعدّها بالأسماء من جديد:

- سحر... أبوي أمي...

وكان أول ما فعلوه أنهم أنزلوا إليها خرطوما من جرة أوكسجين كي لا تختنق.. وكم كان الوصول إليها صعباً؛ لأنه لا يمكن استعمال أية أداة كهربائية لقص الحديد، فأية شرارة ستشعل الغار المتسرب... ورغم هذا وبإصرار عنيد قاموا بقصة بمناشير عادية تناوبوه عليها دون انقطاع ثانية واحدة، ثم نحوه جانباً ونزلوا إليها.

كانت لا تزال على قيد الحياة لكنها محطمة من الحوض وما دونه، حملوها بطريقتهم الخاصة، شاركتهم في حملها عبر الممر، سمعت زوجها يلهث خلفنا ينادي بصوت متهدج: ستروها يا بني ستروها

وحينها اقترب الرجال الذين كانوا يتحلقون حول المكان لمساعدتنا في حمل الامرأة والجثث إلى السيارة، سمعت رفيقي الذي حدثني عن اللصوص يصرخ بهم مزمجراً:

- ابقوا بعيدا، مشكورين سلفاً جزاكم الله خيراً.

وحين تقدم أحدهم، وكأنه لم يسمع صاح به بنبرة حديدية:

- قلت لك ابتعد لا نريد مساعدة أحد

- دعني أساعدكم

- ابتعد وإلا قطعت رأسك بهذا المنشار، ووضعتك في كيس وحملتك معهم... هل تفهم؟

عندها رأيته يتراجع مرتعداً وهو يقول:

- أحببنا نعمل خير.

التفت إليّ رفيقي وقد رآني أتابع حوارهما وقال:

هذا الشخص أراه في كل مكان نذهب إليه لإنقاذ الناس، واعرفه جيداً من قبل كان يسرق الكحل من العين...

وسمعت المرأة المحمولة تهمس بصوت لا يكاد يسمع

- أولادي أولادي وين أولادي

- بخير يا خالة بخير إنهم ينتظرونك...

وسالت نفسي أين ينتظرونها؟

لا شك أنهم سينتظرونها في الجنة وقد تلحق بهم قريباً...

وبينما كنا نعبر ركاماً في إحدى الغرف لمحت ما يشبه قدم طفل مدفونة عدا أصابعها الناعمة وبدأت فوراً الحفر حولها إلى أن ظهر

جسدها الطري البارد كان نصف رأسها الخلفي مهشماً، وانتشلها صديقي وكنت وراءه.

لأول مرة **أنا والموت وجهاً لوجه**... الموت الذي أخافه أراه مجسدا في طفلة مهشمة الرأس مكسرة العظام... لم يكن إليه أقرب مني دفعها إلى حضني ليتابع طريقه بين الأنقاض وهو ينادي:

- طالعنا البنت في حدا كمان؟؟

دارت الدنيا بي لم أعد اسمع شيئاً جسد الطفلة البارد كالثلج بين يدي ورأسها المضرج بالدم، والتراب يتدلى مع شعرها المجدول بضفيرة واحدة.

سمعت كلمة:

- خذها إلى الخارج... واستدرت متعثراً بأكوام الحجارة قدماي تنزلقان يمنة ويسرة لكنهما تتحركان، أما قلبي فكان يخفق بشدة، حتى ظننت أنه سيتوقف... تجاهلت النظر في وجه الطفلة، لم أكن أعرف هل جسدها هو الذي يخفق أو نبض يدي التي تحملها.

- أحد الرفاق رأى تخبطي وأنا لا أكاد أتبين طريقي وكباشق انقض على ساعدي واختطف الطفلة مني.

- هات عنك هات عنك

لم اشعر بثقلها قد انزاح عن ساعدي فحسب، بل شعرت بكل ذاك الركام ينزاح عن صدري، لتبدأ دقات قلبي بالعودة إلى هدوئها رويداً رويداً، وعرفت أن يدي هي صاحبة النبض وليس جسد الطفلة الميت، كانت المرة الأولى التي أحمل فيها جسداً فارق الحياة...

انطلقت سيارة الإسعاف التي تعلق الأب بها وقلبي يكاد يتقطع لبكائه ومناشدته الله أن ينتقم له...

رأيت الفريق يتجه إلى طرف الشارع حيث رمت الصواريخ حمولتها

والتقينا ببقية أعضاء فريقنا الذين كانوا قد انفصلوا عنا في الصباح لإطفاء حريق...

أخبرونا أن الضربة هنا لم تحدث خسائر بشرية... وأنهم تفقدوا البيوت الثلاثة، وكلها من دور واحد وكانت خالية تماماً، ومع هذا راح أعضاء فريقنا يقفون على مدخل كل دار من الدور وينادون بأعلى صوتهم:

- في حدا هون؟ وحين لا يجيبهم إلا الصدى ينتقلون للدار التي تليها

وقبل أن أتخيل ان هذه البيوت قد هاجر سكانها عرفت الجواب من البيت الرابع الملاصق لها؛ حين جاء بعض الرجال من هناك يدعوننا لنستريح عندهم ونتناول معهم طعام الإفطار الذي كان جاهزاً، ولأسمع حكاية أخرى عن لطف الله وحمايته لأولئك الناس العزل، تحت إجرام الطائرات الهمجية... أناس اعتادوا الموت، وما عادوا يخافونه حتى إنهم تابعوا إفطارهم بعد أن بدلوا الصحون التي امتلأت غباراً لا أكثر.

سكان البيوت الأربعة المتجاورة هم أخوة اشتروا قطعة الأرض تلك وبنوا فيها بيوتهم ليبقوا أسرة واحدة لا تفصل كل بيت عن الآخر سوى جدار واطئ.

واعتادوا كل يوم جمعة أن يتناولوا الإفطار معاً في بيت واحد منهم، وهذا اليوم كان دور كبيرهم الذي يقع بيته أول البيوت في طرف الشارع

وحين جاءت الطائرة المحملة بالألغام البحرية، وزّعتها على امتداد الشارع كانوا جميعاً هم وزوجاتهم وأولادهم على سفرة الإفطار، كان عددهم يزيد على الثلاثين رجالاً ونساء وأولاد... سقطت الألغام على البيوت الثلاثة الأولى ونجا البيت الرابع كانت سفرة الإفطار لا تزال ممدودة تملا المضافة الكبيرة... قال كبيرهم لنا:

- من له عمر لا تقتله شدة، لنا ولكم نصيب في هذا الطعام تفضلوا

يا إلهي في أي عالم يعيش هؤلاء الناس؟ إنهم متأقلمون مع كل ما حولهم إيمانهم بالقضاء والقدر راسخ رسوخ الجبال.

حين عادت بنا السيارات إلى مقرنا كان رجال الإطفاء يروون حكاية أخرى من حكايات البطولة ختموها بقولهم:

- أنقذنا سبعة من الحريق ومات الثامن قلت في سري:

- سبحان الله ونحن أنقذنا واحداً ومات سبعة

أي عالم هذا؟

لماذا كل هذا القتل لمصلحة من؟؟؟؟

*****

جاكو

جاكو ذاك الصبي الذي كرهته من النظرة الأولى، ثم أحببته حين رأيت اندفاعه وشهامته ولهفته لإنقاذ الناس، كان حكاية أخرى تمنيت لو لم أعرفها.

بدأت تلك الحكاية حين عملت مع فريق الإنقاذ واستنكر وجودي معهم بل وشكك بنواياي، وانتهت بعد سنة تقريباً حين أرسل إليّ تهديده بالقتل...

حين عدنا بعد الظهر ذلك اليوم المضني إلى مقرنا بعد ساعات طويلة من العمل الشاق تمدد كل منا على سريره، وكنت أكثرهم تعباً لأني لم أعتد هذا النوع من الأعمال المرهقة... يبدو أني كنت أولهم استغراقا في النوم بينما كانوا حولي يتضاحكون، وكأنهم ليسوا هم الذين كانوا على تماس مباشر مع الموت قبل قليل... ويحكون أحداث اليوم كل على طريقته، نمت لساعة واستيقظت، منهم من كان نائماً،

ومنهم من يتابع جواله صامتاً... أما جاكو فكان منزوياً في زاويته التي اختارها بعيدة عن الأسرة الأخرى يدق جواله براحة كفة لاعناً الذي باعه إياه... نهضت إليه، وكانت محاولة مني للتودد إليه بعدما رأيت من تفانيه في عمله.

اقتربت منه محاولاً معرفة المشكلة في جواله؛ علني أساعده في حلها خاصة وأني امتلك خبرة لا بأس بها في الجوالات لكثرة ما بدلت من أجهزة... ولكن ما إن شعر بي وبعيني تسقطان على شاشة موبايله حتى جفل، ونظر إليّ بجفاء، وهو يزيح الجوال جانباً.

قلت في نفسي لعله لازال مستاء من البارحة، وخاصة حين عنفه أبو زيد لتطاوله علي في الكلام.

قلت له:

- إذا كان عندك مشكلة فلربما أستطيع حلها لك عندي خبرة في الموبايلات

نظر في عيني نظرة الشك ذاتها، وأبدت ملامحه وخاصة ابتسامته الساخرة استنكاراً لوجودي كلّه، وسألني وكأنه يريد اختباري:

- أريد إرسال مقطع فيديو لكن الموبايل لا يستجيب.

- على أي برنامج تعمل؟ ربما حجمه كبير؟

- قال بجفاف: ربما

- ولكن بإمكانك ضغط الملف

- نظر اليّ باهتمام وسألني:

- كيف؟

- تستطيع ضغط المقطع ليصبح حجمه أقل. كرر سؤاله:

- كيف؟

- عن طريق برنامج ضغط الملفات ومددت يدي وقلت بكل بساطة:

- هات جوالك وأنا أنزل لك البرنامج.

وهالني حينها رفضه أن يسلمني جواله بل تمسك به بشدة، وقال أنت علمني الخطوات وأنا أقوم بتنزيله...

لم انتبه يومها لرفضه الحاد وخوفه من تسليمي جواله...

وحاولت بعدها أكثر من مرة أن أتقرب إليه وخاصة أنه كان يبقى غالباً وحيداً منزوياً في زاويته، وقالوا لي أن مقرهم قد استهدف مرتين ولم يكن جاكو موجوداً كان يغيب لساعات ولا أحد يعرف أين هو؟

ازداد فضولي لاختراق خلوته ومعرفة ما وراء تلك الملامح الطفولية البريئة وكلما كنت أحاول الاقتراب منه أكثر؛ كان يزداد نفوراً مني إلى أن جاء ذلك اليوم الذي صرخ في وجهي:

- أنت ماذا تريد مني؟ من الذي سلطك علي؟

استغربت عصبيته حينها لأني لم اطلب منه إلا أن يدلني على بيوت الناس المحتاجين في الحي كونه أقدم مني معاشرة لهم. وصرخ:

- من قال لك أني مختار الحي وأجمع معلومات عن احتياجاتهم

- أنا لم اقل ذلك لكنك أقدم مني هنا. وتركته ومشيت

ما هي إلا أيام حتى قصف المقر من جديد، وفي الوقت نفسه الذي اختفى فيه جاكو... غادر المقر قبل قصفه بساعة ولم يعد أبداً

لم يعرف عنه أحد شيئاً إلى أن جاءتني منه تلك الرسالة الغريبة على الواتس آب رسالة من رقم لا أعرفه تقول:

- (كنت تظن نفسك ذكياً وتريد كشفي... انتظرني لابد أن نلتقي ونتحاسب)

ثم تلت الرسالة صورة شاب بلباس عسكري يستعرض عضلاته وسلاحه.

لم أعرف صاحبها في البداية، وحين كبرتها أكثر قرأت على كتف

البدلة العسكرية المموهة كلمة "الحرس الجمهوري" وحين تأملت ملامح الوجه القاسية والشرسة راحت ملامح جاكو الطفولية البريئة تطفو على وجه الصورة.....

إنه جاكو عاد إلى أحضان النظام الذي أرسله عميلا له

*****

ليلان ينتظر أمَّهُ

ليلان واحد من آلاف الأطفال الذين يجلسون وراء أبواب المنازل... وراء أبواب الحياة ينتظرون عودة من رحلوا دون عودة

عرفته هناك في حلب أيام الحصار خلال إحدى جولاتي التي كنت أقوم بها محاولاً أن التقي الناس، وأعرف همومهم، ومعاناتهم واحتياجاتهم

هناك وراء ركام الزقاق القديم، والذي عبرناه بصعوبة أنا ومرشدي إلى تلك الدار "العربية" القديمة كباقي الدور المحيطة، والتي تتميز بأسوارها العالية وبقايا نباتات الزينة التي كانت تتسلق جدرانها قبل أن تتيبس مع أزهارها المصلوبة عليها، هناك في آخر زقاق مسدود كان ذلك الباب الخشبي العتيق ينتظرنا بطراقته النحاسية الفخمة، وبزخارفه المحفورة بدقة وفنية عالية، والتي تدل على غنى وبذخ كان ينعم به أهل هذه الدار التي ترقد اليوم في مستنقع الدمار، وذلك الهدوء الحذر يلف المكان في تلك الساعات الأولى من الصباح

سألت مرافقي الذي أرشدني إلى تلك الدار:

- كأن الحارة مهجورة؟

قال وهو يقطع كومة من ركام أحد الجدران التي تكاد تقطع الزقاق:

لا... ولكن أغلب سكانها هاجروا فهذه بيوت قديمة جداً، أثرية ضمن المناطق المحظور هدمها، وإعادة بنائها لأنها تابعة للآثار العالمية، وهي لقدمها يكمن أن تنهار مع هدير أي طائرة تفتح جدار الصوت قبل أن تقصفها، ولذلك خشي سكانها انهيارها على رؤوسهم فغادرها

بعضهم مهاجرين إلى مناطق أخرى وبعضهم إلى الخارج ودفن قسم آخر منهم تحت ركامها.

ابتسمت في سري من كلمته هي تابعة للآثار، وممنوع هدمها وأنا أرى عشرات الأسقف حولي تتدلى في الهواء كاشفة أعمدتها الخشبية وعورات البيوت وراء جدرانها التي انهارت أكواما في الزقاق الضيق، بينما صديقي يتابع:

- هذا البيت يسكنه رجل كان ابن عز ونعمة لكنه الآن عاجز، ومعدم ما عاد له من مورد إلا من أهل الخير، وضعه أصعب بكثير من العائلات التي زرناها البارحة.

ومدّ يده إلى الطراقة النحاسية التي دوت في هدوء الزقاق بصوت حاد يتبعه صدى حنون عابق برائحة الماضي.

طرقة... اثنتان... وقبل الثالثة فوجئنا بصرير المفاصل الصدئة وفتح الباب... وكأن من فتحه كان وراءه تماما ينتظر قدومنا... وللوهلة الأولى لم أرَ من يقف وراءه وكأنه فتح من تلقاء نفسه، ولكن حين أنزلت عيني رأيت ذلك الطفل الذي ينظر إلينا بملامح ممتعضة، كان يقف أسفلنا بجسده الصغير، وقامته القصيرة يرفع عنقه إلى الأعلى كي يرى وجهنا..

والغريب حين قال له صاحبي:

- مرحبا يا حلو...

رمانا بنظرة خائبة وهو يهز رأسه يمنة ويسرة ثم يرفعه بعنقه نحو الأعلى وكأنه يقول: لا لا لا أريد...

وكأن وجوهنا لم تعجبه، رأيت ذلك على شفتيه الصغيرتين المشمئزتين ودون أن ينبس بأي حرف أدار لنا ظهره ومضى داخلاً تاركاً الباب وراءه مفتوحاً... وحين ناديته:

- حبيبي أين أهلك؟ التفت نحوي بعصبية ونبر في وجهي:

- ماما مو هون. عندها رأيت عينيه تفيضان بدمعتين مقهورتين، هبطتا على خديه الناعمين ومع هبوطهما شعرت بقلبي يهبط إلى قدمي.

وجاءنا صوت رجل من الداخل، صوت ضعيف مبحوح:

- مين على الباب يا ولد

لم يجب الطفل بينما تنحنح صاحبي، وهو يقول معلماً بوجودنا

- يا الله يا الله

ورد الصوت من الداخل:

- تفضلوا... تفضلوا يا مرحباً انتهوا فقط من سقف الرواق يكاد يقع

نظرنا فوقنا كان السقف مفتوحا على السماء بفتحة واسعة تتهدل منها عيدان خشبية كانت سقفاً، وكتل ترابية عالقة بحجارة وأسلاك حديدية وقطع إسمنتية عرفت أن قذيفة عملاقة قد اخترقت سقف ذلك الرواق وعبرناه مسرعين والطفل أمامنا.

كان رواقا قصيراً يصل الباب الخارجي بفسحة سماوية تتوسطها بركة نافورة حجرية جافة، انتشرت حولها أصص زهور يابسة، وأوراق كتب ممزقة اختلطت بأوراق وأغصان نباتات جافة وأكياس نايلون حملتها الرياح، والغبار يغطي كل شيء.

وعاد الصوت المبحوح من الداخل:

- تفضلوا.. أهلا وسهلا لا تواخذوني

وحين صعدنا الدرجتين إلى عتبة الغرفة التي يأتي منها الصوت رأيت ذلك الرجل المقعد في فراشه هناك في الزاوية...

لم ينهض ليستقبلنا، كان مقطوع الساقين منذ فترة وجيزة حتى أن جراحه لم تشف بعد تماماً، كنت أعرف ذلك من مرافقي الذي أخبرني بأنه مقعد بعد أن بترت شظية برميل سقط على الحي ساقيه الاثنتين ومن الركبتين..

كان شاباً وسيماً حاضر البسمة ناتئ عظام الوجة يرتدي بيجاما رثة ومتسخة تكشف شيئا من صدره العريض والغزير الشعر. لم أرَ طوله لكن نصفه العلوي كان ينبئ عن فتوة وصبا قلما تراهما في شاب آخر.

وحزت في نفسي كلمته التي قالها بعجز

- لا تؤاخذني لا أستطيع النهوض

بينما شكله يوحي أنه كان ذات يوم يستطيع بفتوته اقتلاع شجرة.

كثيرون هم الذين تنفّذ الحرب بهم حكم القتل، ولكن الأكثر هم الذين تقتلهم مع وقف التنفيذ.

وفي ذلك البيت المتداعي عرفت تلك الضحية التي قتلتها الحرب مع وقف التنفيذ

تركته حطاماً لا حول له ولا قوة، تركه الجميع؛ منهم من مات ومنهم من هاجر فارا بروحه، تركوه مع زوجته التي تعني بجراحه وتحملة كل أسبوع إلى المشافي الميدانية كي تلتئم جراحه الطرية المهددة بالالتهاب...

قال لنا والطفل يسمعه:

- كانت تدور حلب كلها لتبحث لي عن الدواء وفي الأيام الأخيرة لم يعد موجوداً، فاضطرت إلى السفر إلى أهلها في مدينة الأتارب القريبة من الحدود لعلها تحصل عليه هناك مهربا من تركيا.. تخيلوا حلب التي كانت تؤمن كل شيء للناس صارت تحتاج قرية صغيرة لتأمين علبة دواء، ولكن بعد أن خرجت حوصرت المدينة وانقطعت الطرق، ولم تعد بعد، كل الطرق محاصرة كيف ستعود؟

ورفع صوته أكثر من مستواه المبحوح الذي كان يحدثنا به في جملته الأخيرة، وقد وجه نظرته إلى الطفل المكوم في الزاوية البعيدة غير مهتم بوجودنا، وهو يقضم أطراف أصابعه.

سألته:

- لماذا لم تهاجر فربما في الخارج تجد العلاج والدواء المناسب.

نظر إلى متحسراً

- هاجرنا من قال لك لم نهاجر. بعد إصابتي بثلاثة أشهر خرجنا مع الناس الهاربين من القصف إلى الريف الشمالي، حملوني على كرسي وكانت معنا بعض النقود التي وفرناها من أيام زمان لم استطع الاحتمال، الغربة صعبة وحاجة الناس أصعب من الموت، طيلة عمري ما احتجت إلا إلى الله كنت أعمل بالتجارة، وكان المولى طامرنا بخيره لكن اليوم كل شيء توقف لا بيع ولا شراء أملاكي كلها لا تساوي قرشا... حتى هذا الطفل أدخلته من سنة إلى أفضل الروضات في الحي كله، كان شاطراً وذكياً وفجأة، وجدت نفسي عاجزا ووحيداً حتى مشردا في بيوت الناس، جزاهم الله كل خير لم يقصروا، ولكن أنا لم استطع الاحتمال فضلت الموت في بيتي، ولا أكون عبئا على أحد هاجرت ولكن لم استطع أن أنسى هذا البيت الذي ولدت فيه ومات فيه أبي وأمي وجدي وجده أيضا، روحي متعلقة بهذا البيت.

سألته:

- ولكن أنت الآن وحيد، من الذي يقوم بتامين حاجاتك؟

رد بإنكار فيه رائحة الذل والقهر:

- الله ما بيقطع حدا أهل الخير كتار، وصدقني ما نمت جوعان، وأشار إلى طرف فراشه.

انتبهت لوجود كيس فيه بعض قطع من الخبز المكسر وكيس أخر فيه علب دواء.

- لا تصدق أن الله ينسى أحدا، عندي جاري أبو عدنان وصديق طفولتي لم يتخل عني أبداً، جزاه الله كل خير يقوم بكل ما أحتاج إليه حتى إنه يحملني إلى الحمام

واغرورقت عيناه بالدموع، وغص صوته، وقد خنقته العبرة، وساد

صمت طويل مشحون بالأنفاس ولم يقطعه سوى صوت الطفل الذي كنت أراقبه طيلة جلوسنا، وهو يقضم أصابعه، ويقوم أحياناً بحركات غريبة أخافتني عليه من أن يكون مصاباً بمرض التوحد وخاصة حين صرخ، وكأنه كان ينتظر سكوت أبيه لينفجر سائلاً:

- ايمتا رح ترجع ماما؟؟؟؟ واستغربت أن يصرخ به أبوه بشدة

- قلت لك ألف مرة بس يفتح الطريق، الطريق مقطوع

والتفت إلينا كأنه يشكك بكلام أبيه

- صحي الطريق مقطوع؟ طيب ليش مقطوع

- من الحرب. رد أبوه بحدة فرد الطفل:

- وليش الحرب؟ ليش عملوا حرب وقطعوا الطريق؟

- بس مشان ما ترجع ماما أنا بدي ماما.

شعرت بقلبي يتكسر تحت ضربات أسئلة الطفل البريئة والقوية والتي تكاد تمتزج بدموعه ناديته إليّ عدة مرات لكنه رفض حتى أن ينظر إليّ.. بينما سمعت الأب يقول:

- والله لو وصلت إليك حتى أحرمك الحكي

قلت مستنكراً:

- لا يا رجل اتركه يتكلم

قال لي:

- يا أستاذ والله شيبني كرهني الأولاد، تمنيت لو ما كان عندي ولد كل مصائبي كوم، وهو كوم لا أعرف ماذا أقول له ليل ونهار وهو ينق:

بدي أمي بدي أمي وأمه ذهبت لتحضر لي الدواء وانقطع الطريق ماذا افعل؟

- لا نحن نستطيع الخروج من حلب ولاهي تستطيع الرجوع إلينا ماذا أفعل؟

من يومها وهو في عزلته لا يفارق باب الدار رفض حتى أن يخرج للعب مع أولاد الجيران لا يأكل إلا بالزور، والله لا أعرف ماذا أفعل معه... حسبي الله ونعم الوكيل.

ناديته مرة أخرى وحين رفض نهضت إلى جواره فانكمش على نفسه مبتعداً عني حتى التصق بالجدار في الزاوية.

سألته هامساً:

- ما اسمك؟.. لم يرد، قلت:

- ما تعرف اسمك

قال بحدة

- بعرف بس ما بدي أقول

- أنا اعرف اسمك وهتفت بنبرة الفائز

محمد

- لا

- أحمد...

- أيوا أنت عبد الله أكيد؟

رد مبتسما ابتسامة باهتة وكأنه يستهزئ من جهلي:

- لا... عبد الله ابن الجيران رفيقي. وتابع مؤكدا

- أنت ما بتعرف اسمي

- يعني اسمك مو حلو

- لا حلو

- طيب شو اسمك؟

- اسمي ليلان

- أووووه ليلان اسم حلو كتير، وشعرت بفرح يغمرني وأنا أتابع كيف بدأ هذا الطفل بالأخذ والرد معي، بعد أن كدت أشك أنه متوحد إذ

كان رافضاً كل ما حوله مددت يدي إلى حقيبتي، وبدأت افتحها بهدوء لأثير انتباهه بينما راح هو يتابعني بفضول وسألته:

- هل تعرف ماذا معي؟

- شو

وأخرجت أوراقا وقلماً، وصورا لي من المخيمات وداخل المدارس التي أزورها والتقي الأطفال فيها

قلت صور أولاد حلوين هم أصدقائي وحين رأيت عينيه متعلقتين بيدي رحت أعرض أمامه صوري مع أطفال المخيمات ونحن نأكل ونلعب وأسأله في كل صورة:

- أين أنا؟

فيضع إصبعه الصغيرة على صورتي ثم راح يسألني بدوره:

- من هذا؟ قلت صديقي

- من هذه؟

- وهذه صديقتي أنا عندي أصدقاء حلوين كتير، وأنت هل تحب أن تصبح صديقي؟

نظر إليّ مقلبا بصره بين الصور وبيني ثم قال:

- بس بدي شي حتى نصير أصدقاء

واستغربت أن يشترط علي طفل في هذا العمر.

- بدك تروح تجبلي ماما

- رح نجيبها... فرد مشككا؟

- صحيح؟

- أومأت له برأسي بهزات متلاحقة أي نعم، وسألته قبل أن يؤكد عليّ وعدي:

- بتعرف ترسم؟ وأنا أفرش أمامه ورقة بيضاء، ورحت أرسم عليها

ما يشبه البرتقالة تابعني حتى أنهيت الخطوط وسألته:

- حلوة؟

لم يجبني وإنما نظر إلى الجدار المقابل حيث كانت نافذة في الجدار العريض، والذي تشابكت عليه قضبان حديدية برسوم زخرفة أنيقة وفي أرض النافذة حقيبة مدرسية خضراء سألته:

- هذه حقيبتك؟

أشار بعينيه أي نعم

- هاتها لنرى من يرسم أحسن؟

وشعرت بفرحة تغمرني؛ وهو يتجاوب معي وينهض متثاقلاً أمام استغراب أبيه ليحضر المحفظة، ثم فتحها وأخرج دفتراً، وراح يقلب رسوماً فيه، ويحدق بعد كل صفحة في عيني وكأنه يسألني:

- حلوة؟

وأنا أصفر معبرا عن دهشتي مبدياً إعجابي

وقلب صفحة ونظر إلى أبيه بحذر، رأيت خطوطاً تشكل ما يشبه رأس بنت وقال لي:

- هذه ماما

وقلب عدة صفحات أخرى، كلها ترسم نفس الشكل بطرق مختلفة همست له:

- هل أرسمها لك

قال كأنه غير مصدق؟

- صحيح؟

- أي عندك ألوان؟

وهب واقفا وراح يبحث في الغرفة ثم غادرها قائلا:

- سأجلب الألوان

نظر إلي الأب الذي كان يتابعنا باهتمام، وبسمة حنونة لم تفارق شفتيه وهمس بارتياح:

- جزاك الله كل خير يبدو أنه أحبك، من أسبوعين وهو يرفض حتى الكلام، عقدني والله كل رفاقه في الحارة جاؤوا إليه رفض حتى أن يخرج ليلعب معهم.

قلت له:

- لابد أن نجد طريقة نحضر بها أمه، أنا سأحاول أن أساعدك إن شاء الله

نظر إلى بنظرة عميقة ولم يتفوه حتى بكلمة، بل سمعت غصة مقهورة تختنق في حلقه.

عاد الصبي بعلبة الألوان من الغرفة الثانية، رسمنا وجوها كثيرة ولكنها لم تعجبه كان يقول لي ماما أحلى ويأخذ القلم من يدي ثم يرسم دائرة الوجه ويبدأ بخط شعر طويل حوله وهو يقول شعرها أطول أطول، ثم رسمنا فواكه كان يرسم من كل نوع اثنتين ويقول:

- هذه لي وهذه لماما حين ترجع.

وفي الوقت الذي كان مرافقي قد رصد احتياجات البيت التموينية وسجلها لي لنشتريها كنت أقترح على ليلان:

- ما رأيك أن نخرج إلى السوق ونشتري فواكه. وقبل أن يرفض قلت:

- إذا عادت الماما يجب أن تجد فواكه... وإذا به يقفز فرحاً أمسكته من كفه الصغيرة، وخرجنا معاً، وكنت قد عقدت العزم على فعل المستحيل لإيجاد طريقة أعود بها مع الأم التي قطع الحصار عليها الطريق ورحت أحدثه عن ذلك...

اشترى من كل أكياس مأكولات الأطفال كيسين كيسين، وهو يقول: هذه لي وهذه لماما. وأنا اطلب منه أن يأخذ ما يريد ورأيته يمد يده إلى

شيء معلق وقال للبائع:

- من هادا

قال البائع مبتسماً

- هذه شكلة شعر للبنات وأنت صبي مو بنت

قال بعناد:

- أي أعرف

سألته:

- لم؟ أنت رجل ماذا ستفعل بها؟

- هذه لماما

ونحن في الطريق من الدكان كان فرحا جداً، وأنا كنت أكثر فرحاً وخاصة حين رأى بعض رفاقه يلعبون في ظل جدار، فترك يدي وركض نحوهم منادياً:

- عبد الله، عبد الله ماما سترجع، عمو سيرجعها

صاح الأولاد بفرح:

- هيييه هيا تعال العب معنا

التفت إلي وسألني:

- هل ألعب معهم؟

- طبعاً يجب أن تلعب معهم على طول

وتركته يلعب معهم بعد أن كان قد هجرهم كما قال أبوه، وكنت أقول في سري:

اللهم أعني على أن أكون صادقا مع هذا الطفل وأكمل فرحته

راح الأب يشكرني وهو يرى الأكياس:

- ليش عذبتم حالكم يا أخي، والله خير الله كثير، والله ما ناقصنا شي واستغربت عفة هذا الرجل الذي لم يكن في بيته من طعام سوى

خبز مكسر،

تذكرت تلك المرأة في إحدى قرى ريف اللاذقية، وعفة نفسها هي الأخرى، كنا نوزع مبالغ مالية من أحد المحسنين على نساء الشهداء، وحين أعطيتها المبلغ تناولت نصفه، وأعادت إليّ النصف الآخر، وحين قلت: هو لك. قالت لا هذا يكفيني وحين ألححت عليها قالت: يا أخي البارحة جاءني زوجي في المنام وطلب مني أن آخذ النصف فقط؛ لأن هناك من يحتاج النصف الآخر... استغربت ذلك ولكن ما أثار دهشتي حين انتقلنا إلى منطقة أخرى وجاءتني امرأة عجوز تطالبني بالمبلغ الذي رأته في منامها يدفع لها هي الأخرى...

كل ما في الحرب قد لا يصدق ولكنه يقع

وانتشلني من ذكرياتي صوت الرجل المقعد يقول:

- أن أكبر شيء قدمته لي هو أن أرى ولدي تعود إليه فرحته

قلت بحماس:

- إن شاء الله سأكملها له وأجد طريقة لإحضار أمه.

وحين لم يرد عليّ قلت له:

- ما عليك أنت، أعطني العنوان بالتفصيل، وأنا أتواصل مع من يستطيع إحضارها، وحين بقي صامتاً بدأت وساوس وشكوك تتحرك داخلي:

ربما غادرت البيت بعد شجار، ربما طردها أو طلقها، ربما لم تعد تستطع احتمال عجزه ربما... ربما... وكي أقطع الطرق على هواجسي قلت له:

- قل لي ما هو اسمها الكامل وعنوانها

ولم يرد .. شعرت بأنه لا يصدق فتابعت محاولا إغراءه:

- سأتواصل مع أصدقاء لهم قوتهم ومكانتهم، أعطني أنت الاسم

والعنوان فقط:

ورفع بعد حين إلى عينين مغرورقتين بالدمع وهمس:

- العنوان: مقبرة الأتارب

لم أستوعب ما قاله لكنه تابع:

- مشكور يا أخي، والله أعرف أنك لن تقصر لكن أم ليلان ماتت هناك، استشهدت بعد سفرها ببرميل سقط على السوق...

*****

كم خجلت من نفسي حين أكثرت في كلام وطلب للمساعدة وهو يفكر كيف سوف يخبرني، وقال لم نخبر الطفل انه صغير.

بعد قليلا من وقت اخبرته اتمني لك راحة البال استاذنا وغادرنا مرشدي كان الاول لكي لا يراني ليلان ولكي لا يرى دموعي التي فاضت حين وقفت لأخرج من مكان.

يجب ان تسامحني يا ليلان هنا لا يمكنني أن أقدم مساعدة من يموت لا أحد يصل له لقد فقدت كثيرا من الذين أحبهم، عندما يفقد الطفل أحد والديه، أصعب سؤال كل يوم كل ساعة كل دقيقة اين أمي

كيف لهذا الاب أن يتحمل الطفل كل ما سئل عن امه، لماذا لم يخبره، ماذا لو عرف هذا الطفل من بائع عندما ذهبنا له ماذا سوف يحدث؟

لا يجب أن نخفي الحقيقة عن الأطفال وأن ندعهم في أمل وانتظار من حقهم المعرفة وانا يحزن لمن يحب.

*****

كتبت في دفتري:

ليست حلب هي أول أو آخر من حوصر وشرد أهلها بعد دمارها فقد سبقتها حمص ومضايا والزبداني ومدن كثيرة وتلتها مدن أكثر، ومن أشدها هولاً حصار الغوطة وقرابة نصف مليون إنسان ست سنوات متتالية انتهت بتهجير من لم يمت من أهلها.

ويلات الحصار أكثر من أن تعد وتحصى، إنها أعمق بكثير من أن ترصد العين كل تفاصيلها، وقد كتبت بعض ما عايشته منها وهو أقل من القليل ونقلت إلى دفتري بعض ما عاشه أهل الغوطة من حصار من خلال رسالتين نقلهما للعالم: طبيب وأم.

الأم نيفين كانت تحاول أن تحيط ولديها بذراعيها في الملجأ؛ لتحميهما من القصف.

كتبت تقول:

(لما بيشتد القصف بشعر تكويني الجسدي ناقص، يعني إدبي التنين مو كافيين ليحضنوا ابني ويحموه من الخطر، ما عم أقدر استوعب إني ما بقدر غطي بإدبي قصي ومايا...)

أما الطبيب حسام فقد كان الأقرب إلى ضحايا القصف في المشافي الميدانية وسأنقل رسالته حرفياً التي كتبها للعالم لأنها تقول كلّ شيء وتختصر رسالتي إلى العالم في نهاية كتابي:

رسالتي اليوم ليست إلى قادة العالم ومنظمات حقوق الإنسان.

رسالتي إلى شركائنا من البشر على هذا الكوكب.

رسالتي إلى من يضم أطفاله ليلاً قبل نومهم.

رسالتي إلى كل أم تودع أطفالها صباحا بقبلات الحب قبل ذهابهم الى مدارسهم.

لكل أم ولكل طفل ولكل أب ولكل إنسان تتغلغل حروف الإنسانية في خلايا جسده.

اسمعوني..

القرن هو القرن الواحد والعشرين حيث نجح العالم بالحفاظ على حيوان الباندا من الانقراض، واستطاع العلماء اكتشاف إمكانية الحياة على أحد كواكب مجرتنا.

العام هو العام الثامن عشر بعد الألفين حيث أضيئت في شوارع العالم أكبر شجرة عيد ميلاد، واحتفل العالم بجوائز نوبل للسلام.

الشهر هو الشهر الثاني حسب توقيت ميلاد السيد المسيح الذي ملأت تعاليمه الأرض بعبارات السلام.

أما اليوم فهو الخامس من التوقيت الدموي على حملة إبادة نصف مليون محاصر من المدنيين، والأطفال، والنساء في بقعة من العالم تدعى غوطة دمشق والتي غابت عن شاشات الأقمار الصناعية التي اجتازت مجرتنا إلى غيرها من المجرات لكنها عجزت عن رؤية تلك الحمم والنيران التي تلتهم الأطفال والنساء على أرض غوطة دمشق

يبدو أن الدماء تعيق عمل تلك الأقمار فقررت أنا الطبيب المناوب مع زملائي الذين ما أغمضت عيونهم منذ خمسة أيام إيصال صوتنا لباقي مجرات الأرض ليس لشيء إلا أملنا أن نجد في غير تلك المجرة مكانا لا براميل فيه، ولا صواريخ تمزق أطفال غوطتنا، ولا طائرات ترمي في كل دقيقة حممها على رؤوس النساء والأطفال والعجائز.

أما المكان فهو ما تبقى من نقاط لإغاثة جزء من الجرحى الذين تقطعت أوصالهم وبترت أطرافهم، واقتلعت عيونهم، وأزهقت أرواح أجنتهم لا لا ذنب فعلوه سوى أنهم ولدوا على كوكب الأرض، وحالت دماؤهم بينهم وبين مجسات الأقمار الصناعية، وكمرات شاشات العالم

فأبيدو بصمت مطلق حقير قذر.

خرجت مع جمع من زملائي، وقد غاب عنا الزمان، فلم نعد ندرك ليلنا من نهارنا، وكل ما يجعلنا ندرك الوقت هو تلك المجازر والأشلاء التي تصلنا من المسعفين وصرخاتهم تنبئنا أنهم كانوا صباحا على طابور لتوزيع لقيمات الشعير فأردتهم براميل الموت أشلاء ممزقة

قررنا الخروج من قاعات العمليات لنتنفس هواء خالياً من رائحة الدماء ولتسمع آذاننا ولو للحظة غير صوت بكاء الأطفال وعويل الأمهات.

وليتنا ما خرجنا!!!

الممرات وردهات الانتظار والمداخل وقاعات الإنعاش ومكاتب الإدارة ومواقف السيارات كلها مملوءة بالمئات من الأسر التي حضرت مع أبنائها من تحت ركام بيوتها، ولم تستطع العودة لأنه لم يعد هنالك مكان تعود إليه

تضع الأم ابنها الذي أجرينا له جراحة منذ يوم أو يومين على الأرض المتجمدة بلا حائل لأن الأسرة والغرف امتلأت بالجرحى، ترتجف يداه من شدة البرد، وتبكي الأم فوق رأسه لا تدري ما تفعل.

الجثث منتشرة بين الناس في الردهات والأطفال تبكي آباءها، والنساء تبكي أطفالها ولا إمكانية للخروج حتى لدفنهم فحتى المقبرة تم استهدافها، ومكان تجهيز الموتى تم تدميره.

شاهدت طفلا فقدناه البارحة، وفشلت محاولاتنا بإنقاذ حياته، وقد استلقت أمه بجواره على الأرض نائمة بعد أن جفت دموعها عليه طوال الليل فاستسلمت لنوم عميق، وهي تحتضنه ودماؤه غطت ثيابها المشظاة

تسارعت خطواتي، وتسرعت نبضات قلبي، وأنا أتنقل بين الجريح

والشهيد والمصاب. وبين البشر المرميين على الأرض أبصرت قريبي نائماً بزاوية منفردة ركضت تجاهه أحث الخطا فاستوقفني أحد أخوته وقال مات أخي وهو يحضر رغيف شعير لأطفاله.

يا الله

يا لهذه الجريمة

مات منذ يومين وأنا الذي أضمد الجراح لم أعلم به، وعجز الجميع حتى عن دفنه.

نظرت في مرآة سيارة الإسعاف فلم أبصر في عيوني تلك الدموع التي ما فارقتني منذ سنوات وأنا أودع الطفل تلو الطفل من أبناء وطني، فعلمت أن للدموع نهاية كما أن لهذا الظالم نهاية كذلك.

قررت أن أعود لرائحة الدماء فهي أرحم من تلك الأهوال في الممرات والردهات لكن عجوزا استوقفتني وقالت:

هذا ابني أمامي قتله برميل أعمى، وهؤلاء الصغار أطفاله حوله يبكون اتعرف لماذا!!؟

لم أجبها فاغرورقت عيناها بالدموع وقالت لي: والله منذ يومين ما ذاقوا لقمة طعام أبكاهم الجوع قبل أن يبكيهم اليتم.

قهر الرجال

عجز العالم

موت الإنسانية

ماذا أصف وماذا أجيبها؟

وكيف لما في جيبي من مال أن يسعفها، وقد دمرت كل الأسواق والمستودعات، فلم يتبق ذرة طعام في شوارع غوطة كانت يوما تعج بالحياة والثمار من كل لون، فلم تعد تبصر في أزقتها سوى لون الدم، ورائحة الموت

جلست بجوار تلك الجدة الستينية، وأعلم أن لا شيء يواسيها إلا أنني جلست لعجزي وقهري.

فربتت على كتفي وقالت بالحرف:

إن استطعتم دفن ابني فادفنوني حية بجواره، فكما عجزتم عن إنقاذ حياته سأعجز أنا عن إطعام أطفاله

أي قهر هذا أيها القرن الواحد والعشرون..

أي عجز هذا أيها العالم المدعي لإنسانيته.

رسالتي اليوم ليست إلى قادة العالم، وليست إلى ملوكه، وليست إلى مجالس الأمن ومنظمات حقوق الإنسان

رسالتي إلى شركائنا من البشر على هذا الكوكب.

رسالتي إلى من يعتقد أنه مازال في روحه تلك النفخة الإلهية.

اسمعوني...

هنا في الغوطة بشر مثلكم كل ما أرادوه حقاً بحياة كريمة ليس إلا فأضحت براميل البارود تتساقط فوق أطفالنا.. وغصت سماؤنا بالطائرات التي تلقي حممها على رؤوس نسائنا، واشتعلت الأرض من تحت أقدامنا..

وأنتم شركاؤنا على هذا الكوكب.

كل ما نريده منكم أن تثبتوا لأطفالكم أنكم ما تركتم أقرانهم يموتون بلا ذنب؛ لأنكم بشر تملكون في قلوبكم تلك النفخة الإلهية

أخبروهم أنكم فعلتم شيئا لإنقاذهم وإيقاف تلك المجازر بحقهم

أخبروهم أن كوكب الأرض يتسع لهم ولأقرانهم

وإن تغاضيتم عن تلك المجازر، والدماء فاعلموا يقيننا أن هذا الكوكب لن يستحق وجودكم عليه.

وكما أنه يدور حول ذاته، فسوف تدور تلك المجازر في عقولكم

وتلافيف أدمغتكم لتحرمكم نومكم وسعادتكم ولذة تقبيل أطفالكم في كل يوم

ويقيننا إن من أوصل لقيمات الطعام إلى بطون أطفالكم وأنزل الدفء على أجسادهم لن يضيعنا ولكن دماء أطفال غوطتنا عار عليكم إن أغمضتم طرفكم عنها.

فأنقذوا معنا إنسانيتكم.

*****

قصة لم تتم

في واحد من مخيمات الريحانية التركية رأيتها، تجلس بعيدا عن الجموع، تسرح ببصرها نحو الجنوب تزيح رأسها ذات اليمين وذات الشمال؛ لتتجنب أغصان شجيرات أمامها تمنع عنها الرؤية، وكأنها تحاول أن تدقق النظر في شيء بعيد غير متضح المعالم...

حاولت أن أرى ما تراه، وأنا اقترب من ظهرها المقوس الذي تديره لي... لم يكن أمامها إلا امتداد السور الحدودي الذي ترتمي وراءه الأراضي السورية، وحين أحست بخطواتي التفتت إليّ، عيناها كانتا بحيرتي دمع يفيض على وجهها المجعد.

- إلام تنظرين يا خالة هل أضعت شيئاً؟ أشارت برمشيها الشائبين أي نعم

- ماذا أضعت؟ وأنا أساعدك

شعت ابتسامة يائسة في مستنقع الدموع، وهزت رأسها بإشارة تقول فيها مستحيل ثم همست

- أضعت عمري وروحي

وعادت تحرك رأسها مع ظهرها المقوس، وتمد عنقها مع نظرها إلى الأمام ثم تأخذ شهيقاً عميقاً كأنها تريد ابتلاع النسيم البارد القادم من الجنوب.

- أرجوك عم تبحثين؟

- عن رائحتهم، أحاول أن أرى قبورهم هناك،... هناك في حمص حيث تركتهم... كانوا ثلاثة عشر، تركتهم في قبر واحد مغطى بسقف البيت....

ومدت إصبعا نحو الجنوب وهي تشهق قائلة:

- انظر معي هل تراهم هناك

كان بيننا وبين حمص أكثر 300 كيلو متر على خط النظر

- لا تخف أستطيع أن أراهم، وأشارت إلى صدرها ودقته بقبضتها المعروقة

- إنهم هنا...

وكادت تغرس إصبعها في مقلتي عينيها وهي تهمس:

- إنهم هنا...

وقفت، واتجهت ماشية نحو الشريط الحدودي، تركتني حائراً عاجزاً عن الرد،

تركتها لأني شعرت برغبتها في أن تكون وحيدة، وقلت في نفسي أواسيها في مرة قادمة تكون فيها أحسن حالاً.

تابعت بنظري ظهرها المحنيّ على عكازها، وخطواتها المرتجفة لم أر امرأة، رأيت جبلاً يتحرك على عكاز، بل إن الجبل لا يقوى على حمل ما كانت تحمله.

حين بحثت عنها في اليوم التالي لم أجدها، ولم أستطع ان أعرف عنها خبراً.. اختفت مع حكايتها قبل أن تصل إلى دفتري، تاركة سطور حكايتها فارغة في دفتري مثلها كمثل الملايين من الحكايات التي ماتت واختفت باختفاء أصحابها.....

نداء أخير لسلام

هذا غيض من فيض مما عشته خلال زيارتي الوحيدة، والتي لن تتكرر لهذه الحياة، وقد ملكتني رغبة مغادرتها بعد الذي عرفته من وحشية بني البشر... لم أحلم أن أصبح أبا لأحد كي لا يصبح يتيما بعد مغادرتي، أو أصبح أنا يتيما بمغادرته، وأحلم أن احمل معي كل الأطفال، أولئك الملائكة الذين يدفعون ضريبة ذنوب الكبار.

بعد كل هذا الذي عايشته وعانيته ورأيته وسمعته من آلام هذه الحرب التي لم تنتهي بعد، وبعد كلّ الذي قرأته عن الكثير من الحروب في الأرض عبر التاريخ، ومنها حروب مقارعة المستعمرين التي كنا نسمعها ممن خاضوها أحياناً، وأحيانا من أراملهم أو أيتامهم بعد أن رحلوا شهداء إلى جنتهم تاركين مَن وراءهم في جحيم الحياة وبعد أن رأيت ويلات الحرب في بلدي.

كتبت في دفتري:

لا للحرب لا للحرب لا للحرب... مع أي كان وضد أي كان ومن أجل أي كان... الحرب تلك المطحنة البشرية التي تسحق أرواح البشر من كلا الفريقين المتحاربين، وبينهما تسحق آلاف مؤلفة من الأرواح البريئة، بينما يرفع قادة كل فريق منهما رايات البطولة، وأوسمة النصر، وتخلّد أسماءهم على جدران التاريخ لكنها في الحقيقة على جماجم شعوبهم.. الشعوب التي غزت العالم كم قدمت من قتلى لتحقق مجد قادتها، وكم قتلت من ضحايا لتعمر إمبراطورياتهم

الإنسان من كلا الفريقين المستعمِر والمستعمَر هو الضحية...

يا من تشنون الحروب أما آن الأوان لأن تشنوا السلام؟

الحرب مطحنة أرواح البشرية، وأسوأ ممارسات الإنسان على سطح الأرض وتهدد اليوم لا بدمار الإنسان فحسب بل بدمار الأرض كلها، الأرض التي أرسل الله الإنسان إليها ليعمرها لا ليفسد فيها ويسفك الدماء

الأرض التي لا تتجاوز حجم رأس دبوس بين المجرات الكونية تخترع مطحنة موتها، وربما يختصر عليّ القول

(كارل ساغان) بما كتبه في كتابه (الأرض نقطة زرقاء باهتة) حيث يقول وهو يتأمل الأرض من نقطة بعيدة في الفضاء السحيق:

من هذه النقطة المميزة في الفضاء السحيق

الأرض ربما لا تبدو مهمة على الإطلاق، ولكن لنا تبدو مختلفة

فلنعد مجدداً لهذه النقطة هذه النقطة، هذا الوطن، هذا نحن، عليها كل شخص تحبه كل شخص تعرفه كل شخص سمعت عنه...

كل إنسان أياً كان عاش هنا

محصلة سعادتنا ومعاناتنا، آلاف الأديان والمذاهب والطوائف الاقتصادية، كل صائد وباحث عن طعام...

كل بطل وجبان. كل صانع ومدمر للحضارة، كل ملك وفلاح فقير كل زوجين متحابين. كل أم أو أب، كل طفل حالم...

كل مخترع ومستكشف، كل معلم للأخلاق كل سياسي فاسد كل فنان لامع كل قائد مسؤول

كل تقي وآثم من تاريخنا البشري عاش هناك على قطعة غبار معلقة في شعاع الشمس

الأرض مرحلة قصيرة جداً في محيط الفضاء الشاسع.

فكّر في أنهار الدماء التي أرهقت كل الزعماء والأباطرة في الأمجاد والانتصارات التي مكنتهم من أن يكونوا حكاماً مؤقتين في جزء من قطعة غبار فكر في القسوة غير المنتهية التي نشأت من سكان ركن من قطعة الغبار على سكان آخرين من ركن آخر

كم تكرر غبائهم!

وكم كانوا متحمسين لقتل بعضهم، وكم كانت متأصلة كراهيتهم

تعصبنا وتخيلنا أهمية أنفسنا

الوهم بآن لدينا مكاناً مميزاً بالكون تتحداها هذه النقطة باهتة الضوء

كوكبنا هو نقطة وحيدة يحيطها ظلام كوني عظيم

جهلنا الغامض بأنفسنا في كل هذا الفضاء المظلم

لا يوجد أي إشارة أن المساعدة قادمة من مكان آخر لكي تنقذنا من أنفسنا الأرض هي المكان الوحيد المعروف الذي يحمي الحياة

لا يوجد أي مكان آخر

على الأقل في المستقبل القريب يستطيع جنسنا البشري أن يهاجر أليه

نزور الكواكب نعم نتخذها موطنا لا ليس حتى الآن سواء تقبلت أم لا

لهذه اللحظة الأرض هي موطنا الوحيد حتى الآن كان يقال إن علم الفلك ليس مهماً وتجربة شخصية ربما لا يوجد تفسير أفضل لتوضيح حماقة البشر أكثر من هذه الصورة البعيدة لكوكبنا الصغير

بالنسبة لي هذا المنظر يؤكد مسؤوليتنا

لنتعامل بلطف مع بعضنا

وآن نحمي بعضنا ونعتذر أكثر
النقطة الباهتة الزرقاء موطننا الوحيد الذي نعرفه

بينما نجلس جميعاً على هذه النقطة الزرقاء ونحن الذين نشهد حريق الوطن، مازلنا نحدق في الأفق البعيد باحثين عن بارقة سلام تلوح لنا... بارقة خير وأمان لنا وللبشرية جمعاء... فإن كنا نحن الذين نحترق فقلوب الإنسانية الحيّة لا شك أنها تتألم لألمنا، وخلاصنا راحة لنا ولكل ضمير حي.

في عصر الظلام هذا وفي غفلة من الضمير الإنساني ينفث تنين الكراهية نيران حقده في دروب الإنسانية الساعية إلى سعادة الجنس البشري ورقيه... وسط هذا الصراع أسأل نفسي: كيف يمكنني أن أعيش سعيداً وسط عويل المتألمين

هذه الحروب والويلات وهذه المظالم العميقة لا يسببها كائنات من كوكب آخر بل هم قادة وحوش من هذا الكوكب... أحلم أن يعودوا الى ثوبهم الإنساني ويتوقفوا عن إراقة أنهار الدماء آمل أن تتكاتف الجهود وتتوحد لوقف هذا النزف والتخفيف من وطأة المعاناة لاستعادة ما تبقى من أمل تحت الأنقاض وهذا ما فعلته بعض الجهات الإنسانية التي حاولت تضميد الجراح ووقف بركان الألم وبلغت حدا من النجاح

إن ما يحدث في سوريا لفظاعته قد يكون موضع شك خاصة وأنه قد فاق الخيال فظاعة كما حاولت القوى الغاشمة تشويه الحقائق والتلاعب بالمعلومات الحقيقية عن الصراع، ولكن بفضل ثورة الاتصالات وشبكة الانترنت تم نقل جزء من الحقيقة وما خفي واندثر تحت ركام الحرب أفظع وأعظم

ولا شك أن وصول جزء من الحقيقة إليك عزيزي القارئ سيريح ضميرك وينقذ صحتك الروحية التي قد تنتكس لجهلك بحقيقة ما يحث على طرف آخر من الكوكب الذي تسكنه.

الحبق لا ينتظر

ما أكثر الشهداء الذين يسقطون من كتب التاريخ!
من سيفطن إلى حبقة في حرب، استشهدت عطشاً،
واستشهد بموتها قلب أم كانت تتنفس
من رائحتها أرواح الراحلين.

هذا الكتاب يخلد بعض مآسي شعبي التي كتبت بدماء شهدائه..
لملمت اوراقه من عواصف تلك الحرب التي لم تبق ولم تذر
لتكون شاهدة على دمنا في وجه النسيان وليكون وصمة عار
على جبين الطغاة الذين ارتكبوا بحق شعبي اوزارا
لا تقوى البشرية على حملها.

ISBN 978-625-400-912-9
9 786254 009129